الحاوي في الحكاوي
عارف أحمد الحجاوي

الحكاوي

الحاوي في الحكاوي

مما قرأه وسمعه الراوي:
عارف أحمد الحجاوي

جسور للترجمة والنشر

الحاوي في الحكاوي

مما قرأه وسمعه الراوي

عارف أحمد الحجاوي

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

الحاوي في الحكاوي مما قرأه وسمعه الراوي

عارف أحمد الحجاوي.

٢٣٩ ص.

ISBN 978-614-431-741-9

١. القصة العربية.

892

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢٣

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت

josour.pub@gmail.com

الحاوي في الحكاوي

مما قرأه وسمعه الراوي
عارف أحمد الحجاوي



جسور للترجمة والنشر

المحتويات

مقدمة

لا يهدُف هذا الكتاب إلى أن يعلِّمك شيئاً، لكنه مفيد رغم أنفه.

كلُّ شيء طيَّ هذا الكتاب له بداية ووسط ونهاية. هو كتاب قصص. والقصة «فلاش» يلمع فيضيء زاوية من زوايا النفس أو المجتمع أو التاريخ.

كل الخرافات أكاذيب، لكنها تخبرنا شيئاً عن أمنيات الناس ومخاوفهم: هذا فقير يتمنى لؤلؤة في جوف السمكة، وتلك فتاة تتمنى أميراً، وهذا رجل يشتاق إلى العدل، وتلك امرأة تخاف سطوة المجهول.

وكل ما نقل عن مجالس الخلفاء والولاة مشحون بالمبالغات، غير أنه يشرح لنا طبائع الاستبداد، وحقيقة النظام الإقطاعي حيث تجبَى الخيرات لتستقر في صناديق الأمراء، ثم تتسلل فتاتاً إلى محاسيبهم.

ولا نظن أن أبا علقمة النحوي قال «لماذا تكأكأتم عليَّ؟ افرَنْقِعوا». لكن الناس وضعوا على النحاة تشنيعات لاغتياظهم من اعتداد النحاة بعلم لا يُشبع جائعاً ولا يُغيث ملهوفاً.

في هذا الكتاب فكاهات وأمثال بالمئات، فإن كان فيها عبرة فهذا حسن، وإن كانت مسلية فحسب فهذا أحسن.

التقطت من كتب التراث الكثير، وأمدَّني التنوخي والجاحظ بزاد وفير. غير أنني حكيت لك الحكايات بعد أن خلصتها من الحواشي، وبعد أن كويتها

بالمكواة حتى لا يختلط فيها صوت الراوي بصوت بطل القصة كما يحدث كثيراً في كتب التراث.

وقصصت عليك أشياء مرت تحت سمعي وبصري، فلا تعجب إن رأيت قصصاً من ألمانيا وأخرى من إنجلترا. والشرط هو الشرط: بداية ووسط ونهاية.

على أنني أزعم أن هذا الكتاب إنما هو صورة لثقافة العرب. وقد اجتهدت في أن أقص حكاياتي بأسلوب عربي ناصع، وشكلت الكلمات والأسماء حتى تستطيع أن تتلوَ القصة من هذه القصص على ولدك أو صديقك، أو أن تقتبسها في برنامج إذاعي، دون أن تلحن. وكنت أنا نفسي حكيت كثيراً مما في هذا الكتاب في برامج تلفزية.

حرَصت في كل ما رويت على التزام الأدب، وتجنبت ما حفلت به كتب القدماء من أحاديث يخجل منها راويها في زمننا. فلئن حمَلت حكاياتي أمنيات الناس ومخاوفهم، فإنها غضَّت الطرف عن مجونهم، وعن ابتهارهم وابتيارهم. والابتهار التفاخر بالمعاصي كذباً، والابتيار التفاخر بما وقع منها.

قد يضيق الأديب الفصيح بوقَفات أقفها لتفسير بعض الكلمات في سياق القصة، غير أنني كنت في معظم الأحيان أضع الكلمة غير المأنوسة في سياق يكشف معناها، ويعفيني من وقفة تفسير.

أرجو لكم مطالعة ممتعة.

عارف حجاوي

إستانبول، ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٢٢

١٨ صفر ١٤٤٤

قصص الأنبياء والأتقياء

عقوبة آدم

قيل إن الله ابتلى آدم بعَشَرة أشياء لما أكل من الشجرة المنهيِّ عنها: أولاً: العتاب ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾. ثانياً: الفضيحة، فقد بَدَت له ولحوَّاءَ سوءاتُهما، وطافا يسألان شجرَ الجنة ورقاً فزجرتهما كل شجرة إلَّا شجرةَ التين، فكافأَها الله بأن أعطاها ثمرتين في العام. ثالثاً: أَوْهى الله جلد آدم. كان جلده شديداً فصار واهياً، ولم يَبقَ له من الجلد المتين إلا الأظفار ليظل متذكراً النعمة التي فقدها. رابعاً: أخرجه الله من جواره، ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. أُهبط آدم إلى أرض الهند، وحواءُ إلى الحجاز. وخامساً: الفُرقة، وقيل فُرِّقَ بين آدم وزوجه مئةَ عام. وظلا يسيران حتى ازدَلفا أي تقاربا في المزدلفة، وتعارفا في عرفات. سادساً: العداوة من جانب الحيوان، فقد جُعلت الحية للإنسان عدواً، وهي مما أُهبط من الجنة. سابعاً: رمْيُ آدم بالعصيان ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾. ثامناً: تسليط الأعداء من البشر على أبناء آدم. تاسعاً: جعلُ الدنيا سجناً لآدم وبنيه يقاسون فيه البرد والحر، بعد أن كانوا في الجنة لا يرون شمساً ولا زمهريراً. والجنة في الحديث: سجسج لا حَرَّ فيها ولا قُرّ. وعاشراً: التعب والشقاء. انتهت العَشَرة. وعاقب الله حواء بهذه العشرة وزادها، وزاد بناتها، خمسَ عشْرة عقوبةً فوق العشرة. ولعمري للحيض والحمل يفيان بهذه الخمس عشرة كلِّها فلا أذكرها. ولكن الحية نالت عقوبة أيضاً: فقد كانت في

الجنة ـ فيما روى القصاص ـ كالبعير تسير على أربع قوائم، فقطعت قوائمها وأُمشيت على بطنها، وأبيح قتلها، حتى والمرء في صلاته أو في إحرامه.

إدريس وملك الموت

يقول الثعلبي إن إدريس أقدم الأنبياء بعد آدم، ويقص علينا قصته. كان سيدنا إدريسُ عابداً تقياً، يصوم الدهر. كان يُرفع عنه إلى السماء كلَّ يوم من الحسنات بقدر ما يرفع عن أهل الأرض جميعاً. رأى مَلَكُ الموت ذلك فاشتاق إلى إدريس. فأذن له الله سبحانه أن يزور إدريس. أتاه ملك الموت في هيئة إنسان. حان موعد الإفطار فدعاه إدريس إلى الطعام فأبى، وفي اليوم التالي أبى، وفي اليوم الثالث أبى. فقال له إدريس: قد استوفيتَ مدة الضيافة، والآن قل لي مَنْ تكون؟ قال: أنا ملك الموت، أُذن لي أن آتيك زائراً، فهل تأذن لي أن أصطحبك؟ ولك عندي أن ألبِّيَ لك رغبات ثلاث. قال إدريس: فلنبدأ بالأولى: اقبض روحي! طبعاً ملك الموت ما صَدَّق، فقبض روح إدريس. ولكن الله جل وعلا: رد على إدريس روحه. فقبضُ الأرواح لا يكون عبثاً. قال له ملك الموت: لماذا طلبت مني أن أقبض روحك؟ قال إدريس: أردت أن أذوق كرْب الموت حتى أكون له متهيئاً. وأردف إدريس: الرغبة الثانية أن تأخذني إلى السماء كي أطَّلع على ما فيها. هذه المرة استأذن ملك الموت رب الكون فأذن له، فحمل إدريسَ إلى السماء. قال إدريس: والآن إلى ثالثة الرغائب، أدخلني الجنة أرى ما فيها. فأُذن له، ففتح باب الجنة ودخل إدريس. وبعد حين ناداه ملك الموت أن هيَّا كي أعيدك إلى الأرض، فتعلق إدريس بشجرة في الجنة وأبى أن يخرج، فدار بينه وبين ملك الموت كلام كثير. فبعث الله ملكاً يحكم بينهما. قيل لإدريس: لا جنة إلا بعد موت فالموت حق ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾. قال إدريس: فإني قد مت بإذن الله وحييت بإذنه، فقد ذقت الموت. قيل له: فاخرج الآن، وستعود إلى الجنة مع الصالحين. فتعلق إدريس بجذع الشجرة وقال: قال تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا

بِمُخۡرَجِينَ﴾. فقال الله للملائكة: اتركوا إدريس في الجنة فقد دخلها بإذني. فنبي الله إدريس مقيم في الجنة.

هاروت وماروت

قال ابن كثير صاحب التفسير: «قص قصة هاروت وماروت خلق من المفسرين، من المتقدمين والمتأخرين». وذكر ابن كثيرٍ ثمانيةً منهم بالاسم. وعند ابن كثير فإن هاروت وماروت ما كانا يعلّمان أحداً السحر إلا بعد أن يشدِّدا عليه ألّا يكفر، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ صدق الله العظيم. هذه قصة هاروت وماروت كما جاءت في بعض التفاسير. لما رأت الملائكة ما يصعد إلى السماء من خبيث أعمال بني آدم استأذن اثنان منهم رب العرش في الهبوط إلى الأرض للإصلاح. هذان هما هاروتُ وماروت. أُهبطا إلى أرض بابل بالعراق، وأُمرا أن يحكما بين الناس بالعدل. وأخذا يعلمان الناس السحر. احتكمت إليهما يوماً امرأة اسمها الزُّهَرَة، وكانت من أجمل النساء، ففتنتهما، فراوداها عن نفسها. فقالت: لي عليكما شروط: تشربان الخمر، وتقتلان غريمي، وتسجدان للصنم. فتعوذا، وقالا: لا نخالف أمر الله. وعادت إليهما كرة أخرى وقالت: رضيت منكما أن تقوما بشرط واحد. فقالا: أهون الشرور الخمر، وشربا الخمر. وعندما سكرا قتلا الغريم وسجدا للصنم. فمسخ الله الزُّهَرة كوكباً. وندم هاروتُ وماروت، وأرادا أن يرجعا إلى السماء تائبين مستغفرين، فلم تطاوعْهما أجنحتُهما. واستشفعا نبي الله إدريسَ عليه السلام، فأُوحيَ إليه أن لهما الخِيارَ بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا. فعُلقا من القدمين منكوسين فوق غدير ماء، وبين لسانيهما وبين الغدير أقلُّ من شبر، يُعذَّبان بالعطش، ولا يصلان إلى الماء، ويبقيان على هذه الحال إلى يوم النشور.

لُثْغة موسى

كان فرعون يقتل كل ولد من اليهود. ووضعت أمُّ نبيِّ الله موسى ولدَها وهو رضيع في سلةٍ في النهر، فالتقطه آل فرعون. وعرضته آسيةُ زوجةُ فرعون على زوجها، فلما أخذه بين يديه مدَّ موسى يده فنتف شعرة من لحية فرعون. فقال فرعون: عليَّ بالذبَّاحين، فهذا لا يكون إلا من أولاد اليهود. فقالت آسية: قُرَّةُ عين لي ولك، لا تقتله فإنه صبي لا يعقل. وألهمها الله أن تدعوَ بمِجمرة وبطبقٍ فيه تمر، وقدمت الطبقين إلى الطفل الرضيع، فأمسك بيده جمرةً ولعِقها. فأحرقته، فتركه فرعون. وظلت بموسى لُثغةٌ في لسانه. قال تعالى على لسان موسى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

يقين آسية

دعا موسى فرعونَ إلى عبادة الله فأبى واستكبر، ودعا بسحرته، فأكلت عصا موسى ثعابينهم، فأمهله فرعون مهلة حتى يجد له حلاً. وكان في بيت فرعون ماشطة تمشط بناته، وكانت مؤمنة. وقع المُشط من يدها مرة فالتقطته قائلة باسم الله. قالت لها ابنة فرعون: باسم أبي؟ قالت الماشطة: بل باسم ربي ورب أبيك. فقالت الفتاة: لأخبرنَّ أبي بما قلت. فدعا فرعون بالماشطة فقالت: أعبد الله خالقي وخالقَك. فدعا فرعون بتنور عظيم من نحاس جُعلت فيه نار فتوهج، وجيء بالماشطة وبأولادها، فكان يُرمى في التنور بأولادها واحداً واحداً، حتى بقي في حِجرها طفل رضيع، فضعفت، فأنطق الله الرضيع فقال: اصبري يا أماه، فإنك على الحق، فقويت نفسُها، وألقيت في النار مع رضيعها. وكانت آسيةُ امرأةُ فرعون ترى المشهد من شرفة القصر، وكانت مؤمنة تستر إيمانها. فلما ماتت الماشطة رأت آسيةُ الملائكة يحملونها وأولادَها إلى السماء، فقوي إيمانها واستوثقت. ودخل عليها فرعون وجعل يخبرها بخبر الماشطة، فقالت له: الويل لك، لك عند الله حساب عسير. فظن فرعون بامرأته الجنون، فكلم أمها، فكلمتها، فثبتت امرأة فرعون على إيمانها. فقال

فرعون: سأقتلك قِتلة أشنعَ من قتلة الماشطة، ستموتين تعذيباً. ودعا بأربعةِ أوتاد دقت في الأرض، ورُبطت امرأته من يديها ورجليها وبدأوا يعذبونها كيّاً وضرباً ووخزاً بأطراف الرماح، فمر بها موسى فأشارت إليه بإصبعها شاكية، فدعا ربه أن يخفف عنها العذاب، فلم تعد تشعر بألم، فضحكت. قال فرعون لأمها: قلت لك إنها مجنونة، تُعَذَّب بهذا العذاب وتضحك. وأشار موسى برأسه إلى الأعلى، فرفَعتْ رأسها فأراها الله بيتها في الجنة. فماتت على يقين.

آخر الدواء الكيّ

كان بِلعامُ بنُ باعوراءَ نبياً وكان من الكنعانيين، يقيم مع قومه في البلقاء أرضِ الجبارين. قصد موسى عليه السلامُ أرضَ الجبارين لقتالهم، قال قومُ بلعامَ لبلعام: يا بِلعام! هذا موسى أتى بقومه معززاً بالملائكة، وأنت نبي الله وعندك اسمُ الله الأعظم، فامض إليهم وادعُ عليهم، وموسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ويريد أن يخرجَنا من أرضنا. قال بِلعام: موسى نبي الله ومعه الملائكة، فكيف أدعو عليه فأخسرَ دنياي وآخرتي؟ لكن قومَ بِلعامَ ظلوا يرجونه حتى رق لهم وقبِل. ركب بِلعامُ أتانه، أي حمارته، ومضى يريد تلةً يشرف منها على موسى وجنودِه كي يدعوَ عليهم. لكن الحمارة عثرت وزَلِقت. فضربها فمشت قليلاً ثم عثرت وزلِقت، فضربها فمشت قليلاً ثم عثرت وزلِقت، ثم نطقت. أنطق الله الحمارة فقالت لبِلعام: ويحك يا بِلعام، ألا ترى الملائكة أمامي يصدونني ويدفعونني في وجهي؟ فلما سمع ذلك خرَّ ساجداً، فجاءه الشيطان وقال له: ادعُ عليهم من مكانك فإن ربك يستجيب لك. فأخذ بِلعام يدعو على موسى وقومه فكلما دعا عليهم انقلب الدعاء على قومه. ثم اندلع لسانه على صدره، فعلم أنه خسر دنياه وأخراه. فرجع إلى قومه. وكأنه فكر فقال: خربانة خربانة! قال لقومه: لم يبق لنا إلا الحيلةُ والدهاء. زينوا نساءكم وأخرجوهن إلى معسكر موسى متبرجات يبعن ويشترين، فهذه فتنة للجند يعاقبهم الله عليها. وفعل قومُه ذلك فخرجت النسوة متبرجات، فافتتن

جند موسى، فأنزل الله بهم العقاب وأهلك منهم سبعين ألفاً في ساعة واحدة. فتأخر قوم موسى في تيههم ولم يدخلوا أرض الجبارين، ومات موسى في التيه.

العنقاء

أحدثكم عن طائر أضخم من الفيل، لكنه طائر، ويطير. إنها العنقاء. كانت العنقاء تحضر مجلس سيدنا سليمان. وجرى حديث القضاء والقدر فأنكرته. فأُوحِي إلى سليمان أن يلقيَ علها أمراً فألقى، وقال: هناك فتاة تعيش في أقصى الشرق، سيلتقي بها فتى يعيش في أقصى الغرب. سيلتقيان بقضاء الله وقدره، وسيتزوجان، فهل تمنعين وقوع المقدر؟ قالت: نعم. وطارت العنقاء إلى حيث الفتاة فاختطفتها، وأسكنتها برجاً عالياً في جزيرة مهجورة. وكانت تأتيها بطعامها وشرابها، وتعتني بها. وفي أقصى الشرق شبَّ الأمير، وأراد أن يجوب البلاد. فركب سفينة عظيمة عبرت به البحار حتى اقتربت من الجزيرة المهجورة. رأى من سفينته شجرة لها ورق كأنه آذان الفيلة، ورأى بجانبها برجاً. فرسا بالسفينة، ونزل إلى الشاطئ ومعه حصانه، وتسلق الشجرة، فأبصر الفتاة تطل من البرج فخاطبها. وقصت عليه قصتها، قالت: أمي العنقاء تأتيني بكل شيء، ولكنني لا أرى إنساناً مثلي. قال لها الأمير الشاب: إن جاءتك العنقاء قولي لها: أريد أن أتسلى بالحصان الذي على الشاطئ. ومضى الأمير إلى الشاطئ، وذبح حصانه، وأخرج أمعاءه، وطيبه بالزعفران، واختبأ في جوفه. وما هي إلا ساعات حتى اكفهرَّت السماء. لقد غطَّتها العنقاء بجناحيها، ثم إنها أنشبت مخالبها في الحصان وحملته إلى البرج، والأمير في جوفه. وطارت العنقاء لتَحضُر مجلسَ سيدنا سليمان. خرج الأمير من جوف الحصان، وجلس إلى الفتاة. قال سليمان للعنقاء: فهل منعت الفتاةَ من اللقاء بالشاب؟ قالت العنقاء: أجل، هي في برج لا يصل إليه إنسان. قال نبي الله: إذنْ، عليَّ بالفتاة؟ فانطلقت العنقاء وحطت على البرج، فاختبأ الفتى في جوف الحصان. قالت العنقاء للفتاة: هيا إلى مجلس سليمان الحكيم. قالت الفتاة: تحملينني بمخالبك كالمرة الأولى وتؤلمينني؟ لم لا أدخل في جوف الحصان وتحملينني

به؟ ودخلت في جوف الحصان، وفيه الفتى أيضاً. فحملت العنقاء الحصان وأتت به مجلس سليمان، ودعت بالفتاة أن تخرج فخرجت. ورفعت العنقاء رأسها بخيلاء. قال لها سليمان: انتظري هنيهة. ودعا سليمان بالشاب أن اخرج إلينا، ولك الأمان. فخرج الشاب من جوف الحصان. وقال سليمان للشابين: قد زوجتكما في مجلسي هذا. شعرت العنقاء بالخزي لأنها أنكرت القدر، وطارت من فورها، وظلت تطير، ولم تُرِد أن يراها أحد من الطير أو البشر خجلاً. وحتى اليوم ما زالت تطير، ولم يتمكن أحد من رؤيتها منذ ذلك الزمن.

بلقيس والجن

جاءَ نبيُّ الله سليمانُ ببِلقيس، وكره الجنُّ المسخرون في خدمته أن يتزوجَها، فقالوا إن ساقيْها مشعَّرتان وإنَّ قدمَها كحافِر الحمار. فأمر سليمانُ الجن أن يجعلوا أرضَ القصر من زجاجٍ شفاف، وأن يجعلوا تحت الزجاجِ ماء جارياً. فلما دخلت بِلقيس حسِبَتِ أنَّ على الأرض ماءً فكشفت عن ساقيْها لتخوض في الماء، فتبيَّن لسليمانَ أن لها ساقينِ وقدمين ككل النساء. وقيل إنها اتَّبعتْه وتزوجته.

سليمان والجن

سخر الله لسيدنا سليمانَ الجنَّ ينحِتون له التماثيل ويبنون الصروح الشوامخ. قال النابغة: (وخيِّسِ الجنَّ إني قد أذنت لهم.. يبنون تدمر بالصُّفَّاح والعَمَدِ). كان سليمان يعذب من الجن من أذنب، ولكنه سخرهم أجمعين. كانوا يحملون الصخور من مكان بعيد، ويأتون بها إلى حيث أمرهم، فجاءهم إبليس يوماً وقال لهم: كيف أنتم؟ قالوا نحن في شقاء مقيم، ما لنا طاقةٌ بما نحن فيه. قال إبليس: أتحملون الحجارة عائدين، وتحملونها ذاهبين؟ قالوا: بل نحملها عائدين فقط. فقال لهم: إنكم في راحة. ثم انصرف إبليس عنهم. فنقلت الريح لسيدنا سليمان ما دار بين إبليس والجن. فجعلهم سليمان يحملون التراب ذاهبين والحجارة عائدين. فورد عليهم من ذلك شدة شديدة.

وجاءهم إبليس فقالوا له: نحن الآن نحمل ذاهبين آيبين. زاد شقاؤنا. قال لهم إبليس: أتعملون في الليل؟ قالوا: بل ننام. فقال لهم: أنتم في راحة. وانصرف إبليس عنهم. فأبلغت الريح سليمان بهذا الحديث، فجعل سليمانُ الجنَّ يعملون في النهار وفي الليل لا يتوقفون. فجاءهم إبليس بعد حين فشكوا إليه أمرهم. قال: ما بعد هذا من مزيد، اقترب الفرج. وأحس سليمان في جسمه وهناً، ودبت إليه الشيخوخة، ولكنه كان متعباً من فكرة تؤرقه: الناس يظنون الجن يعلمون الغيب، وقد عجَز عن إقناعهم بأن الجن لا يعلمون الغيب، وقد نقل إليه جبريل أن من واجبه أن يقنعهم، فدبر سليمان تدبيراً. أمر الجن أن يبنوا له بيتاً من زجاج. ولما أحس بدنو الأجل دخل البيت وأحكم إغلاقه. واتكأ على عصاه، جعل العصا تسند جسمه من عند خاصرته، ووقف يتفرج على ملكه. رأى سليمان شاباً حسن الوجه وضيئاً عليه ثياب بيض يتقدم، ودخل الشاب البيت. قال له سليمان: كيف دخلت، وإني قد أحكمت إغلاق البيت؟ قال الشاب: أنا الذي لا يحجبني حاجب، ولا يدفعني دافع، ولا أخاف الملوك. فعلم سليمان أنه ملك الموت. قال: جئت كي أقبض روحك. قال سليمان: هذا يومٌ أردت أن يصفوَ لي، وألّا أسمعَ فيه ما يغمني. قال ملك الموت: يا سليمان أردت يوماً يصفو لك فيه عيشك ولا يغمك فيه شيء، وهذا يوم لم يُخلق في هذه الدنيا، فارضَ بقضاء ربك، فإنه لا مردَّ له. قال سليمان: فامض في أمرك. فقبض ملك الموت روح سليمان. لكن جسمه ظل واقفاً متكئاً على العصا. وظل الجن يعملون ليلهم ونهارهم، وهم ينظرون إلى سليمان واقفاً في قصره الزجاجي، لا يعلمون أنه ميت. ثم إن السوس دب في العصا وبدأ يأكلها، وبعد سنة لم تعد العصا تحتمل جسم سليمان فانكسرت وهوت وخرَّ سليمان أرضاً. فجاء الناس ووجدوا أنه مات منذ أشهر كثيرة. ورأوا أن الجن في هذه الأشهر لم يكفوا عن العمل. فعرفوا أن الجن لا يعلمون الغيب. وهكذا أدى سليمان واجبه بعد موته، وأقنع الناس أن الغيب من أمر الله سبحانه.

أدب عيسى عيه السلام

قيل إن عيسى عليه السلام لم يعِب شيئاً قط. ذُكر أنه مرَّ بكلب ميت، فقال صحبه: ما أنتنَ ريحَه! فقال عليه السلام: ما أحسن بياضَ أسنانه!

يمين ويمين

اختصم رجلان عند الأمير في مالٍ جليل، فقال أحدُهما للأمير: لا حجَّة عندي ولا دليل، ولكنه إن رضي أن يحلِف فليفعل. فقال له خصمه: نعم، سأحلف بالله العظيم على أن المال مالي. قال له: بل تحلف كما أقول لك، قل (تقلدتُ الحولَ والقوةَ دون الله إن لم يكنِ المالُ مالي). فحلف الرجل. قال الأمير: ولماذا اخترت له أن يحلف هذه الحِلفة؟ قال الرجل: لن يمرَّ عليه اليوم إلَّا وهو في قبره. فهز الأمير رأسه وذهب الخصمان. وما كاد الحلَّافُ المَهينُ أن يخرج من باب الأمير حتى سقط ميتاً، واسودَّ جسمه فصار كالفحم، وحُمل إلى قبره. وما وسَّدوه قبرَه حتى انخسفَ وثار ترابه. فاستدعى الأمير الخصم وقال له: أفصِح عما أردت بذلك القسم؟ قال الرجل: سمعت حديثاً عن رسول الله أنه قال «من حلف بيمين كاذبة مجَّد الله فيها استحيا اللهُ أن يعجل له العقوبة، ومن حلف بيمين نازع فيها اللهَ حولَه وقوَّتَه عجَّل الله له العقوبة قبل ثلاث».

العلماء وآل البيت

أراد كاتب الوحي زيدُ بن ثابتٍ أن يركب، فدنا منه ابنُ عباس ليأخذ بركابه، فقال له: تنحَّ يا ابنَ عم رسول الله، فقال ابنُ عباس: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا. فقال زيد: أَدْنِ يدَكَ مني، فأدناها. فقبَّلها وقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيِّنا.

فقيه السلطان

برع الفقيه أبو الفتح ابنُ برهان في علمه، وجلس للعامة يدرسهم، ثم فُوِّض إليه التدريسُ في المدرسة النظامية، وسرعان ما أخذ يتردد على أبواب السلاطين. ولما دنت منيته قال لأصحابه: اخرجوا عني! وسمعوا من وراء الباب فقيههم أبا الفتح يلطِم وجهه ويقول: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، يكررها ويقول: ضيعت العمر في طلب الدنيا وتحصيل الجاه والمال. يكلم نفسه ويكرر الآية: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾. ثم أنشد:

عجبت لأهل العلم كيف تغافلوا
يجُرُّون ثوب الحرص عند المهالكِ
يدورون حول الظالمين كأنهم
يطوفون حول البيت وقت المناسكِ

أنتم السابقون..

توفي ولد لأحد الهاشميين فحزن حزناً شديداً وردَّ الطعام، وجلس في مجلس العزاء ساكتاً. فدخل عليه رجل وقال: عليكم نزل كتابُ الله فأنتم أعلم بفرائضه، ومنكم كان رسولُ الله فأنتم أعلم بسنته، ولا أقول لك إلا ما قال الشاعر:

وهوَّنَ ما ألقى من الوَجْد أنني أُساكِنُه في داره اليومَ أو غدا

فقال: أعِدْ. فأعاد عليه البيت. فنادى: عليَّ بالغداء! وأكلَ وطاب نفساً.

إيثار

شبَّت النار في مسجدٍ بخراسانَ في يوم قائظ. فظن بعضُ الشبَّان أن النَّصارى من النَّساطرة أحرقوا المسجد، فانطلَقوا إلى السوق وأخذوا يعتدُون على النصارى ويخرِّبون دكاكينَهم. فقبض والي خراسانَ - وكان ذا بطش

شديد - على عددٍ من الشبان المتهمين، وناول كـلّاً منهم، عشوائياً، رقعةً مطوية فيها عُقوبة. نشرَ أحدُهم رقعته، وقرأ: «خمسون جلدة»، ونشر شاب بجانبِه رقعتَه فإذا فيها: «القتلُ بحدِّ السيف». فتأوَّه قائلاً: على مَن سأتركُ أمي العجوز! سمعه صاحبه، فقال له: أنا يتيم الأم، خذ رقعتي ذاتَ الخمسين جلدة، وهات رقعتَك. ولحظَ الوالي حديثَهما، فاستفسر، فعرف جليَّة الأمر. فعفا عن الأول ببركة خوفه على أمه، وكافأ الثاني بمال جزيل لإيثاره صاحبَه.

فارتدَّ بصيراً

عاد الرجل من غربتِه الطويلة. وعلى أطراف القرية رأى فتى، فسأله: ما أحوالُ زوجتي؟، فقال له الفتى: لقد أصيبتْ بالجُدَريِّ، لكنَّها شُفيت بحمد الله، ولكنْ، أصبح وجهُها مشوَّهاً. فأغمض المسافرُ العائدُ عينيه، ودخل بيتَه يتحسَّسُ طريقه. فقابلتْه زوجته بالترحاب. قال لها: لقد أصابني العمى في غربتي. وعاش معها عشرَ سنين، ثم ماتت الزوجة. ففتح الرجل عينيه. لقد تظاهر بالعمى عشرَ سنين حتى لا يؤذيَ مشاعرها.

عزَّ فحكم فقطع

قرأ الأصمعي يوماً ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ ..﴾ وأتم القراءة: «والله غفور رحيم». وكان بجانبه أعرابي، فقال: هذا ليس من كلام الله! فتنبَّه الأصمعي إلى خطئه فقال (والله عزيز حكيم). فقال الأعرابي: هذا كلام الله. فسأله الأصمعي: أتحفظ القرآن؟ قال: لا. قال: فكيف عرفت؟ قال الأعرابي: عزَّ فحكم فقطع، ولو غَفَرَ ورحِم ما قطع. فهي (والله عزيز حكيم).

ابن الحنفية وابنا فاطمة

قيل لمحمد ابن الحنفية ولدِ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كان عليٌّ رضي الله عنه يُقحمك في المآزق، ويولجك في المضايق، دون الحسنِ

والحسين. فقال محمد: لأنهما كانا عينيه، وكنت يديه، فكان يحمي عينيه بيديه.

ما لهذا خلقت

كان إبراهيم بن أدهم من أبناء الملوك. ركب حصانه ومضى إلى البرية فرأى ثعلباً فجرى وراءه يريد صيده. فسمع منادياً يناديه: يا إبراهيم، ما لهذا خلقت! فترك الحصان ونزع ملابسه الفاخرة، وأعطى ذلك كلَّه لخادم من خدمه. ولبس جبة وهام في الأرض متصوفاً فقيراً، وأخذ يشتغل في مزارع الناس ويكسبُ قوته. التقى إبراهيم بن أدهم بشقيق البلخي المتصوف. فسأله كيف كان بدءُ أمرك. قال شقيق: كنت سائراً في الفلاة، فرأيت طائراً مكسور الجناح يرفرف على الأرض ويعجز عن الطيران. فجاءه طائر آخر وفي منقاره جرادة فأعطاه الجرادة. فتركت التكسب، وقلت يرزقني الله مثلما رزق الطائر المكسور الجناح. فقال له إبراهيم بن أدهم: ألا تصنعُ ما صنع الطائرُ الآخر الذي أطعم صاحبه، فتكسبَ قوتك بجهدك؟ واليد العليا خير من اليد السفلى. فأكب شقيق على يد إبراهيم يقبلها ويقول: أنت أستاذنا يا أبا إسحق.

قصة أخرى في بدء شقيق

كان شقيقُ البلْخيُّ فتىً عاثاً لاهياً يعيش في بلْخ. وكان أميرُ بلخ يحب الصيد وعنده كلابٌ مدربة، وذات يوم فقَدَ كلباً ثميناً، وجَدَّ في طلبه فلم يعثر عليه. ووشى بعضُهم برجل من حاشيته أنه أخفى الكلب. فطلب الأمير الرجلَ فاختبأ عند شقيقِ البلْخي مستجيراً به. فمضى شقيقٌ إلى الأمير وقال له: الرجلُ عندي، فإنْ خلَّيت سبيلَ الرجل أعدت إليك الكلب بعد ثلاثة أيام. فلم يسَعِ الأميرَ إلا أن يقبلْ، لشدة جزعه على ذلك الكلب. وقعد شقيقٌ مهموماً في بيته لا يدري ما يفعل. وما مرَّ يوم حتى طرق بابَه صديق له، ومعه كلب. قال له صديقه: عثرتُ على هذا الكلبِ في الصحراء وعليه قِلادة، فأحببت أن

أُطرِفَك به، وإنك لَصاحب لهو وصيد. فأخذ شقيق الكلب إلى الأمير، وتخلص من الضمان. ورزقه الله الانتباه، فتاب عن اللهو والصيد، وتاب عن الدنيا. فهذا ابتداء أمرِ شقيقِ البلخي المتصوفِ المعروف.

الأمينة

كان أبو خالد يمشي في السوق فوجد كيساً، ففتحه، فإذا فيه عَشَرةُ دنانيرَ ذهبية. فوضع الكيس في جيبه وانصرف إلى بيته، وبشَّر امرأته بالخبر. فقالت له: «هذا المال لا يحل لنا». فرجع إلى السوق، ووقف في المكان نفسِه وأخذ ينادي: يا من فقد كيساً فيه مال؟ وبعد قليل تقدم إليه رجل من تجار السوق فعرَّف الكيس بأوصافه وبما فيه، وقال له: لقد نذرتُ بعد أن شُفي ابني أن أعطيَ ألف دينار لرجل شريف. وصرت أرمي كل يوم كيساً فيه عَشَرةُ دنانير، منتظراً أن يعود إليّ. وقد رميت عَشَرةَ أكياس؛ لكن، لم يعد لي منها أيُّ كيس، حتى عدتَ أنت بالكيس. فباركَ الله لك. خذ هذه ألفُ دينار ذهباً.

سلجم وكعك

كان أبو يعقوبَ البصري المعروفُ بالأقطع من الزهاد، وقد صام في الحرم المكي عشَرةَ أيام لم يَدخل جوفَه فيها إلا ماءُ زمزم. ثم هبط إلى وادٍ فوجد سَلجمة مطروحة - والسلجم هو اللِّفت - فمد يده إليها، فانقبضت يدُه، ووجد في نفسه وحشة. قال: كأنني سمعت هاتفاً يقول لي: تصومُ عشَرةَ أيام وتفطر على سلجمة متغيرة! ثم مضيت إلى بيت الله، فقعدت، وإذا برجل أعجمي قد جاء وجلس بين يديَّ، ووضع أمامي سفطاً، وقال: هذا لك. قلت له: من أنت؟ وما هذا؟ فقال افتحْه، فإن الله خلصني من الغرق في سفينة، وكنت أحمل هذا من مصر فآليت أن أعطيَه لأولِ من يقع بصري عليه في الحرم. ففتحته فإذا فيه كعكُ سميذٍ مصري، ولوزٌ مقشور، وسكر. فقبضت قبضة من هذا ومن هذا ومن هذا. ورددتُ إليه السفط كي يوزعَ ما بقي فيه على صبيانِ

كانوا معه. أكلت فحمدت الله وقلت لنفسي: يا نفسُ! رزْقك يسير إليك في البحر أياماً، وتطلبينه في الوادي!

سخاء وسخاء

كان أحد التجار مشهوراً بالسخاء. قال له جلساؤه: ما رأَينا أسخى منك! فقال: لكنني أنا قد رأيت من هو أسخى مني. كنتُ مسافراً، وقد نال مني الجوع والتعب، فوجدت عبداً جالساً تحت نخلة، فجلست إليه، فأخرج من كيسه رغيفاً وأعطاني. ثم جاء كلب يلهث، فأخرج من كيسه رغيفاً فرمى به إليه. ثم إني ودعته وخرجت، فرأيت صاحب البستان، فسألته عن العبد، فقال لي: هذا العبد رزْقُه رغيفان في اليوم. وقد تعوَّد هذا الكلب الشارد أن يأتيَه كل يوم فينالَ رغيفاً. فقلت لنفسي: وأنا اليوم أخذتُ رغيفَه الثاني. فعدت إليه كي أعطيَه مالاً فأبى، وولَّاني ظهره، وذهب.

أبو حنيفة يتورع عن اللحم

كان الإمام أبو حنيفة شديدَ الورع. سمع يوماً أن شاةً قد فُقدت بالكوفة، وطلبها أصحابها عبثاً. فامتنع أبو حنيفة عن تناول اللحم، خوف أن يتسلل شيء من لحمها في طعامه. وسأل الإمام الأعظم: كم أقصى ما تعيش الشاة؟ فقيل له: سبعُ سنين. فظل ممتنعاً عن اللحم سبعَ سنين.

بورقيبة وابن عاشور

كان الحبيب بورقيبة يريد لبلده تونس أن تتقدم. كانت فيه حمية وطنية. لكنه تهور في أمور. طلب من العمال ألا يصوموا في رمضان. وحاول حمل الفقهاء على تأييده. صعد الشيخ الطاهر بن عاشور شيخُ الزيتونة منبره في يوم الجمعة وألقي أقصر خطبة. قال: بسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. صدق الله العظيم. أقم الصلاة.

المتحرر بالقرآن

كان للإمام جعفرِ الصادق غلامٌ فصيح، ولكنه لم يكنْ خادِماً مثالياً. ذات يوم كان يصبُّ الماءَ على يَدَيِ الإمام، فأفْلَت الإبريقُ من يده، فوقع في الطِّسْت، فانسكب الماء على ملابس الإمام وعلى وجهه. فنظر في وجه الغلام نظرة غضب. فقال الغلام: والكاظمين الغيظ. فسكتَ جعفر. فقال الغلام: والعافِين عن الناس. فقال جعفر: عفوْنا. فقال الغلام: والله يحب المحسنين. فقال جعفر: أنت حرٌّ لوجه الله تعالى.

الرؤيا واحدة واختلف التعبير

كان محمدُ بنُ سيرين من أئمة التابعين، وكان مشهوراً بتعبير الرؤيا. جاء إلى ابن سيرين في حلْقته بالمسجد رجلٌ وقال: رأيت في المنام أني أرفع الأذان، فما تأويل ذلك؟ قال له: تحُجُّ إن شاء الله. وبعد أيام جاءه رجل آخر، وقال: رأيت في المنام أني أرفع الأذان. فأشاح ابنُ سيرين بوجهه، وقال له: أضغاث أحلام، انصرف يا هذا. فانصرف الرجل. فتعجب تلامِذته من اختلاف التأويل رغم اتفاق المنامين. فقال لهم: نظرتُ في وجه الأول فتمثلتْ في ذهني الآية ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾، ونظرت في وجه الثاني فوردت على ذهني الآية ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾. وبعد مدة تسامع الناس بأن الأول حجَّ فعلاً، فأما الثاني فقد سَرَقَ فقُطعت يدُه.

محمد إقبال والقرآن

لمحمد إقبال قصيدتان عرفناهما باسم حديث الروح ترجمهما الصاوي علي شعلان عن الأوردية. القصيدة الأولى اسمها الشكوى ومنها:

لو أن آسادَ العرين تفزَّعت
لم يلقَ غيرَ ثباتِنا الميدانُ

وغــدت صـــدورُ الـمـؤمـنـيـن مـصـاحـفـاً

فـــي الــكــون مـــســطــوراً بــهـا الــقــرآنُ

ثم جاءت القصيدة الثانية باسم جواب الشكوى (وهي التي بدأت بها أم كلثوم الغناء مع تغيير كلمة):

كــلامُ الـــروحِ لـــلأرواح يسري وتُـــدركُـــه الـقـلـوبُ بـلا عـنـاءِ

هـتـفـتُ بـه فـطـار بـلا جـنـاحِ وشـــق أنـيـنُـه صـــدرَ الـفـضـاءِ

قال محمد إقبال المتوفى عام ١٩٣٨ في مقدمة ديوانه: كنت أقرأ القرآن بعد صلاة الفجر كل يوم. وفي كل يوم يسألني أبي: ماذا تفعل؟ وأقول: أقرأ القرآن. حتى جاء يوم وسألته: ما لك تسألني السؤال عينَه كل يوم وأجيبك الجواب عينه؟ قال لي: اقرأ القرآن وكأنه نزل عليك أنت. ومن يومئذ وأنا أقرأ القرآن وكأنني أسمع الله يكلمني.

الفاسد والزاهد

مات رجل من أهل الفساد في البلد، فلم تجدِ امرأتُه من يعينها على حمل جنازته ودفنه. لقد فرح القوم بموته وتكاسلوا عن دفنه. فاستأجرت زوجته مَن حمل الجنازة إلى المسجد، فلم تجد أحداً يصلي عليه. فحمله الحمال جرًّاً بين بغلين إلى الخلاء. وزوجته تتبعه. وُضع الميت على الأرض. وزوجته تقف بإزائه حائرة. وكان يعيش على تلة قريبة رجل زاهد، يعُدُّه الناس من الأولياء الصالحين. وما هي إلا لحظات حتى نزل الزاهد من تلته، وقصد نحو الميت. فذهب الحمال إلى السوق وأخبر الناس، فأسرعوا إلى المكان، فوجدوا الزاهد يقف بإزاء الجنازة ويرفع يديه بالتكبير، فوقفوا خلفه وصلوا على الميت، ثم دفنوه. وتعجبوا مما فعله الزاهد. قالوا له إن هذا الرجل كان كيت وكيت. قال لهم الزاهد: «أخذتني إغفاءة بُعيد الضحى، فنوديت في المنام أن قم واهبط التلة وصلِّ على رجل قد غفر الله له». فتعجب الناس. سأل الزاهد الزوجة:

ماذا كان يفعل زوجك؟ قالت: كان يقضي نهاره مخموراً لا يفيق من سكر ليله. قال الزاهد: ثم ماذا؟ قالت: كان يتعبني في البيت، لا يمضي الشهر أو الشهران إلا جاء بيتيم يطعمه ويكسوه، ويبحث له عمن يؤويه. وما زال هذا دأبه، يعطف على اليتامى أكثر من عطفه على أولادي. وكان إذا انتهى من شرابه في آخر الليل يبكي ويقول: يا رب! في أي زاوية من زوايا جهنم ستضع عبدك الخبيث. قال الزاهد: ما أظن ما جاءني إلا رؤيا صدق. قد والله غفر الله له ببركة اليتامى.

فقيران ورغيفان

مر فقيرانِ في طريق القصر، ووقفا تحت شباك الأميرة. رفع الأول يديه، وقال: رِزقي على الله. فرمت إليه الأميرة درهماً. ورفع الثاني يديه، وقال: رزقي على الأميرة. وراح يكيل لها المدح. فجاءت الأميرة برغيف، ودسَّت خاتماً ذهباً في الرغيف ورمته للفقير المدَّاح. أمسك الفقير بالرغيف وقال لصاحبه الذي رِزْقُه على الله: هل تشتريه بدرهم؟ وباعه رغيفَه غيرَ عارفٍ بما فيه.

الترضِّي

وقعت جفوة بين الحسن بن علي - وهو ابن فاطمة بنت النبي - وبين أخيه محمدِ بن الحنفية - وهو ابنُ امرأة من بين حنيفة -. فكتب محمد بن الحنفية إلى الحسن: أبي وأبوك عليُّ بنُ أبي طالب، فلستَ أفضلَ مني ولا أنا أفضلُ منك في هذا. وأمك ابنةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا شرف ليس لي منه شيء. فإن قرأت كتابي فأقدم علي لتترضَّاني، حتى يكونَ لك الفضلُ علي، ولا يكونَ لي عليك فضل. والسلام. فخف الحسن إلى أخيه يترضاه.

عِزٌّ وذُلّ

كان أبو بكر الخطيب صاحبَ أدبٍ وعفة، وهو بغدادي النشأة، ولكنه طاف في البلاد. روي عنه أنه كان في حلْقة درسه بجامع صور، فلما انتهى الدرس

قام أحد كبار الأثرياء، وقال للخطيب أمام الناس: قد جئتك لغير الدرس، جئت إليك بهذا المال تصرفه في مهماتك. فقال الخطيب: لا حاجة لي فيه. فقال الثري: كأنك تستقله؟ ثم نفض كمَّه أمام أبي بكر الخطيب، فتناثرت الدنانيرُ الذهب، وقال الثري: هي ثلاثُمئة دينار. فخجل الخطيب، وما زاد على أن أخذ سَجَّادته وانصرف. يقول الراوي: فما أنسى عزَّ خروجه، ولا أنسى ذل الثري وهو يجمع دنانيره.

نخوة وحيلة

كان عبدُ اللهِ كاتباً في الديوان، فطرده الأمير. فساءت حاله وجفاه الناس، وقعد في بيته. وضاقت عليه الدنيا وضاق بحياته. ما بقي في داره شيءٌ من الأثاث إلا باعه. وفي مساء يوم من الأيام جاءه رجلٌ وصاح به: أنت فلانٌ الكاتب؟ فأجابه من وراء الباب: نعم، وما تريد؟ قال له: امض معي إلى صاحبٍ لي يريدك، ولا أذكر لك اسمه. فتحيّر عبدُ الله، فليس عنده ثوبٌ يلبَسه. فلبس رداءً قديماً لزوجته، ومضى مع الرجل. ونزلا عند فارس عريض المنكبين طويل القامة، في بيتٍ حسن. قال الفارس لعبد الله: قد علمتُ أنك تحسن القصص والمنادمة، هات حدثني. فحدثه عبد الله وروى له القصص والأشعار طول الليل. فلما كان الصباح أعطاه الفارس كيساً ثقيلاً، فأقسم عبد الله لا يأخذ منه شيئاً، وقال له: أردتني للصّحبة والمنادمة. ولست آخذ على ذلك أجراً، الصاحب لا يأخذ من صاحبه أجراً على الحديث. ورجع عبد الله إلى بيته، وقص على امرأته ما جرى. فبكت وقالت: هذا، ونحن لا نجد ما يسدّ جوعنا! ووبخته طويلاً. وفي اليوم التالي أتاه الرجل، وصحبه إلى الفارس، فتنادما طول الليل. وفي الصباح عرض عليه الفارس كيسَ المال. فأخذته الشهامة فرفض مرة أخرى، وودّع وخرج. فنال عبد الله من زوجته توبيخاً أكثر. فأقسم بالله أن يقبل المال إذا عرض عليه مرة أخرى. ثم أبطأ عنه رسول الفارس أياماً، فكان الجوع يعَضُّه ويعض زوجته، هذا بجانب ما يناله من تقريعها وتوبيخها. ولكن الرجل جاء بعد حينٍ ودعاه. فذهب وسهر

عند الفارس يتحدثان ويتنادمان. وعندما أسفر الصبح عرض عليه الفارس الكيس فأخذه في هذه المرة. وفي بيته اكتشف عبد الله أن الكيس ملآنٌ دنانير ذهبية. فوسّع على عياله وصلحت حاله، وانفتح له باب من الرزق. ولم يعد الفارس يطلبه. ولم يسمع عبد الله في البلد بخبر عن ذلك الفارس الشهم، ووجد بيته مقفل الأبواب كأنه مهجور. ومرت شهور كثيرة. وذات يوم كان عبد الله يركب حصانه في شوارع المدينة فرأى الجند والعامة قد اجتمعوا على البيت نفسه الذي كان يقيم فيه ذلك الفارس. وقف عبد الله مع الجموع. فرآهم يحاولون إخراج الرجل من الدار، والرجل متحصن بها وبيده سيف، والجند خائفون منه، وقال الناس إن الرجل عصى أمر السلطان وحكم عليه بالموت. وعرف عبد الله الفارس عندما لاح له جانب وجهه. اقترب عبد الله من البيت واخترق الجموع اختراقاً. وربط حصانه بشجرة ونزل، وتقدم إلى الفارس ودخل معه إلى الدار. قال له: حصاني بالباب. اترك السيف، وخذ ثيابي واخرج. وسوف يظنون أن الذي خرج أنا، واركب الحصان وانج بنفسك. وفعلاً خرج الفارس ونجا. ودخل الجند الدار فوجدوا عبد الله فيها وعرفوا الحيلة. فأخذوه إلى السلطان. قال عبد الله للسلطان أحدثك بكل ما جرى. وقصّ عليه كل شيء. فصرفه السلطان وعفا عنه وقال له: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

القوة لله

أسماء أغنيات أم كلثوم تزين الشاحنات: أنت عمري، أمل حياتي، فات الميعاد، أروح لمين. يكتب سائقو الشاحنات كلمة على اليمين وكلمة على اليسار. أحد السائقين جاء إلى الخطاط بشاحنته الضخمة، وطلب إليه أن يكتب عليها كلمتين (القوة لله). أخذ الخطاط ريشته وعلبة الدهان، ووقف خلف الشاحنة يتخير المكانين عن يمين ويسار. قال له السائق: لا ليس هنا. انظر تحت! تحت أكثر. قرفص الخطاط ونظر. رأى الكتلة الحديدية الضخمة في وسط المحور الناقل للحركة. فذهب وأتى بدهان أبيض. ثم استلقى على بطنه

تحت الشاحنة وخطَّ على الكتلة الحديدية: (القوة لله). كأنما أراد السائق ـ الذي بضغطة قدم يحرك هذه الشاحنة الضخمة ـ أراد أن يؤكد لنفسه أنه إنسان ضعيف وأن القوة لله. قال للخطاط: ما الأجر؟ قال له الخطاط، وقد أعجبته الفكرة: أجري على الله.

نهاية بديع الزمان

وقعت مناظرة في اللغة والأدب بين بديعِ الزمان الهمذانيِّ الشاب، وبين أبي بكر الخوارزمي الذي كان شيخاً ضعيفاً تخذِلُه ذاكرته. وتغلب بديعُ الزمان، وأسرف في الافتخار على أبي بكر، والتسفيه من قدره ومن علمه. فذهب أبو بكر إلى بيته أَسْيان مهموماً، ولم يبرح بيته حتى مات كمداً بعد أيام. ومضت بضعُ سنين، وأصيب بديع الزمان بسكتة: سكنت حركته، ولم يحسوا له بنفَس، فغسلوه وكفنوه ومضوا به إلى المقبرة. وبينما هم يسدون القبر بصفائح الحجارة سمعوا أنيناً، فكشفوا فإذا هو قابض على لحيته، وإذا هو قد مات حقاً. فقال بعض أصحاب أبي بكر الخوارزمي: إن ربك لبالمرصاد.

دعاؤها لأبيها

وقفت أعرابية على قبر أبيها وقالت: «اللهم نزل بك عبدك خالياً مقفراً من الزاد، غنياً عما في أيدي العباد، فقيراً إلى ما في يديك يا جواد، وأنت أيْ ربِّ خيرُ من نزل به المؤمِّلون، وولج في سَعة رحمته المذنبون، اللهم فليكن قرى عبدِك منك رحمتَك، ومهادُه جنتَك». ثم بكت وانصرفت.

الحلاق الورع

هذه قصة عن صوفي له بين الصوفيين شهرة. هو أبو بكر الشبلي تلميذُ الجنيد. وقع مال جليل بيد الشبلي من بيع بيت، وتحير كيف يتخلصُ من المال في وجوه الخير. وبينا هو جالس في السوق جاء رجل فقير وقعد بين

يدي حلاق ممن يحلقون بنصف درهم، وقال له: احلق لي في سبيل الله، فليس معي شيء. فحلق له. وقام الرجل وانصرف. فتقدم الشبلي إلى الحلاق ودفع إليه أربعين ديناراً، وقال له: هذه أجرتك. فردها الحلاق، وقال: قد حلقت له لله، ولا أَحُل عقداً بيني وبين الله، ولا بأربعين ديناراً. فلطم الشبلي رأسه وقال: كل الناس خير مني.

المتكلمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك: انصرفت من حج بيت الله عائداً إلى الشام، فبَيْنا أنا في الطريق إذا عجوز عليها رداءٌ من صوف وخِمار. فقلت: السلام عليكِ فقالت: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. فقلت لها: رحمكِ الله، ما تصنعين في هذا المكان؟ فقالت: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، فعلمت أنها أضاعت الطريق. فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾. فعلمتُ أنها قضت الحجّ وهي تريد بيت المقدس. فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾. فقلت لها: ما أرى معك طعاماً، فقالت: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ . قلت: فبأي شيء تتوضّئين؟ قالت: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فقلت لها: إن معي طعاماً فهل لك في الأكل؟ قالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾. فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر؛ قالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فقلت: لِمَ لا تكلّمينني مثلما أكلمُك؟ قالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. فقلت: فمِن أي الناس أنت؟ قالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾. فقلت: قد أخطأتُ فسامحيني؛ قالت: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. فقلت: فهل لكِ أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟ قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾. قال ابن المبارك: فأنختُ الناقة، فقالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾. فغضضت بصري، وقلت لها اركبي. وأخذت بزمام الناقة ومشيت. قلت لها: ألكِ زوج؟ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ

﴿أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾. فسكتُّ ولم أكلمها. فلما أدركتُ بها القافلةَ، قلت لها: ها هي القافلة، فمن لك فيها؟؛ فقالت: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾. فعلمت أن لها أولاداً، فقلت: وما عملهم؟ قالت: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾. فعلمت أنهم أدلاء القافلة. وعندما اقتربنا رفعت المرأةُ صوتها قائلة: واتخذ الله إبراهيم خليلا.. وكلم اللّه موسى تكليما.. يا يحيى خذ الكتاب بقوة. فأقبل أولادها، وهم: إبراهيم وموسى ويحيى. فإذا شبان كأنهم الاقمار. فلما استقرّ بهم المقامُ، قالت: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامًا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٍ مِّنۡهُ﴾. فمضى احدُهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يديّ، فقالت: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾. فقلت: طعامُكم عليّ حرامٌ حتى تخبروني بأمرها. فقالوا: هذه أمُّنا لم تتكلم منذ أربعين سنةً إلا بالقرآن، مخافة ان تَزِلّ فيسخط عليها الرحمن. سمعت هذا فقلت: الآن أتكلم أنا بالقرآن: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

الأجرة أحاديث

قال الإمام سفيانُ بن عيينة: كنت وأنا صبي واقفاً مرةً عند باب المسجد الحرام، فإذا شيخٌ آتٍ على حمار. قال لي: أَمسِك عليَّ حماري حتى أدخلَ فأصلي. قلت له: لا أفعلُ أو تحدِّثَني! فحدثني بحديث شريف؛ فاستزدته، فحدثني بحديث آخر، وما زلت أستزيده حتى حدثني بثمانيةِ أحاديث؛ وأمسكت مِقوَد حماره، ودخل يصلي. ورحت أكرر على نفسي تلك الأحاديث بأسانيدها. فلما خرج قال لي: هل انتفعتَ بما حدثْتُك؟ قلت له: نعم، وأعدت عليه الأحاديث كلَّها. فقال: بارك الله فيك، تعال غداً إلى مجلسنا. فغدوت عليه، وعرفت أنه ليس سوى عمروِ بنِ دينار الإمامِ الكبير وسيدِ المحدِّثين من التابعين.

قال له: تحرَّك!

قال بعضهم للمتصوف المشهور معروفِ الكرخي: أأجلس عابداً، أم أتحرك في طلب الرزق؟ قال الكرخي: بل تحرك. قال الرجل: أليس الرزق من الله، فكيف تقول هذا؟ قال معروف الكرخي: لم أَقُلْه بل قاله الله! قال ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، ولو شاء رب العزة لأنزله عليها دون أن تهز الجذع.

الجود قبل السؤال

قال عبد الله بن عباس لصحبه وهم يسيرون في الصحراء: «يتم عقل الرجل إذا صنع المعروف مبتدئاً، وجاد بما هو محتاج إليه، وتجاوز عن الزلة، وجازى على المكرمة، وتجنب مواطن الاعتذار». ومضى القوم في سيرهم وفقدوا الزاد، فأرسلوا أحدهم ليبحثَ عن راعٍ يعطيهم لبن ناقته أو خبزاً أو تمراً. فوجد امرأة أمام خبائها. قال لها: أأنت وحدك؟ قالت: أولادي ثلاثة وهم رعاة، ويعودون عند العصر. قال: فما أعددت لهم؟ قالت: خبزةً خبزتُها. قال: ألا تعطيني نصفها؟ قالت: نحن لا نعطي النصف. بل تأخذُها كلَّها. فأخذ الخبزة لفرط حاجة القوم إليها، ومضى بها. لم تسألْه العجوز عن اسمه ولا عن نسبه. ورجع بالخبزة، فأمر ابن عباس صحبه بأن يذهبوا ويعرِّفوا العجوز بأن عبدَ الله بن عباس ـ ابنَ عم النبي ـ يطلبها. فحضرت معهم. قال لها ابن عباس: كيف حالك؟ قالت: أعيش بالقناعة وقد بلغت كلَّ ما أتمنى، ولم يبق إلا حسنُ الختام. قال: وما أعددت لأولادك إذ يرجعون، وقد أخذنا الخبزة؟ قالت: أعددت لهم قول العربي:

ولقد أبِيتُ على الطوى وأظلُّه ... حتى أنال به كريم المأكل

فطلب ابن عباس من صحبه أن يذهبوا إلى خباء المرأة وينتظروا عودة أبنائها. فأُحضر الأبناء الثلاثة بعد حين. قال ابن عباس: ما طلبتُكم إلا كي

أكافئكم. قالوا: ما فعلت أمُّنا ما يستحق المكافأة. وقالت العجوز: لا نأخذ على معروفنا أجراً. فقال ابن عباس: فأنا أعطيكم مبتدئاً، فهذا ليس بأجر. ومنحهم سبعة آلاف درهم، وعشراً من النياق. قال الابن الأكبر:

شهدتُ عليكَ بحسنِ المقال	وصدق الفعال وطيب الخبرْ

وقال الأوسط:

تبرَّعتَ بالبذلِ قبل السؤال	فعال كريم عظيمِ الخطر

وقال الأصغر:

وحُقَّ لمن كان ذا فعلَه	بأن يسترِقَّ رقابَ البشرْ

فقالت العجوز:

فعَمَّركَ اللهُ مِن ماجدٍ	ووُقِّيتَ ما عشتَ شرَّ القَدَرْ

وعندما انصرفوا ندم ابن عباس على أنه لم يعطهم أكثر. قال له صحبه: الآن وَعَينا قولك إذ قلت لنا: يتم عقل الرجل إذا صنع المعروف مبتدئاً، وجاد بما هو محتاج إليه.

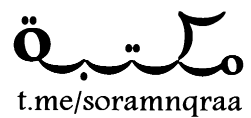
كما تَدين تُدان

كان الصائغ تقياً وكانت له زوجة تقية، كبرا معاً في طاعة الله. وكان يأتيهما سقَّاءٌ يجلُب الماء، مكث معهما ثلاثين سنة وكان مثلَهما ورعاً وصلاحاً. ذات يوم تناولت المرأة الكوز من السقَّاء فأمسك يدها وهزَّها، ثم انصرف. فتعجبت من فعلته. ولما عاد زوجها من عمله نظرت في عينيه فكسَرهما. قالت له: بالله عليك إلَّا ما أخبرتني خبرَك؟ فقال لها: جاءتني امرأة تريد بيع سوار، فمدت يدها فإذا هي بيضاءُ كالفضة، فأمسكت يدها وهززتها. ولا والله ما كان مني غيرُ ذلك. قالت له امرأته: ولا والله ما كان من السقَّاء غيرُ ذلك.

العباس وعلي والسياسة

وقعت بين العباس عم النبي وبين ابن أخيه عليٍّ بنِ أبي طالبٍ جفوة. هذا بعد وفاة النبي بسنوات. ومرض العباس وطلب علياً، فأسرع علي إليه، دخل عليه وعانقه وقبَّل يديه. قال العباس: يا ابن أخي أشرتُ عليك في ثلاث فلم تقبل، ورأيتَ في عاقبتِها ما كرهت، وها أنا مشير عليك برابعة. قال علي كرم الله وجهه: وما ذاك يا عم؟ قال العباس رضي الله عنه: أشرت عليك في مرض الرسول أن تسأله إن كان الأمر لنا. فإن قال إنه لنا تولَّيْناه، وإن كان لغيرنا أوصى بنا. فقلت: أخشى أن يمنعنا، فلا يصل الأمر إلينا أبداً. ولم تسأله. فلما قبض صلى الله عليه وسلم أتاني أبو سفيان وجئتك معه وقلنا لك ابسط يدك نبايعْك، فوالله إن بايعَتْك هاشم وأمية ما اختلف عليك أحد من قريش كلها، وإن أجمعت عليك قريش أجمعت عليك العرب. فقلت: لنا بجهاز رسول الله شغل. فما هي إلا أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة وبويع لأبي بكر. فقلتَ لي: أَوَيُردُّ هذا، فقلت لك: وهل رُدَّ مثلُ هذا قط؟ وحين طُعن عمر قلت لك: لا تُدخل نفسك في الشورى، فإنك إن اعتزلتَهم تنازعوا رأيهم ثم قدَّموك، وإن دخلت معهم ساويتهم فتَقَدَّموك. ودخلت معهم واختاروا عثمان. ثم قال العباس لعلي: والآن خرج عثمان عن سيرة سلفيه، وحابى الأقربين. وكأنّي بالعرب قد سارت إليه حتى يُنحر في عقر داره. فإن كان ذلك فإني أُشير عليك ألَّا تمكث في المدينة، فإن مكثت ألزمك الناس بالأمر، فإن نلته وأنت قريب لم تنله إلا بشر مستطير.

ثم إن العباس توفي في خلافة عثمان. وجرت الأمور كما قال. قتل عثمان في بيته، وعليٌّ في المدينة، وقيلت في ذلك الأقاويل. وبويع لعلي بالخلافة. وجرَّت مبايعتُه حرب الجمل وحرب صفين. نُقِل عن علي أنه قال: لَكَأنَّ عمي كان ينظر في الغيب من وراء ستر رقيق. واللهِ ما نلتُ هذا الأمر إلا وبعده شر مستطير.



حدث في الجاهلية..
أو لم يحدث

الفرس المسروقة

طلب عبدُ الله ابنةَ عمه. فقال له عمه: مَهرُها فرسُنا المسروقة. وكان قوم من الأعـراب قد سرقوا الفرس في غـزوة. فخرج عبد الله حتى اقترب من مضاربِ أولئك الأعراب. وعندما حلّ الظلام انسلّ بين خيامهم، وبحث حتى وجد الفرسَ المسروقة. وإذا هي مربوطة بعِنان من حديد إلى نخلة، وفي العِنان قفل. اختبأ عبد الله خلف كوم من الصوف المنفوش خارج الخيمة القريبة. ورأى امرأة تخرج منها، وتطعم الفرس ثم تُحكِم إغلاق القفل، وتعود بالمفتاح إلى الخيمة. نظر عبد الله من فرجة في الخيمة فرأى بالمرأة تدس المفتاح تحت وسادة، ثم أطفأت الشمعة. نامت المرأة على الوسادة التي تحتها المفتاح، ونام زوجها في ناحية. وبعد قليل قامت المرأة على أطراف أصابعها. وانسلت من الخيمة. رآها عبد الله تلتقي عند النخلة برجل. فانتهز الفرصة ومد يده في الخيمة وأخذ المفتاح من تحت وسادتها، وكَمَن طول الليل تحت كومة الصوف. فلما بدت تباشير الفجر فك قيد الفرس وركبها، وما كاد يستقر على صهوتها، حتى رأى الرجل يخرج من الخيمة. رآه الرجل فأسرع إلى حصان له فركبه، ولحق به وهو يصرخ به أن يقف وإلا قتله برمح كان في يده. وصار يقترب منه، ويخِزه برمحه. فلا هو قريب منه بما يكفي ليطعنه، ولا بعيدٌ عنه فييأسَ منه. ثم اعترضهما غدير. فحث عبدُ الله الفرس فقفزت وعبرت. وحث الرجل حصانه حتى يثب فلم يثب. وعندئذ استراح

عبد الله قليلاً. فناداه غريمه من وراء الغدير، قال: أما وقد أخذت الفرس فأعلم أنها تساوي مقدار ثلاثين دِيَةِ رجل، فلا تفرِّط فيها. فتعجب عبد الله من رجل أُخذت فرسه وراح يزجي إليه النصح، فقال: قد نصحتني فأنا أنصحك، زوجتُك تخونك مع رجل. فقال الرجل: لا جزاك الله خيراً. أخذت فرسي وخرَّبت بيتي.

حاتم في لحظة بخل

كان حاتم الطائي مكتئباً في خبائه، وجاء أعرابي يلتمس القِرى، فرده حاتم. فبات الأعرابي تحت نخلةٍ جائعاً. وعند السَّحَر خرج حاتم متلثماً، ومر بالأعرابي، فقال له: كيف وجدت حاتماً يا أخا العرب؟ فقال الأعرابي: لقد أضافني وأطعمني خير طعام. فحسر حاتمٌ لثامه، وقال: فها أنا ذا حاتم، فما حملك على الكذب؟ قال الأعرابي: الناس كلُّهم يُثنون عليك بالجود، ولو ذكرتُ شراً لم يصدقني أحد، فقلت ما قلت. فأكرمه حاتم واعتذر إليه.

قصة قَيْسَبة

كان قيسبةُ بنُ كلثومٍ أميراً في قومه، وكانوا يسكنون اليمن. خرج يوماً يريد الحج قبل الإسلام. وفي الطريق وثب عليه بنو عامر، وأخذوا ماله وقتلوا أصحابه. وقيدوه بسيور من جلد، ثم قيدوه بالحديد. وحبسوه ثلاثَ سنين، وشاع في اليمنِ أن الجن اختطفته، ولم يعد يبحثُ عنه أحد إلا أخاه. هزُل قيسبةُ في أَسرِه وضعُف، وظل مقيداً بالحديد. ولأمرٍ أراده اللهُ لم يقتلوه. وذات يوم خرجوا في غزوةٍ، وتركوه عند امرأةٍ عجوز مقيداً. قال لها: أتأذنين أن آتيَ التلةَ أتعرَّضُ فيها لشمسِ الشتاء، فقد أضرَّ بيَ البرد، فأذنت له. فصعِدَ التلة يمشي بطيئاً في قيودٍ كبلته من رجليه ومن يديه. ولمح عن بعدٍ راكباً فرفع يديه بقيوده. فأقبل عليه الراكب وهو فوق جمله. قال له قيسبة: من أين قدمت؟ قال: من اليمن. قال: وتعودُ إليها؟ فقال الراكب: أحُجُّ ثم أعود. وقصّ عليه قيسبةُ قصته. فقال له الراكب: أحملك معي بقيودك، ثم نفكها بعيداً، ثم

نحج، وتعودُ معي إلى اليمن. فقال قيسبة: وعدت عجوزاً في الحي أن أتشمَّس على ظهر هذه التلة ثم أعود، ولا أنكث بوعدي، لكنْ تبلِّغُ أخي رسالة. قال الراكب: قل. فقال له قيسبة: بل أكتُبُها على خَشبة رحلك. أمعك سكين؟ فناوله الراكب سكيناً وكشف له عن خشبة الرحل الذي فوق الجمل. فكتب قيسبة بالسكين ـ والقيدُ بيديه ـ كلاماً لأخيه. كتبه بالخط المسند، خطِّ أهل اليمن، وأوصى أخاه بأن يعطيَ صاحبَ الجمل مكافاةً جزيلة. عاد صاحب الجمل من حجه. وقصد أخا قيسبة وأراه الرسالة. فعرف الأخ أن قيسبةَ أسيرٌ في بني عامر فكافأ صاحب الجمل، ثم جمع من قبائل اليمن جمعاً وسار إلى ديار بني عامر فقتل منهم مقتلةً عظيمة وخلّص أخاه.

قصة بَهيِسة والحارث

أراد الحارث بن عوف أن يتزوج، فقصد أوساً الطائي، وعنده ثلاثُ بنات. فاستشار أوسٌ ابنته الكبرى، فقالت: في وجهي عيب، فربما ردَّني بعد حين. واستشار الوسطى: فقالت أنا خرقاءُ لا أصلح لطبخ ولا لرتْق. واستشار الصغرى بَهيِسَة، فأجابته، وقبِلت. فدعا بالحارث وقال له: زوجتك ابنتي بهيسة. فاحمل عروسَك. بنى الحارث بعروسه. بالمعنى الحرفي بنى لها خيمة عند مضارب أهلها، واقترب منها فقالت: هنا عند أهلي! أين حياؤك؟ فبات ليلته خجِلاً. وفي الصباح حمل عروسه على هودج. ورحل بها حتى بلغ مضاربَ قومه، فبنى لها خيمة. واقترب منها فقالت: أهكذا! ولما تَنحرِ الإبلَ وتطعمِ الناس. فبات خَجِلاً. وفي الصبح نحر الإبل وأطعم الناس. وجاء إلى عروسه، مرة ثالثة. كأنه قال في عقله الثالثة نابتة. فقالت له: أأنت سيد من سادات العرب؟ لا ولله لا يكون في العرب سيد وعبسٌ وذبيانُ يقتلون بعضَهم بعضاً في حرب لا تُبقي ولا تذر. فبات الحارث بن عوف خجلاً. وقام في الصباح يسعى في الصلح بين عبس وذبيان. فوجد هرم بنَ سنانٍ أحدَ سادة العرب وأثرياءهم يسعى في الصلح، وقد بذل إبلَه في الدِّيَات ولم يبق عنده ما يكفي. فضم

الحارث إبله إلى إبل هرم. وسعى هذان السيدان في الصلح. قال زهير بن أبي سلمى:

فَأَقْسَمْتُ بِالبَيْتِ الذي طَافَ حولَهُ
رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيشٍ وجُرْهُمِ
يَميناً لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما
على كلِّ حَالٍ مِنْ سَحيلٍ ومُبْرَمِ
تَدارَكْتُما عَبْساً وذُبْيَانَ بعدَمَا
تَفَانَوْا ودَقُّوا بينَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ

وكان الصلح، ونالت القبيلتان المتفانيتان الإبل الكثيرة، ونال هرم بن سنان مجداً خلده زهير بن أبي سلمى بقصائد. ومن أجمل ما قاله زهير في هَرِمٍ بيتان فيهما تشبيه طريف:

إنْ تَلْقَ يَوماً عَلى عِلاَّتِهِ هَرِمَاً
تَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ والنَّدَى خُلُقَا
قد جَعَلَ المُبْتَغُونَ الخَيرَ في هَرِمٍ
والسَّائِلونَ إلى أَبْوابِهِ طُرُقا

فأنت إن لقيت هرمَ بن سنان على علاته، أي رغم قلة ذات يده، فأنت تلقى كرماً. وقد أصبحتْ هناك طرق من مختلِف الاتجاهات وكلها تؤدي إلى باب الرجل، وهذه الطرق صنعتها أقدام السائلين الذين يتوجهون إلى هرم من كل مكان. هذا هرم بن سنان. ونعود إلى الحارث بن عوف. لقد نال أيضاً المجد في قصائد زهير. ونال أيضاً امرأة حكيمة وذكية، ومهتمة بالشأن العام. ولا ندري فربما سودت عيشته في مقبل الأيام. كل ما نعرفه أن بهيسة كانت السبب في الصلح بين عبس وذبيان.

زرقاء اليمامة

هذه قصة حذام. وحذامِ هي زرقاءُ اليمامة. كانت ذاتَ بصر حديد، والنساء أحدُّ وأدق بصراً من الرجالَ (بعض النساء، دون الرجال، لديهن أربعة أنواع من الأجسام المخروطية في العينين، فهن «تتراكروماتيك»، والعلم يقول إنهم أحسن من الرجال إبصاراً). حذامِ كانت من جديس. وحذامِ مبنيةٌ على الكسر مثلما أن سيبويهِ مبني على الكسر. أقول: حَذامِ كانت حديدة البصر، قيل إنها كان ترى على مسير ثلاثة أيام. كانت تعتلي حصناً لقومها وتنظر، وتحذرهم من الأعداء المقبلين. وأراد حسانُ بن تُبَّعَ الغارة على قومها، ولأنه يعرف عن حذام فقد أمر جنودَه بحمل جذوع الشجر والتواري بها. نما الخبر إلى جديس، فقالوا لحذام: هيا اعتلي الحصن. فرأت حذامِ شجراً يسير. فقالت:

أقسم بالله لقد دب الشجرْ أو حِمْيرٌ قد أخذت شيئاً يُجَرْ

فلم يصدقوها. ودَهمهم حسانٌ بجيشه وأوقع فيهم، وسمل عيني حذام. قال الشاعر:

إذا قالت حذامِ فصدِّقوها فإن القولَ ما قالت حذامِ

شَبْدِيز

كان كسرى بن أبرويز ضخماً مديد القامة تام الخلقة، وكان له حصانٌ ضخم اسمه شبديز. وما كان الملك يركب حصاناً سوى حصانِه (شَبْديز). وكانت الناس تقول: شبديزُ في الخيل شبيه بكسرى في البشر. ومات شبديز، ولم يجسر أحد على إبلاغ كسرى بالخبر. فأعطى الوزيرُ للمغني مالاً جزيلاً، وقال له أبلغ كسرى تعريضاً، ضمن وصلتك الغنائية. فغنى المغني وقال:

شَبْديزُ لا يسعى ولا يرعى ولا ينامُ

وهذا شعر عربي على الرجز. شاء القاص القديم أن يزوِّق الحكاية. وفهم كسرى، وصاح: مات شبديز! قال المغني: الملك يقول، أنا ما قلت شيئاً. وحزن كسرى حزناً شديداً لأنه ليس في مملكته حصان آخرُ يحمله. ومن يومِها أخذ كسرى يركب الفيل.

المغيرة بن شعبة في الجاهلية والإسلام

المغيرةُ بنُ شعبةَ من دهاة العرب، قيل عنه إنه ما وقع في مأزِق إلا عرف المخرج منه، وما وقف بين رأيين إلا اختار أصوبَهما. خرج المغيرة إلى مصر مع رجال من بني مالك. فأكرمهم صاحب مصر المقوقس وأعطاهم العطايا. ولم يعط المغيرة إلا شيئاً يسيراً. وعادوا أدراجهم. وقبل أن يصلوا إلى مكة بمرحلة، اشتروا خمراً كثيراً من دير وقعدوا يشربون، قال لهم المغيرة: أنا لا أملك شيئاً فأنا أسقيكم، وأخذ يسقيهم ويزيد، فناموا سكراً. فبقر بطونهم بسيفه واحداً واحداً، ثم أجهز عليهم وسلب متاعهم، ودخل المدينة المنورة، وقدم على النبي، وقال جئتك مسْلِماً ومعي غنائم المشركين، ولك منها الخمس. فاستخبر النبي عن القصة ثم قال: هذا غدر لا نقبله. قال المغيرة: كنا على دين الشرك. قال النبي: «الإسلام يجبُّ ما قبله». وحارب المغيرة في اليرموك وفقد عينه. وأصيب في القادسية بطعنة رمح في بطنه، فجِيءَ بامرأة تخيطُ بطنه، فبينا هي تغرز الإبرةَ وتخيط ما انفتق من جرحه قال لها: ألكِ زوج؟ فردَّته خائباً.

وتولى المغيرة الكوفة لعمر طويلاً. والكوفة بحذاء الحيرة مدينة ملك المناذرة النعمانِ بنِ المنذر. كان في الحيرة في ذلك العهد ابنةُ النعمان هند. كانت عجوزاً فانية عمياء مترهبة لا تخرج من ديرها. أتاها المغيرة خاطباً. قالت له: ما جئتني لمال ولا لجمال، ولكنك أردت أن تتشرف بي في محافل العرب، وتقولَ تزوجت ابنة النعمان بن المنذر، وإلّا فأيُّ خير في اجتماع عمياءَ وأعور. وردَّته خائباً.

ثم تولى الخلافةَ عثمان وصرف المغيرةَ عن الكوفة، فأقام في المدينة المنورة. وقامت الفتنة التي قتل فيها عثمان، فقعد المغيرة عنها والتزم بيته. وتولى عليٌّ الخلافة، وقامت الحرب بينه وبين معاوية. كان عمار بن ياسر في صف علي. قال بلال للمغيرة: هيا اخرج معنا، فوالله إنَّ الحق لمع علي. قال المغيرة: يا أبا اليقظان هل لك أن تدخل في بيتك وأدخل في بيتي حتى تنجليَ هذه الغمة ويطلُعَ قمرُها فنخرجَ مبصرَيْن. فأبى عمار. قال له المغيرة: إذا رأيت السيل فاجتنب جِريته. ولزم بيته. فلما قتل علي وتولى الخلافة معاوية كان المغيرة مع معاوية. مكتبة سُر مَن قرأ

عربي في بلاط كسرى

توالى على تميم القحط سنين حتى كادوا يهلِكون. فجمع سيدهم حاجبُ بنُ زرارةَ قومَه وقال: لا بد لي من دخول أرض كسرى، كي أطلبَ منه أن نَدخلَ بلاده نرعى مواشيَنا وإلَّا هلكنا. قالوا: نخاف عليك قبيلةَ بكرِ بنِ وائل في طريقك. قال: ما فيهم أحد إلا ولي عنده معروف، إلا ابنَ الطويلةَ التيمي، وأرجو أن أداريَه فلا يتعرضَ لي. ومضى حاجبٌ قاصداً عاصمة كسرى. فكان ينزل بعشائرِ بكر فيكرمونه، ومر بحرم ابنِ الطويلة التيمي ونصب خباءه، فخرج ابنُ الطويلة إليه ونحر له وأكرمه. وسار معه يحميه حتى بلغ تخومَ أرض كسرى. أُدخل حاجبُ بنُ زرارةَ على كسرى فطلب منه أن يسمح لقومه بأن يرعَوْا في أرضه. قال كسرى: ويخرِّبون ويؤذون الرعية. قال حاجبٌ: فإني ضامنٌ للملك ألا يفعلوا. قال كسرى: ومن لي بأن تفيَ بما تقول؟ قال حاجب: أَرهَنُك قوسي. ونزع حاجب قوسَه من كتفه. فضحك مَن بالمجلس، وقالوا بهذه العصا تَفي بضمانك؟ إنها لقوس قصيرة! قال حاجب: لكنَّ وفائي طويل. قال كسرى: ما كان لِيُسْلمَها إلا لأمر جلل. خذوا القوس. فأخذوها. وأُذن للعرب بدخول الريف، فانتعشت حالهم، وأحسنوا إلى المكان وأهله. ثم زال القحط وعاد بنو تميم بإبلهم وقد سمنت وزادت. وبعد حين مضى

عطاردُ بن حاجب إلى بلاط كسرى يطلبُ قوس أبيه. قال له كسرى: قد وفيتم. ونادى برجاله: أين قوسُ الرجل؟ فجيء بالقوس.

وكانت قبيلة شيبان قد هَزمت الفرس في معركة ذي قار، ثم حل السلم وكانت قصة حاجب. قال أبو تمام يمدح شيبان:

إذا افتخرت يوماً تميمٌ بقوسها
فَخاراً على ما وطَّدتْ من مَناقبِ
فأنتم بذي قارٍ أمالت سيوفُكم
عروشَ الذين استَرهنوا قوس حاجبِ

عربي آخر في بلاط كسرى

خرجتِ القافلة من عُمان حاملة توابلَ الهند ومنسوجات الصين، واتجهت شمالاً ثم غرباً إلى الشام، وباعت واشترت، ثم اتجهت شرقاً حتى تخومِ بلاد فارس، هذا قبل الإسلام. قال قائدها: هذه بلاد منيعة لا يدخل إليها أحد إلا بإذن كسرى، ونحن مضطرون، فبضاعتنا تفسُد لو قفلنا راجعين. فبرز له رجل حجازي وقال: أنا أدخل بالبضاعة إلى بلاد كسرى، وليكن ما يكون. ودخل بالجمال والبضاعة، فما عتَّم أن أحاط به الجند، واقتادوه إلى عاصمة كسرى. لزم العربي باب القصر ينتظر الإذن بالدخول. ثم إنه أُدخل إلى باحة القصر. وبعد حين سمع كلاماً بصوت عالٍ، فحنى رأسه، فبرز كسرى ورآه على هذه الحال فقال له عبر الترجمان: لِمَ تحني رأسَك؟ قال: سمعت صوتاً عالياً في مكان لا يَرفع فيه الصوت أحد سوى الملك، فحنيت رأسي إجلالاً. فاستحسن كسرى جوابه وأدخله. قال له: ما الذي جرَّأك على دخول بلادي بغير إذني؟ قال: لست عدواً، ولا جاسوساً، جئت بتجارة أبيعها. فأمر كسرى له بوسادة، فوضعها الرجل على رأسه. فاستحمقه كسرى، وقال: هذه كي تجلس عليها. قال: قد علمت، غير أنني رأيت عليها شارة الملك فنزَّهتُها ووضعتها على رأسي. فاستحسن كسرى فعله. سأله: هل لك أولاد؟ قال: نعم. قال فأيهم

أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبُر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يؤوب. فقال كسرى: زه. وهذه كلمة استحسان، يُلزم كسرى نفسَه بدفع ألف دينار كلما قالها. ثم إنه اشترى منه بضاعتَه بضعف ثمنها، ورده غانماً، وأرسل معه مهندساً بنى له حصناً بالطائف، فكان هذا أولَ حصن بُني بالطائف.

فصاحة الصبي

قدِم رهطٌ من بني عامرٍ على النعمانِ بن المنذر، وفيهم لبيدُ بنُ ربيعةَ الشاعر، وكان صبياً يقرزم (والقرزمة هي بداية قول المرء الشعر). فكانوا يحضرون مجلس النعمان، ويتركون لبيداً عند إبلهم. وكان في مجلس النعمان رجل من عبس، فأخذ يدسُّ للنعمان أموراً عن بني عامر، ويطعن فيهم، حتى ملأ قلب النعمان كراهة لهم. فنزع النعمان القبة التي كان ضربها على القوم، وتركهم في العراء. لا هو أعطاهم العطايا، ولا حتى سمح لهم بشهود مجلسه. فتداولوا أمرهم، فقال لهم لبيد الصبي: إن كان هذا مما دسَّه ذلك العبسي فاجمعوا بيني وبينه وسأريكم كيف أفضحُه. فقال له القوم: أنت شاب غرير، وذلك رجل محنك وشره مستطير. ثم قال له أحدهم: هلُمَّ نختبرك. هل ترى هذه البقلةَ في الأرض؟ هيا اهجُها. فقلعها لبيد ونظر إليها وقال: عودها ضئيل وفرعها كليل، وخيرها قليل، نبتها خاشع، وآكِلها جائع، أقصرُ البقول فرعاً، وأخبثها مرعى، وأيسرها قلعاً. فسُرَّ القوم بكلامه. فقصوا شَعره وتركوا خُصلتين على الجانبين، وركبوا إلى مجلس النعمان والتمسوا الإذن ومعهم الصبي لبيد. كان العبسي جالساً إلى جانب النعمان، وأمامهما مائدة وهما يأكلان. وقف لبيد وارتجز:

نحن بنو أمِّ البنينَ الأربعةْ
نحن خِيارُ عامرِ بنِ صعصعةْ
المطعِمون الجَفْنةَ المُدَعْدَعةْ
يا واهبَ المالِ الجزيلِ مِن سَعَةْ
إن الفلاةَ أَوْحَشَتْ في المَعْمَعَةْ

ثم أشار لبيد إلى العبسيِّ، وقال:

يُـخـبـرْكَ عـن هـذا خـبيرٌ فـاسـمَعَـهْ
مـهـلاً أبـيـتَ الـلـعـنَ لا تـأكـلْ مَـعَـهْ

وفصَّل لبيدٌ في السبب: فزعم أن العبسي به برص وأنه يفعل كذا وكذا من المقاذر بيده. فرفع النعمان يده عن الطعام، ونظر إلى العبسي شزراً. ثم قضى النعمان حوائج العامريين، وأجاز لبيداً وانصرف القوم. وأقصى النعمان العبسيَّ عن مجلسه. فبعث إليه العبسي أبياتاً يقول فيها إنه بريء مما رماه به ذلك الفتى. فكتب إليه النعمان:

شـــرِّدْ بِـرحـلِـك حـيـث شـئـتَ ولا
تُـكْـثِـرْ عـلـيَّ، ودَعْ عـنـك الأقـاويـلا
والـحَـقْ بـحـيـثُ رأيـتَ الأرضَ واسـعـةً
وانـثُـرْ بـهـا الـطَّـرْفَ إن عَـرضـاً وإن طولا
قـد قـيـل مـا قـيـل إن صِـدقـاً وإن كَـذِبـاً
فـمـا اعـتـذارُكَ مِـن قـولٍ إذا قـيـلا

عيد غريب

كان لقوم من الهنود في دولة من دولهم القديمة يومٌ في السنة يخرجون فيه إلى البرية. يخرج الرجال والنساء، والأطفال، ويخرج الشيوخ، ولا يبقى في البلد أحد إلا خرج إلى البرية. وينادي منادي الملك: من بلغ مئة سنة فليتقدم. فقد يدلِفُ شيخ فانٍ على عكّازٍ أو محمولاً، وقد تزحف عجوز عمياء على أربع وتتقدم. فيحمل جند الملك هؤلاء الكبار الذين أخنى عليهم الدهر إلى صخرة كبيرة. فيتكلمون ويقصون قصص ناس ماتوا. وقد لا يكون في البلد أحد بلغ المئة، فيصعد الواعظ ويلقي على الناس مواعظه: يحدثهم عن الأمم

الخالية، وعن رجال كانوا جبارين فطواهم الموت، وطحنتهم رَحى البِلى تحت أَطباقِ الثرى. فيبكي الناس جميعاً. وينصرفون إلى شؤونهم، تائبين مما اقترفوا.

الثعبان الوفيّ

هذا بيت فيه كلمة غريبة وله قصة. الكلمة الغريبة «أوعيتَ»، ومعناها وضعتَ في وعائك. تقول الأم لابنها قبل ذهابه إلى عمله أرني ماذا أوعيت؟ تريد أن تطمئن إلى أنه وضع في حقيبته أو وعائه شطيرة تسد رمقه. وأهل بلدي يسمون الوعاء وعا، وأهل القدس يقولون واعا. ونحن جميعاً نسمي الملابس الأواعي. وهذه كلمة جاءت من الوعاء بطريق ملتوٍ. وعندما عملت مع إخوةٍ لي من بلاد العرب سقطت كلمة الأواعي من لساني، فهي من عاميتنا، ولا مفرد لها. هذا البيت فيه كلمة أَوْعَيْت. والآن القصة:

قال القاضي يحيى بن أكثم: دخلت على هارون الرشيد وهو مطرق مفكر، فرفع رأسه وقال لي: من قائل البيت:

الخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ مِن زادِ

قلت: هذا لعَبيدِ بنِ الأبرص. وعَبِيد شاعر جاهلي. وللبيت قصة. حدَّث عبيد بن الأبرص قال:

«كنت في بعض السنينِ حاجاً - وهذا حج الجاهلية ـ، وانصرفنا من الحج قافلين، وتوسطنا البادية. وفجأة وقف القوم وعلا صراخ وضجة عظيمة. فتقدمت أرى ما الذي حل بالقوم. رأيتهم متسمِّرين وأمامهم ثعبان عظيم بطنه على الرمل ويرفع رأسه وقد فغر فاه، فكأنه فوهة بئر. مال القوم يَمنة فمال معهم ومالوا يَسرة فمال معهم، وهو لا ينفكُّ رافعاً رأسه فاغراً فاه. فمشيت إليه وبيدي قربةُ ماء. ودنوت فلم يتحرك. وصببت ماء القربة في فمه حتى لم يبق فيها شيء. فانساب الثعبان في الرمل. ومضينا في طريقنا. ثم وجدنا شجراً فاستظل القوم به، ونمت تحت شجرة بعيدة وارفةِ الظل. وعندما صحوت

وجدت القوم قد مضَوْا في طريقهم وتركوني، فهِمْتُ على وجهي لا أدري أيَّ طريق سلكوا. الشمس فوقي والرمضاء تحتي، فعلمت أنه الهلاك. ثم لاح لي من بعيد بعير فتقدمت إليه فرأيته يتقدم نحوي، ووقف عندي، فركبته، فمضى بي. قلت في نفسي: ليذهب بي أيَّان ذهب فهذا خير مما كنت فيه. فما هي إلا ساعةٌ من نهار حتى وافيت القوم. فنزلت عن البعير، فسمعت منه رغاء، ثم سمعته يقول: أرسلني إليك ذلك الثعبان الذي سقيته الماء. وانصرف البعير من فوره فكأنه ساخ في بطن الرمل. وهذا حين أقول: (الخير أبقى وإن طال الزمان به.. والشر أخبث ما أوعيتَ من زاد). فعجب الرشيد من القصة. أكان هارون الرشيد يصدق كل شيء، أم أنه كان مثلي يحب القصص؟

حديقة الطرائف

قَعْ يا غراب!

يقول المثل (خذ البريء حتى يقع الجريء)، وهو يرادف قولهم (اضرب المربوط يخاف السايب). وأصل المثل الفصيح أن أبا السائب المخزومي وقف في سوق الطير على غراب واقف على قصبة في داخل القفص وأخذ يضربه بطرف ردائه ويقول له: أما سمعت قول قيسِ بنِ ذريحٍ إذ قال:

ألا يـا غـرابَ البيـنِ قـد طِـرْتَ بـالـذي
أُحـاذِرُ مِـن لُبْنـى فَهـل أنـتَ واقِـعُ؟

فَقَعْ يا غراب البين، قَعْ. يقول هذا والغراب واقف على قصبته. فجاء الناس وقالوا لأبي السائب: يا أبا السائب هذا الغراب غيرُ غراب قيس. فقال: آخُذُ البريء حتى يَقَعَ الجريء.

زقفيلم

صحا أبو علقمة النحْوي عند الفجر، فأيقظ خادمه وقال له: هل صَقَعَتِ العَتاريف؟ فقال له الخادم: وما معنى ذلك؟ قال: العُتروف الديك، فهل صاحت الديكة؟ قال الخادم: زَقَفَيْلَم. قال أبو علقمة: ويحك! وما معنى زقفيلم؟ قال الخادم: معناها «لم تصِحْ».

المقاقاة

دخل أبو حاتم السِّجِستاني ـ وهو من علماء البصرة ـ بغداد، فسئل في حلقة الدرس بالمسجد عن قوله تعالى: قُوا أنفسكم، قالوا: كيف نقول بالمفرد: قال: نقول: قِ. قالوا فكيف هي بالمثنى: قال: قيا. قالوا: فكيف بالجمع؟ قال: كالآية قوا. فطلبوا منه أن يقولها لهم مرة أخرى، فقال: قِ قِيا قُوا. ورددها عليهم. فسمعه رجل في ناحية المسجد، فقام من فوره إلى صاحب الشرطة، وقال: ظفرت بقومٍ زنادقة يقرأون القرآن مُقاقاةً على صياح الديكة. فدهمت الشرطة المسجد، وأُخذ أبو حاتم وأصحابُه إلى صاحب الشرطة فعنَّفَهم وضربهم عشَرة عشَرة. فعاد أبو حاتم سريعاً إلى البصرة.

أبو علقمة عند الطبيب

ذهب أبو علقمةَ النحوي إلى الطبيب وقال له: إني أكلت من لحوم هذه الجوازل، فطسِئتُ طَسْأَةً فأصابني وجع بين الوابِلَةِ ودَأْيَةِ العنق، فخالط الوجع الخَلْب والشراسيف، فهل عندك دواء؟ قال له الطبيب: خذ حَرقفاً وسَلْقفاً ثم أهرقه ورقرقه واغسله بماء مروَّث، واشربه بماء الماء. قال أبو علقمة: ويحك لم أفهم شيئاً! قال الطبيب: لا يفل الحديد إلا الحديد.

اللغوي المريض

عاد بعضهم جارَه اللغوي، فقال له: كيف تَجِدُك؟ قال: أشكو حمى جاسية، نارها حامية، منها الأعضاء واهية، والعظام بالية. فقال له جاره: لا أذاقك الله العافية، ليتها كانت القاضية.

شهادة أبي علقمة

مرَّ أبو علقمةَ النحْويُّ بغلام حبشي وآخرَ صقلبي، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلبي الأرض. والصقالبة هم البيض الذين كان يؤتى بهم من بلاد الروم.

المهم أن الغلام الحبشي أوسع الصقلبي ضرباً وأسال دمه، ودك بطنه بقدميه، وأدخل أصابعه في عينيه وعض أذنه. فحمل رجال الشرط الفتيين إلى الوالي. وقال الصقلبي المضروب إن أبا علقمة قد شهد الواقعة، وإنه لا يرضى بغيره شاهداً. فجيء بأبي علقمةَ النحوي. فسأله الوالي، فقال: أصلح الله الوالي، بينا أنا أسير على كوْدني، إذ مررت بهذين الفتيين، فرأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع، فحَطأه على فَدْفَدٍ، ثم ضغطه برَضْفَتيه في أحشائه، حتى ظننت أنه تدعَّج جوفه، وجعل يَلِجُ بشناتره في جَحْمتيه يكاد يفقؤُهما، ثم علاه بِمِنْسَأَةٍ فعَفَجَه بها. قال الوالي: ما فهمت شيئاً. قال أبو علقمة: فهل تراني كلمتك بالفارسية! فكشف الأمير رأسه وقال للصقلبي: تعال يا بُنَيَّ واصفعني خمساً، وأَعْفِني من شهادة هذا الأحمق.

النحوي يحضر وأبوه يُحتَضر

كان لبعضهم ولدٌ يتردد على مجالس النحاة. واعتل الرجل علة شديدة، فدخل عليه أولاده، ثم بعد حين جاء الابنُ النحْوي متأخراً. فانبرى يقول لوالده: يا أبتِ، قل لا إله إلا الله، تفز بالجنة فإنك مقدم على رب رحيم. والله ما شغلني عنك إلا علقمة ابنُ أبي علقمة فإنه دعاني فأَهرَسَ وأَعْدَسَ وسَكبَجَ وطَهبَجَ ولَوْزَج وافْلَوْزَج. فصاح الأب: أخرجوه عني، وأغمضوا عينيَّ، فقد سبق هذا الفاجر مَلَكَ الموت إليّ.

لولو والشاعر

قال الشاعر يتغزل بفتاة يشبهها بالغزال وبالبدر الذي يتلألأ:

رأيــتُ ظَـبْـيـاً عـلـى كـثـيـبٍ ... شـبـيـهَ بـــدرٍ إذا تـــلالا
فقلت: ما اسمُكْ؟ فقال: لولو ... فقلت: لـي لـي؟ فـقـال: لا لا

ومن هذا الباب أن رجلاً قصد بيت جاره النحْوي، فوجد ابنه الصغير عند الباب، فخشي أن يكون الولد مدققاً في اللغة كأبيه وتحير أيقول أبوك أم أباك أم أبيك، فقال: هل أباك أبوك أبيك في المنزل؟ فقال الولد: لا لو لي.

حمار ليس كالحمير

وقف أبو علقمةَ النحْوي أمام دكان بائعِ دواب، وقال له: أريد حماراً لا هو بالصغير المحتقر، ولا بالكبير المشتهر، إنَ أقللتُ علفه صبر، وإن أكثرتُ له العلف شكر، لا يدخل تحت الميازيب، ولا يزاحم في الزواريب، إذا خلا له الطريق تدفق، وإن كثر الزِّحام ترفق. فقال له بائع الدواب: ننتظر أن يمسخَ الله مولانا القاضي حماراً فأبيعَه لك.

سقوط أبي علقمة

سقط أبو علقمة النَّحْوي في حفرة عميقة، ومر بالحفرة كنَّاس فسمع صراخاً، فنظر فإذا رجل في قعر الحفرة يئن من كسور بأضلاعه. قال أبو علقمة بين الأنَّة والأنَّة: وقعتُ عميقاً، وجففت ريقاً، فانشُدْ لي حبلاً وثيقاً، واجذبني جذباً رفيقاً. قال الكناس: امرأتي طالق إن أنقذتك أيها المتقعر. ثم إن القوم سمعوا صراخ النحوي فخفُّوا إليه وأخرجوه، ورفعوا الأمر إلى الوالي ليعاقب الكناس. قص الكناس قصته على الوالي. قال الوالي: يُعاد أبو علقمة إلى الحفرة ليبيتَ ليلته فيها، وفي الصباح تخرجونه.

حالات الابتداء بنكرة

قال لي زميلي: دخلت محاضرة النحو في الجامعة، فتحت دفتري وامتشقت قلمي. فكان أولُ ما قاله الأستاذ: «الجملة العربية يجب أن تبتدئ بمعرفة، إلا في أربعين حالة». فأغلقت دفتري، ووضعت قلمي في جيبي، وكان هذا آخرَ عهدي بالنحو.

فرح وفرح

قال أبو عمرِو بنِ العلاء: كنت في حيْرة من أمري في كلمة (فرجة)، لا أعرف أهي فُرجةٌ بالضم أم فَرجةٌ بالفتح. وكنت أيامئذٍ خائفاً جزِعاً وأنا هارب من وجه الحجاج. ثم إني سمعت أعرابياً ينشد:

ربما تجزعُ النفوسُ من الأمر … له فَرجةٌ كَحَلِّ العقال

أنشد الأعرابي البيت ثم أخذ يصيح: قد جاء الخبر بموت الحجاج. فوالله لقد فرحت بأن عرفت أنها فَرجةٌ بالفتح أكثرَ من فرحي بموت الحجاج.

اعتراف

قيل لأبي عمرِو بنِ العلاء قد أخطأت في كلمة، فقال: لو كنت كلما أخطأت وقعتْ في حِجري جوزة، لقمت من مجلسي هذا وحِجري مملوءٌ جوزاً.

الكسائي وتلميذه النجيب

كان عليُّ بنُ الأحمر رجلاً من أهل النوبة، وكان من حرَّاس هارونَ الرشيد. فإذا جاء الكسائي ليؤدِّب الأمينَ والمأمون أخذ عليٌّ بزمام دابَّته وصاحَبه إلى الباب وهو يسألُه في اللغة. وأصاب الكسائيَّ وَضَحٌ، وهو ابيضاضٌ في الجلد، فكرِهَ الرشيد دخولَه على ولديه، وطلب منه أن يسمِّيَ له مؤدِّباً. فلم يشأ الكسائي أن يسمِّيَ أحد منافسيه. فاختار الحارسَ عليَّ بنَ الأحمر. وأصبح هذا الحارس، الذي كان يقف بالباب، مؤدِّباً لولدي الخليفة. وظل عليُّ بن الأحمر يتردد على الكسائي كل ليلة، ليس وفاءً لأستاذه ووليِّ نعمته الكسائي فحسب، بل لأن الكسائي كان يعطيه في كل ليلة مسألتين في اللغة والنحو لكي يلقِّنَهما للأمين والمأمون.

الصعود من القاع إلى القمة

كان الأَصمعي طالبَ علمٍ فقيراً في البصرة. كان يذهب في الصباح إلى محدث يعلمه الحديث، وفي المساءِ إلى لغوي، ويقصد عند الظهر أخبارياً يعلمه الشعر وأيام العرب. وكان يمر في رَوْحاته وغَدَواته على دكان جارٍ له بقّال. فما يسأله البقال عن روحاته وغدواته إلا قال: ذاهبٌ إلى فلانٍ المحدّث أو قادمٌ من عند فلانٍ اللغوي. استوقفه البقال يوماً وقال: يا عبد الملك ـ وهذا اسم الأصمعي ـ لا تضيّع نفسك، هذه الكتب التي ملأت بها دارك، لا والله لا أشتريها بجزرة. ثم سخر منه قائلاً: هات كتبك وضعها في جرة، واسكب فوقها ماءً، ونرى بعد ذلك إن صار الماء نبيذاً! ضاق الأصمعي بكثرة تأنيب البقال له ـ والبقّال في الزمن القديم هو الخضريّ ـ. واشتد الفقر بالأصمعي حتى لقد كان يخلع الآجُرّ من أساسات داره ليبيعه بدراهم قليلة. وطال شعره واتسخ بدنه واهترأت ثيابه. ثم طلب أمير البصرة الأصمعي. ووجد عنده علماً وحفظاً فقربه. ذات يوم قال له: يا عبد الملك، اركب إلى بغداد، فالخليفة هارون الرشيد يريدك لتأديب ولديه. قد وصفتك له فطلبك. فانطلق الأصمعي إلى بغداد، معلماً لوليي العهد اللذين سيصبحان الأمينَ والمأمون. وأغدق الرشيد على الأصمعي المال، فصار من أهل السعة واليسار. وكان يرسل المال إلى البصرة ويشتري الأراضي والبيوت. وبعد سنتين استأذن الأصمعي الرشيد في الانحدار إلى البصرة فأذن له. وقال له: سلني حاجتك. فقال الأصمعي للخليفة: يكتب أمير المؤمنين إلى أمير البصرة أن يدعوَ الناس للسلام عليّ في بيتي ثلاثةَ أيام. فكتب الرشيد بذلك إلى الأمير. وفي البصرة كان ممن جاء يسلم على الأصمعي البقالُ القديم. جاء بثياب وسخة وفي رجله جُرموقان - والجرموقان خُفان مثلُ جزمة المطاط التي للوحل في زمننا ـ. قال الأَصمعي للبقال: هل صار الماء نبيذاً؟ فأطرق البقال، ولم يحضره جواب.

اللسان واللباس

وقف رجل حسنُ الهيئةِ أنيقٌ عليه فاخرُ اللباس على المبرِّد، وأخذ يسأل ويلحن، ويتسكع في الخطأ، فقال المبرد: يا هذا! إما أن تلبَسَ على قدر كلامك، وإما أن تتكلم على قدر لباسِك.

المقامة الطائرية

حدثنا أبو علقمة النحويُّ قال: يممت شطر المطار في يوم مطير، شطره زمهرير وشطره زمجرير. و«الزمجرير» كلمة موجودة في معجم طبعوا منه نسخة واحدة أودعتها خِزانتي. وقد علمتم أنه ليس بين السفر وسقر إلا نقطة، لكنني اضطُررت بعد إذ وقعت في ورطة. فإن ابنيَ وقرةَ عيني علقمة، يطلب العلم في بلاد السكسون، ولا بد لي من تفقده تفقد المشوق الواله، والوقوفِ على دقيق أحواله. وقيل لا مَعدَى لك عن ركوب عُقابٍ يسمونه الطائرة، فقلت: لا أكُنْ واللهِ أعجزَ من السندباد، الذي امتطى الرُّخَّ وغاب ثم عاد. والطائرة هذه طير له جَناحان من غير ريش، ولا يعتلف الشوفان ولا الحشيش، بل رأيتهم يسقونه الزيت من بين قائمتيه، وينصبون سلماً نرقى به إليه. ثم إنهم أقعدونا في جوف دِهليز معمور بالكراسيِّ على جانبيه. وسألت عن حقيبتي فقيل لي إنها قابعة مع سائر الحقائب تحت، فأمرتهم أن يأتونيَ بها حتى لا يلوثَها الزيت، فأمروني بالسكوت فسكت، ومن كان في جوف الحوت فعليه بالصمت. ونودي أن اربطوا الأحزمة، فاستوثقت من ربط حزامي، وما عتَّمَتْ أن أقبلت عليَّ شقراء تتكلم بلسان أهل الحواضر، قالت لي اربط حزامك، قلت لها: مربوط يا أختي، منذ أن خرجت من بيتي! قالت - وقد أمسكت بحديدة ينساب منها شريط أسودُ كأنها ثعبان الكوبْرا - وإنما سمي الكوبرا لأنه ذو رأس كبير -، قالت: اربط حزام المقعد. فأدركت ساعتئذ أن الطائرة ستتقلب في الجو، وأنها ستجعل عالينا سافلنا، فربطت نفسي بالكرسيّ، وبدأت أرتجف لهول ما سيرد عليّ. وسارت الطائرة سيراً هيناً، ثم أغذَّت في

السير وهي تزأر. ونظرت في كوة كانت على يميني فرأيت الأرض أصبحت بلون الرماد، وقد احترق زرعها ومات ضرعها، فاستعذت برب العباد، وحوقلت وحسبلت، ورفعت الصوت وابتهلت، فقال لي راكب بجانبي: هذا الذي تراه جناح الطائرة. فهدأتْ نفسي، وأخذت أنتظر أن يرفرف الجناح وأنا أتمتم بالمعوِّذتين، وانتظرت ساعة بل ساعتين، قلت لصاحبي: لعلنا سنبلغ لندرة براً. قال لي بل نحن في الهواء. فلم أصدق هذا الهراء. ثم نودي بنا أنْ بإمكانكم فكُّ الأحزمة، فقلت: لا أفك، فعن قريب قد يبدأ التقلب. وأخذت أُزوِّر في نفسي الكلام الذي سأقوله لأمِّ علقمة عن هذه الرحلة عندما أعود، سوف تستمع إليَّ وعيناها تكادان تخرجان من رأسها لفرط التعجب. لكنني لن أذكر لها الشقراء. ولم أكد أفكر في الشقراء حتى جاءت الشقراء. جاءت تسوق أمامها عربة فيها طعام أشمه ولا أراه. ثم أقبلت علي بوجهها وقالت: أتأكل القوردون بلو، قلت: لا آكل شيئاً لا أستطيع أن أعربه، فهل القوردون ممنوعة من الصرف؟ فهزت رأسها وقالت: أتأكل كاري الدجاج؟ قلت: هذا حسن فهو من عصر الاحتجاج. والكاري كما تعلمون من أفاويه الهند، وهو منسوب إلى رجل كان يكري الدواب في سرنديب. وقيل بل كان يكتريها، وفي المسألة خلاف. واستخرجتْ من جوف عربتها طبقاً على طبق على طبق، طبقاً لي وطبقاً لصاحبي وطبقاً انزلق، فاصطادته الشقراء ببراعة، وعرضت شراباً فأبيت حتى لا يندلق، فأنا ما زلت أترقب الشقلبة الموعودة. وبعد الأكل بقليل قيل لنا: مرحباً بكم في مطار هيْثرو، وهيْثرو مشتقة من الهباء والثرى، ولعل مطارهم قد أقيم على كثيب رمل. ونزلت مع النازلين، وسرت مع السائرين، لا أدري أين أسير ولا أين يسيرون، وما هي إلا سويعة حتى رأيت صاحب ولدي يلوِّح لي من بعيد. قال: أين الحقيبة؟ قلت: هي تحت، فقال: مصيبة! لكنه بعد طول العناء والشقاء، عاد بها يجرها مثلما كان وهو صغير يجر عنز أهله الشقراء. قلت أين علقمة؟ فقال: ألـمَّ به زكام فنام، وأرسلني كي آخذك إلى الخان.

المقامة اللُّنْدَرِيَّة

حدثنا أبو علقمة النحويُّ قال: أحلَّتني سفرة منكرة وقد فارقت كل عزيز، في مدينة لندرة حاضرةِ بلاد الإنجليز. وفي وطابي سَويق، وفي جرابي بقل، لأن طعامهم ليس للأكل. نمت في الخان نوم أصحاب الرقيم لما لحق بي من وصب ونصب. وما هو إلَّا أن سمعتُ قرعاً على الباب شديداً، فإذا صاحب الخان يقول لي: قد متع النهار، قلت: وهل يمْتَعُ النهار في العَتَمة؟ قال هو الغمام لا يكاد يزايلنا، إن أمْطر بلَّلنا، وإن أمسك ظلَّلنا. استبشرت بالغيث، وسألت عن رَكوبَة تحملني إلى منزل ولدي، فقال لي صاحب الخان: أنت بين أن تمتطيَ طقسياً وحدك (ولعل الطقسيَّ هذا اسم وثن عندهم يقيمون له الطقوس) والطقسي يعود عليك بغرم من الدراهم ثقيل، وبين أن تكون رديفاً على أَوْطَبوس، فهو بفلوس. وهذا حين أحدثكم عن العجب العجاب، فقد أقبلتْ عليَّ هذه الدابة المنكرة، مزمجرة مسحَنْفِرةً، ولها في مُقَدَّمِ رأسِها عينان، عينٌ فوق عين، ولا كذلك أعين البعران. وللعين السفلى هُدْبان يَروحان ويجيئان ويمسحان الرذاذ. ولم يخامرني شك في أنها من حمر النعم، غير أن حمرتها حمرة الدم القاني. قلت في نفسي: وكيف أمتطي هذه الدابة ولا رِكاب لها، وإنها لهِرجابٌ عيطموس، ويعلم الله أنهم أخذوا اسم الأوطبوس من العيطموس وهي الناقة العالية. وأنيخ الأوطبوس، أناخه صاحبه القاعد في الهودج، وانفتح باب. ففهمت أن الركوب يكون في الهودج لا على السنام، فركبت مثل النساء واحتسبت. وانتظرت أن يقوم صاحب الهودج كي يغلق الباب، غير أن الباب انصفق وحده فرد عنا ريحاً صرصراً. وأعجب ما في هذه الدابة أنها بغير قوائم، بل تسير على أَرْحاء أربع، في مقدَّمها رَحَوان وفي مؤخَّرها رَحَوان، وهذان يدوران، وذانك يدوران. وأزيدك من الأعاجيب أعجوبة، فهذه المطية يعلوها هودجان: هودج فوقه هودج، وفي كل هودج كراسيُّ عليها حشايا، على أنها عجب في الكراسي فهي من معدِنٍ ومثبتة بالدواسر. وقلت في نفسي: لا والله ما يُنهض هذه

الدابة من مجثمها إلا جني. وحانت مني التفاتة إلى مرآة معلقة فإذا صورة صاحب الدابة، وندَّت عني صرخة لم أملك لها حبساً، فصاحب الدابة امرأة. وضربت كفاً بكف، فنحن في زمن يركب فيه الرجال الهوادج وتسوقهم النسوة. ووقع في نفسي أن صاحبة الصورة جِنِّيَّة، وتأكد في نفسي أنها جنية عندما نهضت بدابتها، وانطلقت بها وهي تزمجر كزمجرتها الأولى. وبعد حين استجمعتُ شجاعتي، ومضيت إلى حيث تجلس الجنية وكلمتها بالعربية، وتعلمون أن أصلَ كل لسان في هذه المعمورة اللسانُ العربي، لولا أن كل قوم يحرفون كلامهم تحريفاً يبعده عن وضعه الأصليّ. كلمتها فهزت رأسها يميناً ويساراً، فأخرجت الورقة التي بعث بها إليَّ ولدي حفظه الله، فنظرتْ فيها، ثم أومأت برأسها فوقَ وتحتَ إيماء من فهم المراد. وبعد حين أوقفتْ دابتها وأشارت عليَّ بالنزول. ويا لحبوري، فقد وجدت ولدي ينتظرني، فاعتنقته وشمِمْتُه. وأخذت أحدثه عن أعاجيب الأوْطبوس، وهو يضحك. كأنه لم يصدقني!

المقامة الباريزية

حدثنا أبو علقمة النحويُّ قال: كان مُنصَرَفي عن بلاد السكسون، برفقة ولدي قرةِ عيني علقمة، لليلتين بقيتا من ذي الحجة، قلت آتي بلاد الفرنجة، فهي على بعد فحجة. ومنيت النفس بركوب بحر المنش واستنشاق عليلِ هوائه، وترديد النظر بين مائه وسمائه. أخرج علقمةُ من رقعةٍ في ذيل سرواله لوحاً شبهته بمشط خالتي أمِّ بَوْزع، ونظر فيه نظرةً ثم أهطع، وتركني أجري وراءه. فمددت ذراعي على طولها وأمسكته من قذاله، وقلت له: أتقود أباك لا أمَّ لك! فقال لي بل أفتح لك الطريق، فقد كاد يفوتنا القطار. فهرولنا حتى وافينا القطار. وهو خلق عجيب كأنه الثعبان. جذبت علقمة جذبة وقلت له: ألا نؤدي جُعْل الركوب قبل الركوب؟ فقال قد أديت. قلت كيف؟ قال: أما رأيتَني نقرت نقرتين على المحمول؟ وركبنا في جوف هذا الثعبان، فانساب بلطف إلا من فحيح أتبعه بصَفير. ثم شعرت به قد سكن واستكنّ، ووقف وكنّ. فنظرت

في وجه علقمة نظرة السائل الصامت، فقال لي: بل نحن نسير الهيذبى، ولكننا لا نحس. وهبط الظلام فجأة، فقلت في نفسي: هذه غيمة من غيوم الإنجليز. ثم انجلت الغيمة، وسرعان ما قيل لنا انزلوا، فنزلنا. وتلفتُّ أبحث عن المركِب الذي سيحملنا فوق الماء. فقال لي ولدي: بل قد عبرنا المنش، ونحن على مشارف باريز. وأفهمني ـ لا زال فاهماً ـ أننا عبرنا تحت المنش. فعلمت أن هذا من أشراط الساعة التي لم يذكرها الغماري في كتابه، فالبشر سبحوا في الماء، وغاصوا في الأعماق، فأما أن يسير ثعبان عظيم تحت البحر، فهذا نذير بشرّ. وبينا أنا في هذا، إذا برج إيفل يطالعنا من بعد، فعرَّفت ولدي أن إيفل جائية من بابل، أبدلت الباء همزة والألف اللينة ياء، والفاء باء. قال لي: لم يبق من حروفها إلا اللام، فقلت: وفي اللام الكفاية. قد فَنِيَ من حصَّلوا هذه المعارف! ووقفنا، ووقف بإزائنا طقسي، فقال ولدي اركب يا أبتِ، قلت له: قل لصاحب الطقسي أن يأخذنا إلى خاننا. قال لي قد قلت. وركبت وركب، ولا والله ما قال للرجل كلمة. وترجلنا في صمت. قلت لعلقمة: يا علقمة، أونصرِف صاحب الطقسي وما نقدناه. قال لي بل نقدته. قلت كيف؟ قال: بنقرتين نقرتهما على المحمول. قضيت في باريز يومين وليلة شغلني فيهن المحمول عن أولئك النسوة يمشين في الأسواق، وقد بدت منهن الترائب والأعناق. ومنهن عرايا ظهور وعرايا بطون، ومنهن من تتخذ الجِيبة وتحتها الفيزون. والفيزون كلمة عربية بمعنى السروال الضيق أُبدلت حروفُها جميعاً، هكذا تتحرف العربية في بلاد الفرنجة. وتقول لي: كيف تصف كل هذا وإنك لمنشغل عنه. فأقول لك: رأيتُهُنَّ كلَّهن في المحمول. فقد قضيت الساعات الطوال وأنا أمسح وأنقر، على محمول علقمة، حتى أَظْهَرَ على سر هذا اللوح الغريب. والمحمول مخلوق لطيف تتحسس صدره بإصبعك وتمسَح مسحاً رفيقاً ثم تنقر، فيأتيك بالعجائب. لقد رأيت معالم باريز أجمع، في مشط خالتي أمِّ بوزع.

المقامة الألمانية

حدثنا أبو علقمة النحويُّ قال: أفضى بي حب السفر إلى ناحية، تدعى مانية، ويعرِّفونها ويحققون همزتها فيقولون ألمانية، وهذا ليس بشيء. وركبت من فرانكفورت في قُرْقورٍ عَجَبٍ في القراقير فلا شراع ولا مجداف، ويسوقه ـ علم اللهُ ـ خلق من الجن الأجلاف، مضينا على صفحة بحر يسمى المايِن، وهذه لعلها مأخوذة من الماء، ثم أفضى بنا إلى بحر أعرضَ منه يسمونه الرايِن، كأنما لأن الماء يرين على صفحته، ولا يفيض على ضفته. وبعد ساعات، مرت عليَّ كأنها أيام، ارتفعت لنا هامة كنيسة يعظمونها فيسمونها قُدرائية ، كأنما نظروا في اسمها إلى قدرة الله تعالى. ورسونا، فقال لنا الملاح اهبطوا فهذه قولونية. وما لمست قدماي البرَّ حتى اطمأن جأشي وعادت إليَّ نفسي، وزادني اطمئناناً أن رأيت صاحبي فُرَيْتِس يلوح لي. فأقبلت عليه، وحككت مَنخريَّ بمَنخريهْ، كما كنا نفعل إذ كان فريتسُ يقيم في مضاربنا في عامٍ أول. وكلمني بعربية علاها الصدأ، فقلت في نفسي: قد عاد إلى أوطانه، وزلَّت العربية عن لسانه. قال لي: نذهب إلى الحان. فتعوذت، وقلت هذه أولى المناحِس. وأردف: نحن في الحان نشرب ونأكل. ففرحت بقولته «نأكل»، فقد نقت ضفادع بطني لأنني ما طعمت شيئاً من الزاد، مذ هبطت هذه البلاد. اقتعدنا الخشب في حديقة الحان، فحاناتهم ذواتُ حدائق حسان. وجاءنا النادل فطلب صاحبي لنفسه جِعة، وطلب لي ماء قراحاً. وأخذ يمتص جِعته وسط حباب كأنه لحيةُ والدي عقلة، فقلت: هذا ما نسميه حسواً في ارتغاء، ونظرت في زجاجة مائي فإذا فقاقيعُ تصعد من قعرها إلى فمها، فارتبت، ففهم فريتس وقال لي بل هي حلال، غير أن فيها أبخرة تحفز المعدة على الأكل. ففرحت لقوله «الأكل»، وإن كانت معدتي متحفزةً متوثبة ولا حاجة بها إلى حفز. وأشار صاحبي إلى النادل، وبعد حين جاء بطبق كبير فيه لحم وخضرٌ كأنها البنفسج، وأخلاطٌ من أشياءَ لم أعهدها. قلت له: ألحمُ قعود؟ قال: هذه زاور براتن. وهي من لحم

الحصان. فرفعت يدي. قلت: لا نأكله. فدعا بالنادل ورطن إليه. وبعد هنيهة جاء بطبق فيه والعياذ بالله أصابعُ آدمية، يسيل من أطرافها دم قان. فقمت عن مقعدي، ووضعت طرف ثوبي بين أسناني، وقلت الفِرار. فأمسكني صاحبي، من يدي، وأمسكني المقعدُ الخشبي من ساقي، فسقطت أرضاً وإني لأرتجف رعباً. قلت في نفسي: فررنا من ذوات الحوافر، لنقع في ذوات الأظافر. قال لي فريتس: يا أبا علقمة! هذه نقانق كالتي وصفها أبو حيان في كتابه ونسميها فرانكفورتر. قلت له: والدم الذي يسيل من أطرافها! قلتها وما زالت بي رجفة الخوف من هؤلاء القوم. قال: هذه تسمى القُطشوب، وهي من الطماطم. قلت: لا أعرفها. وثابت إليَّ نفسي، وما أثابها إلا الجوع. فقال لي صاحبي: تأكل لحم البقر، فقلت وقد عضني الجوع: حيَّهلا بالبقر. فجيء إليَّ بخبزتين يرقص بينهما قرص كأنه من اللحم. فأهويت بأسناني كدماً كدماً. وقضيتها أياماً في بيت صاحبي لا آكل إلا هذا الخبز المكور، فإن كان بين الخبزتين قرصُ لحم فبه، وإلا فلا شيء إلا الخبز. ثم إني ملِلت من القعود، فانصرفت شاكراً وقلت: لا أعود.

ثالث ثلاثة

اصطحب أحمقانِ في طريق، فقال أحدهما لصاحبه: تعال نَتمنَّ، فالأمانيُّ تقصِّر الطريق. وبدأ فقال: أتمنى قطيعَ غنمٍ أنتفع بلحمها ولبنها وصوفها. فقال صاحبه: وأنا أتمنى قطيعَ ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تتركَ منها عنزاً ولا خروفاً. فقال له: ويحك، أهذا من حق الصحبة! ألا ترجع عن أمنيَتك. فأبى صاحبه إلا الذئاب. فتصايحا ثم أمسك كل منهما بتلابيب الآخر. وبينَا هما كذلك طلع عليهما شيخ يسوق حماراً عليه زِقَّان من عسل اليمن. فقال لهما: أصلحكما الله، علام الخصومة، وفيمَ الشجار؟ فأخبراه بالأمر. ففتح الزقين وسكب العسل على التراب حتى لم يبق فيهما لحسةٌ تُلْحس. وقال: صبَّ الله دمي مثلَ هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

العلم في السوق

العرب تعتز بالحفظ، وترى أن العلم الذي في الصدور أهم من العلم المخبوء في الدفاتر والكتب. قال الإمام الشافعي:

علمي معي حيثما يمَّمتُ ينفعني
صدري وِعاءٌ له لا بطنُ صندوقِ
إن كنتُ في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق كان العلم في السوقِ

قاعدة الكتابة الحسنة

«القلم جبان، واللسان حصان». هذا مثل لم يَرِدْ في كتب الأمثال، وقد صغته كي أعبر عن فكرة. الإنسان يجلس إليك فيحدثك طويلاً ويتدفق. فإن أمسك بالقلم تشنجت أصابعه، وتلجلج ولم يكتب شيئاً. قالت المربية للأمير الصغير: أمسك القلم. فأمسك القلم. قالت: اكتب رسالة لوالدك جلالةِ الملك. قال: لا أستطيع. قالت: فلو حضر أبوك الآن، فماذا تقول له؟ قال: أقول «اشتقت إليك يا أبي». قالت هيا اكتبها. فكتبها. ثم طلبت إليه أن يكتب: احترق البيت ونجوتُ بصعوبة. قال: هذا كذب! قالت: إذن لا تكتبْه. فاكتب الآن: أمام القصر حديقة. فقال: هذا شيء يعرفه كل الناس، فلماذا أكتبه؟ قالت له المربية: الآن، أنت تحسن الكتابة: تكتب ما تريد قوله. ولا تكتب الكذب، ولا تكتب ما يعرفه كل الناس.

سارق الدجاج

جاء رجل إلى شيخ الحيّ وقال له: ليَ جار يسرق دجاجاً من دجاجاتي، ولا أعرف أيَّ جارٍ هو. فانتظر الشيخ حتى الجمعة، وقام يخطب. وقال في أثناء خطبته: يحضر صلاتنا رجل وهو قد سرق دجاجاً من جاره، وعلى رأسه بقيةٌ من ريش! فمسح أحدهم على رأسه، فعرف الشيخ سارق الدجاج.

الفلاح والطحان

جاء فلاح إلى صاحب طاحون بقمحه، وأخذ يتعجَّلُه حتى يطحن له قبل الناس. فطلب منه الطحان أن يتريث. فغضب الفلاح وقال: إن لم تطحن لي في الحال دعوتُ الله أن يُهلك دوابَّك. قال الطحَّان ببرود: ودعوَتُك مستجابة؟ قال الفلاح: نعم. فقال له الطحان: إذن، فادعُ الله أن يحيل قمحك إلى دقيق.

ثلاثة أدعية مستجابة

رأى رجل صالح في منامه أن الله منحَه ثلاثةَ أدعيةٍ مستجابة. وعندما صحا من نومه أخبر امرأتَه بحُلْمه. فقالت: الدعاء الأول لي، ادعُ الله أن يجعلني أجمل امرأة في الدنيا. فدعا ربه، فإذا هي تصبح أجمل امرأة في الدنيا. فهجرته من فورها. فدعا ربه أن يحولها إلى كلب أعرج. وما حلَّ ذلك المساء إلا وهو يرى كلباً أعرجَ عند بابه يستعطفه. فدعا ربه مرة ثالثة أن يردَّها كما كانت. فرجعت كما كانت. وخسر الرجل الأدعية الثلاثة.

المخلصة

سأل الشابُّ حكيماً: أيُّهُن أكثرُ إخلاصاً لزوجها: ذاتُ الشعر الأسودِ أم البني أم الأشقر؟ قال الحكيم: بل ذاتُ الشعر الأبيض.

فراسة إياس

سمع القاضي إياس نُباح كلب من بعيد، فقال لأصحابه: هذا نباح كلب مربوط على شفير بئر. فتوجهوا إلى مصدر الصوت فكان كما قال. قالوا له: كيف عرفت؟ قال: سمعت صدى يجيبه، ونحن في أرض منبسطة، فعلمت أنه لا بد أن يكون عند بئر. وتكرر نباحه وتكرر الصدى فقلت لا بد أن يكون مربوطاً.

المبرراتي

كان الحاجبُ يسير بصحبة الوالي، فمرا بجانب النهر، فقال الوالي: ما أنفعَ هذا النهرَ للناس! فقال الحاجب: أجل أيها الوالي، يتعلم العومَ فيه صبيانُهم، ويكون لهم مشرباً، ويأتيهم بحاجتهم على ظهور المراكب. وبعد مدة كان الحاجب يسير إلى جانب الوزير بمحاذاة النهر، فقال الوزير: ما أضرَّ هذا النهرَ بالناس! فقال الحاجب: أجل والله أيها الوزير، تَنِزُّ منه دورُهم، ويغرق فيه صبيانُهم، ويكثر لأجله بعوضُهم.

الغلام الكسول

كان لرجل من العرب خادمٌ كسول. وجَّهه يوماً ليشتريَ له عنباً وتيناً، فطال غيابُه ورجع ومعه عنب ونسي التين، فأوجعه تأنيباً، وقال له: من الآنَ فصاعداً، حتى لو طلبت منك حاجة فأْتِ بحاجتين. ومرض الرجل يوماً، فطلب من خادمه أن يأتيَه بطبيب. وسرعان ما عاد الغلام ومعه رجلان. قال له سيده: فهذا الطبيب، ومن ذاك الآخر؟ قال الغلام: ألم تقل لي إن طلبتَ حاجة أن آتيَك بحاجتين؟ هذا طبيب يداويك، فإن لم ينفعْ علاجُه، فهذا حفَّارُ قبورٍ.

النار والدار

مات مجوسيٌّ عليه ديْن، فجاء الدائنون إلى ولده يقتضون. وقالوا له: لو بعتَ الدار، وسدَّدت دينَ والدك عسى أن يخفف اللهُ عنه العذاب. قال لهم: فهل يدخلُ الجنة؟ قالوا: كلا. فقال لهم: فليبقَ في النار، وأنا في الدار.

حجة العجوز

بنى بعض أكابر البصرة داراً، وكان في جوار الدار كوخ لعجوز، واحتاج إلى الكوخ لتوسيع داره. فثمن المثمنون الكوخ بعشرين ديناراً. فأبت العجوز بيعه. فعرض عليها مئتي دينار فأبت. فذهب إلى القاضي وطلب منه أن يحجر

على العجوز لأنها سفيهة تضيع مئتي دينار دُفعت في كوخ يساوي عشرين ديناراً. فاستدعاها القاضي، فقالت: السفيه من يدفع مئتي دينار لما يساوي عشرين، فأفحم القاضي والمتقاضي، واحتفظت العجوز بكوخها.

العطّار والحمّال

استأجر العطار حمالاً يحمل له صندوقاً فيه قواريرَ من زجاج رقيق يوضع فيه العطر والطيب. وقال له: ما قولُك في أن أعلِّمَك ثلاث حكم بدلاً من الأجر، فرضي الحمال. قال له العطار ها هي الحكمة الأولى: من قال لك إن الجوع خير من الشِّبَع فلا تصدِّقْه. ومضيا حتى انتصف الطريق. فقال العطار: الحكمة الثانية: من قال لك إن المشيَ خيرٌ من الركوب فلا تصدِّقْه. ومضيا حتى وصلا إلى دكان العطار. فقال للحمال: وها هي الحكمة الثالثة: من قال لك إن في بغدادَ كلِّها حمالاً أشدَّ منك حمقاً فلا تصدقه. فرمى الحمال بالصندوق من على رأسه حتى ارتطم بالأرض، وقال للعطار: من قال لك إن في الصندوق قارورةً سليمة فلا تصدقه.

السينما في طرابلس

عندما دخَلَت السينما إلى طرابلس الشام كان صاحبها يوقف الفلم في منتصفه، ويصرخ بالمتفرجين (شطفة يا شباب) حتى يرفعوا أرجلهم، ويرشق سطولاً من المياه الباردة لترطيب الجو في الصيف. وكان المتفرج الأعور يدخل السينما في طرابلس بنصف تذكرة.

الهدايا

قصد الفلاح أمير الناحية وحمل إليه رأس ملفوف، وقال: يا مولاي، الهدايا على مقدار مهديها. فقبل الأمير الهدية شاكراً. وقال للفلاح: هل ترى الفرس الشهباء بالفناء. قال الفلاح: نعم. قال: فكَّها، واركبها، هي لك. فرح الفلاح وعاد إلى قريته ممتطياً صهوة الفرس. حسده جاره. وفي اليوم التالي، حمل

الجار كبشاً سميناً وقصد الأمير. قال له الأمير: ضع الكبش جانباً، بارك الله فيك. وخذ رأس الملفوف هذا هدية مني. بعد انصراف الفلاح سأل الكاتب الأمير عن الفارق بين المكافأتين فقال الأمير: الهدية الأولى كانت عن طيبة وسخاء فكانت المكافأة فرساً، والهدية الثانية كانت عن خبث ودهاء، فكانت الهدية رأس ملفوف.

المْخارق و«مخارق»

سنأخذكم في رحلة من تونس إلى بغداد. ونبدأها في تونس. نبدأ بالمْخارق الباجيَّة المغموسة بالشْحور. فأما المخارق فهي حلوى مثلُ الدو نت، والشحور في تونس هو الشيرة في العراق وهو القَطر في بلاد الشام، هو السكر المذاب. ولماذا سميت مْخارق في تونس؟ لأنها مخروقة مثقوبة.

وعلى ضفاف دجلة كان المغني المشهور «مُخارق» جالساً مع صحبه في يوم بِطالة ولهو. وكان ماهراً في الطبخ، فعمل جزورية، أي ثريداً من لحم الجمل، وعمل طعاماً من شحم السنام والكبد معاً شواه بالنار، وعمل هريسة بشعير مقشور. غنى مخارق لأصحابه صوتاً، فطربوا. وما انتهى حتى سمعوا صراخ امرأة تستغيث. ثم دخلت عليهم حديقتَهم، وقالت: يا أبا المهنّأ أغثني. فهي قد عرفت مخارقاً وعرفت كنيته. قال لها: لبيك يا امرأة! قالت: زوجي. قال: ما باله؟ قالت: سمعك، وحلف علي بالطَّلاقِ ثلاثاً إن لم يسمعك تغني له. فقال لها مخارق: علينا به. فذهبت وعادت مع زوجها. فإذا هو رجل ذو هندام. فجلس وغنى له مخارقٌ حتى طرب وتمايل. ثم شكر وانصرف مع زوجته. ومضى مخارق يغني لأصحابه. وفجأة علا صوت المرأة. وصنعت مثلما صنعت أول مرة. ثم جاءت بزوجها يترنح طرباً، وجلس وغنى له مخارق. قال له: هل رضيت؟ قال: رضيت. وانصرف مع زوجته. وغنى مخارقُ لأصحابه، ومرة ثالثة ارتفع صوت المرأة تصيح وتقول أغثني يا أبا المهنأ، قد حلف بالطلاق ثلاثاً. طبعاً في القصص القديمة يجب أن يتكرر الأمر دائماً

ثلاث مرات. اثنتان لا تكفيان. وجاءت المرأة بزوجها فقعد: وغنى له مخارق صوتاً مطرباً. فتمايل الرجل طرباً. ثم قام إليه مخارق وبطحه أرضاً. وأمر أصحابه أن يوسعوه ضرباً بالمقارع أي العصي. فاجتمعوا عليه، وأخذ يستغيث، وما كَفُّوا عنه حتى حلف بالأيمان المغلظة ألَّا يذكر اسمَ مخارق أبداً.

موت المراوغ

عُمِّر أحمد بن يحيى الشيباني المشهورُ بثعلب ـ رأسُ نحاة الكوفة في زمنه ـ حتى جاوز التسعينَ سنةً، وشهد أحدَ عشرَ خليفةً من خلفاء بني العباس. لُقِّب بثعلب لأنه كان إذا سئل سؤالاً صعباً راوغ. خرج ثعلبٌ من صلاة العصر وبيده كتاب ينظر فيه، وكان قد فقد السمْع أو كاد، فدهمته بغلة فألقته في حفرة، فمات.

الشوكلة

كتب أبو العيناء إلى صديق له: حفظك اللهُ من السوء كله. فشكره الصديق، وسأله: وما هي الشَّوْكَلَة؟ ظنَّ الصديق عبارة «السوء كله» الشوكلة، هذا في زمن كان الناس ما زالوا يهملون فيه التنقيط. وشِبهُ هذا حدث في زمننا. فقد قام مدير المدرسة يقرأ من ورقة وقال: (نشكر محمد سعيد علي حَسَن سَلُّوكَة) والعبارة في الأصل المكتوب (نشكر محمد سعيد على حُسنِ سلوكه).

السميعة علموني

كان الشيخ القارئ مصطفى إسماعيل يحترم سمِّيعته، ولا يصل إلى قمة إبداعه إلا وسْطهم، فإن قرأ في الاستديو لم يعط كل ما عنده. قال مصطفى إسماعيل: بدأت في إحدى التلاوات بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإذا أحدهم يقول: ما نِفْعِتْش، عالية! فأخذت أفتعلُ السعال، وليس هناك سعال، وطلبت فنجان قهوة، فتعجب الناس، وأخذوا يقولون سلامتك. ولا سلامتك ولا حاجة. كنت أحاول أن أتمالك نفسي بعد هذا الدرس القاسي. ثم بدأت

من جديد. فقال ذلك السميع: «صحَّ، ماشي». السميعة هم الذين علموني. هكذا بالحرف تقريباً قال الشيخ مصطفى إسماعيل في لقاء مع المذيع طارق حبيب.

وصف الراديو

لعبد العزيز البشري قطعةٌ طريفة يصِف فيها الراديو على لسان أعرابي رأى الراديو لأول مرة. يقول: حوَّلْتُ بصري فإذا دميةٌ من خشب بُتِرَ ساقاها فأقعدوها على منضدة. لها أنف صغير وأذنان دقيقتان. وما أحسبُها إلا صُنِعتْ على صورة الجن. ثم عرك صاحبها أذنها فاحمرت حدقتها وسمعت لها حسيساً ما لبث أن استحال زمزمة وهمهمة. فجمعت ثوبي للهرب، فجذب صاحبي فضل ردائي، ولو قد أطلقني ما أصبت المهرب فلقد تخاذلت عني ساقاي، وأظلم ما بيني وبين وجه الطريق. وجعلت ألتمس آية الكرسي أستعصمُ بها من هذا الشيطان، فأذهبها الرعب عني. فقال صاحبي: خفِّضْ عليك يا شيخ! قلت: وهذا العفريت؟ قال: لن ينالك منه مكروه فقد قيدوا ساقه، وشدوا وثاقه. قلت: أفيسجُنُ سليمانُ المردة في قماقمَ من نحاس وأنتم لا تبالون أن تسجنوها في جماجمَ من خشب؟ فانثنى إلى الدمية فعرك أذنها ثانية فسرعان ما سكن هديرها وبطل زئيرها، وإذا العفريت يتحدث في لين صوت واطمئنان نبرة. ثم سمعت من هذه الدمية عزيف عود وصوتَ مزمار فشاع فيَّ الطرب بقدر ما تداخلني من العجب.

والبشري في هذه القطعة ينسج على منوال بدوي حضر عرساً وروى لنا صاحب الأغاني طرفاً من حديثه، قال: هجم علينا شياطينُ أربعةٌ أحدهم قد علَّق في عنقه جَعبة مفتحة الطرفين قد شبكت بخيوط، ثم بدر الثاني فاستخرج من كمه هَنَةً فوضعها في فمه ثم حرك أصابعَه عليها فلم أسمع ـ وبيت الله ـ صوتاً متلائم الشكل مثل ذلك الصوت. ثم جاء ثالث معه مرآتان فجعل يصفق إحداهما بالأخرى فخالط بصوته ما يفعله الرجلان. ثم جاء رابع بخشبة في

صدرها خيوطٌ أربعة، فنطقت ورب الكعبة، فطربت حتى استخفني الطرب من مجلسي فوثبت وجلست بين يديه، وقلت له: بأبي أنت وأمي ما هذه الدابة؟ قال البربط. والبربط هو العود.

الأعمش وزوجته والفقيه

هذه نادرة من نوادر العرب لا تفيدك إن عرفتها، لكنها لا تضرك. وقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة، فسأل صاحباً له فقيهاً أن يكلمها في الصلح، وأخذه إلى البيت. قال الفقيه: يا أمةَ الله، إن أبا أحمدَ شيخ كبير جليل، فلا يُزهِدَنَّكِ فيه عَمَشُ عينيه وحُموشةُ ساقيه، وضعفُ ركبتيه، ونَتَنُ إبطيه، وبَخَرُ فيه، وبُخلُهُ وجُمودُ كفَّيْه. فصاح به الأعمش: قم قبحك الله، فقد عرَّفتها من عيوبي ما كان عنها مستوراً.

الضنينُ بعلمه

كان عمرُ الخيامُ فلكياً ماهراً، وكان ضنيناً بعلمه، إذا سئل عن شيء أطال في المقدمات حتى يملَّ السائلُ وينصرفَ دون أن يأخذ فائدة. التقاه الإمام الغزالي فسأله عن مسألة في الفلك، فأخذ الخيام يشرح ويطيل، وما زال كذلك حتى أُذِّن للظهر، فقام الغزالي وانصرف وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل.

يا عمر!

أصل كلمة يا ادَّلعدي: يا ألدَّ العدا. وتعبير (يا عمر) بدأه الرجال وصار من كلام النساء بمصر. ففي العصر الفاطمي، انتقد خطيب سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إرضاءً للحكَّام. كان يسرد حكاية بعد حكاية عن عدل الحاكم الفاطمي وبعد كل حكاية يرفع صوته بالقول: أين أنت من هذا يا عمر؟ ويمدها ويقول يا عومر. والتقطتها النسوة. هذا تفسيرٌ سمعناه.

المؤذن والقاضي

رأى بعضهم مؤذناً يمسك بيديه ورقة ويؤذن منها. قال له: ويحك ألا تحفظ الأذان؟ قال: لقد أمرني القاضي بذلك. فمضى الرجل ودخل على القاضي. قال: السلام عليكم. فأخرج القاضي ورقة من تحت وسادته، ونظر فيها وقال: وعليكم السلام.

المؤذن وحده

سمِع بعضهم مؤذناً في سُحور رمضان يقول: تسحروا قد أمرتكم، وعجلوا في أكلكم، قبل أن أؤذن فيسخِّمَ اللهُ وجوهكم.

طفيلي متفقّه

قال فقيه لطفيلي: أما علمت يا هذا أنك تأكل حراماً إذ تغشى القوم بغير دعوة؟ فقال الطفيلي: بل حلالاً. ذلك أنني أقصد مكان النساء من البيت، فيَصِحنَ بي: ليس من هنا، بل هناك. فهذه دعوة. فأدخل حيث أَشَرْن، وآكل مدعواً غيرَ وارش. قال أحد الأسخياء:

إن الطفيليَّ له حُرمةٌ ... زادت على حُرمةِ نُدْماني
مائدتي للناس منصوبةٌ ... فليأْتِها القاصي مع الداني

القصاصون

أكذب الناس القصاصون، قالوا إن اسم فرعونَ «الوليدَ بنَ مصعب»، وقالوا إن اسمَ كلب أهل الكهف «قِطمير». كان أبو الكَعب القاصّ جالساً في مجلسٍ، وقال للقوم إن الذئب الذي أكل يوسف عليه السلام اسمه «هِملاج»، فقال له أحدهم: ولكنَّ يوسف لم يأكلْه الذئب! فقال أبو الكعب: فهملاج اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

القُبَّرة الذكية

صاد رجل قُبَّرة. فقالت له: ما تريد أن تصنعَ بي؟ فقال: أذبحُك وآكلك. فقالت: والله ما أُشبعك من جوع، جسمي صغير ولحمي هزيل. ولكنني أعلِّمك ثلاث خصال: واحدةً وأنا في يدك، وواحدةً وأنا على الغصن، وثالثةً وأنا في أعلى الشجرة. فقال الرجل للقبرة: هاتي. فقالت: لا تتلهَّف على ما فات. فوضعها الرجل على الغصن القريب، فقالت: لا تصدِّق ما هو مستحيل. وطارت إلى أعلى الشجرة، وقالت للرجل: يا مسكين، لو ذبحتَني لوجدت في حوصَلتي جوهرة وزنُها عشرون مثقالاً. فعض الرجل على إصبعه ندماً، وأخذ يتحسر. ثم قال لها: حسناً فهاتي الخَصلة الثالثة. فقالت له: قلتُ لك لا تتلهف على ما فات، وقد تلهفت، وقلت لك لا تصدق بالمستحيل فصدقت أن في حوصلتي جوهرة وزنها عشرون مثقالاً. وأنا بلحمي وعظمي لا أزن نصف مثقال. لم تفهم الخَصلتين فأنت لا تستحق الثالثة. قالت هذا ثم طارت في الجو.

القُبَّرة الذكية الأخرى

أولم الديكُ وليمة للطيور، فأرسل إلى الثعلب يدعوه. فقالت له الدجاجة: ويحك! دعوتَ الثعلب إلى حفلنا، وسيهجم على أضيافك ولعله يأكلُني ويأكلُك. فاستشار الديك القبَّرة، قال لها: كيف أفعل وقد غلطت هذه الغلطة؟ قالت: أنا أصرفه عنك. فأتت الثعلب وقالت له وهي فوق الغصن: قد دعاك ابنُ عمك الديكُ غداً الإثنين، وقد قَرُب الأُنسُ بحضورك، فأين تحب أن يكون مجلسُك؟ مع الكلاب السَّلوقية، أم الذئاب؟ فجرَعَ الثعلب ريقه، وقال: أبلغي ابنَ عمي الديكَ السلام، وقولي له: أنا شاكر دعوتَه، ولكنني أصومُ الإثنين والخميس، فلا تنتظروني.

القاسم المشترك الأعظم

حل الأعرابي بخيمة رجل له ولدان وبنتان وزوجة. فقُدمت دجاجة. وأحب الرجل أن يكرم ضيفه فقال له: اقسم الدجاجة بيننا. فقطع الأعرابي الرأس

وقدمه للرجل قائلاً: الرأس للرئيس. وقطع الجناحين وقال: الجناحان للولدين. ثم قطع الساقين وقال الساقان للبنتين. وقطع عجز الدجاجة، وقال: العجز للعجوز. وبقي من الدجاجة صدُرها وظهرها وزَوْرُها، فضمها إليه وقال: الزور للزائر. وأكلوا جميعاً. وفي اليوم التالي قال الرجل لزوجته أعِدي لنا خمس دجاجات فوالله ما شبعنا أمس. وقُدِّمت الدجاجات الخمس. فنظر الرجل إلى ضيفه نظرة مكر، وقال: تفضل واقسم الدجاجات. قال الأعرابي: أتريد قسمة شفع أم وَتر. قال الرجل قسمة وَتر. فرمى الأعرابي دجاجة إلى الرجل وزوجته، وقال: أنت وزوجتُك ودجاجة ثلاثة. ورمى دجاجة إلى الولدين وقال: الولدان ودجاجة ثلاثة. ورمى دجاجة إلى البنتين وقال: البنتان ودجاجة ثلاثة. وأخذ الدجاجتين الباقيتين قائلاً: وأنا ودجاجتان ثلاثة. ثم نظر إلى الرجل، وقال له: فهل تفضل قسمة الشفع؟ قال الرجل: نعم. فجمع الإعرابي الدجاجات إليه، وقال للرجل: أنت وابناك ودجاجة أربعة، وقال للمرأة: أنت وابنتاك ودجاجة أربعة. وأخذ الدجاجاتِ الثلاثَ الباقيات وقال: وأنا وثلاثُ دجاجات أربعة. ولم يكد يتمُّ كلامه حتى بدأ يأكل، وهو يحمد الله على النعمة.

الشيخ رتن

حدَّث بعضهم قال: قصدنا الهند في قافلة، وفي بعض القرى رأينا قوماً مجتمعين تحت شجرة عظيمة فانضممنا إليهم. فأنزل القوم بالحبال زِنبيلاً كبيراً من جوف الشجرة، ولما هبط إلى قريب من الأرض شُقَّ القماش ورأينا فيه قطناً، وخرج من بين القطن رأس شيخ عجوز. وبدأ يكلم الناس بالفارسية، فقال له بعضهم: القافلة قدمت من بلاد العرب، فأخذ يكلمنا بالعربية. قال بصوت متهدج: كنت رجلاً قوي البنيان، وخرجت في تجارة إلى بلاد العرب وحللنا بمكة. رأيت بظاهرها صبياً يرعى الغنم وقد جرى السيل فحال بينه وبين غنمه. فحملته وعبرت به السيل، فقال لي: بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك. ثم سافرنا. وبعد سنين

رجعنا إلى مكة، وكنت قد أصبحت كهلاً. جلسنا في الليل ونظرنا إلى السماء، فرأينا القمر ينشق نصفين: نصفاً شرَّق شرقاً، ونصفاً غرَّب غرباً. فتعجبنا، وسألنا الناس. فقالوا: في مكة رجل يدعي أنه نبي. فمضيت إليه، فرأيت رجلاً ينبعث النور من وجهه، فقربني وأطعمني ست تمَرات من يده، وقال لي: أما عرفتني؟ أنا ذلك الفتى الذي عبرتَ به السيل. ثم إنني أسلمت على يده. فدعا لي مرة أخرى: بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك. فتم هذا الدعاء ست مرات. وقد بلغت الآن ستَّمئةِ سنةٍ من عمري». قال الشيخ ما قال وغاص في القطن، فسحبوا الحبال فارتفع الزنبيل واختفى بين الأغصان. اسمه الشيخ رَتَن التوَّاب. وقد سماه بعض الأتقياء الشيخَ وَثَن الكذاب.

بئست الصحبة

فارق القرد العجوز قومه، وسكن فوق شجرة تين على ضفة النهر. وكان يأكل التين. وحدث أن سقطت منه تينة في الماء فأصدرت صوتاً طرب له. فصار يأكل تينة، ويرمي تينة في الماء. وكان يعيش في ذلك النهر غيلم. والغيلم هو سُلَحْفاة الماء الضخمة. ظن الغيلم أن القرد يرمي التين له، فأحبه وصادقه. وصار الغيلم يقضي طول النهار مع صديقه القرد. ولا يعود إلى بيته في الجزيرة إلا في آخر الليل. وغضبت زوجته من سلوكه وفكرت في حيلة، فتمارضت. قالت له: أنا مريضة وقال لي الطبيب إن شفائي لا يكون إلا بأن آكل قلب قرد. فقال الغيلم: أبشِري. وانطلق إلى صديقه القرد، وقال له: تعال معي إلى بيتي كي أكرمَك كما تكرمني. ركب القرد ظهر الغيلم ومضيا على صفحة النهر. وفي وسَط الطريق حدثه الغيلم بمرض زوجته، وبأن علاجها يكون بأكل قلب قرد. فقال له القرد: يا صاحبي ألم تعرف أننا ـ معشرَ القرود ـ نترك قلوبنا في بيوتنا عندما نسافر. هيا عد بي لأحضر قلبي. فعاد به الغيلم، فقفز القرد واعتلى شجرته، وقال للغيلم: غدار، وأحمق أيضاً!

الحطاب الطماع

كان الزاهد يسير في البر متكئاً على عصاه، فمر به رجل يسوق أربعة بغال محملةٍ حطباً. فرافق الزاهد وكلمه، وشكا فقره، وقال: أتمنى أن تكون حمولة هذه البغال ذهباً وفضة. قال له الزاهد: هذا ممكن، إن غاب عنك الطمع في المزيد، فإنَّا رأينا الرجل ينال مبتغاه فيطمع فيما وراء ذلك. قال الرجل: أقسمت ألا أطمع، فكيف تحقيق هذا؟ فقال له الزاهد: هيا نصعد هذه التلة. فصعِدا التلة مع البغال، وعند سفحها انفتح لهما باب كهف. قال الزاهد للرجل: هيا ادخل واحمل ما تريد من ذهب وفضة. فلمح الحطاب بريقاً ينبعث من الكهف فدخل، فإذا صناديق الذهب والفضة، فرمى الحطب عن بغاله، وأخذ من الذهب والفضة ما استطاع، والزاهد يساعده. وكان في ركن الكهف علبةٌ صغيرة من خشب أخذها الزاهد. وخرجا من الكهف، فإذا الكهف قد انسد بصخرة، كأنه لم يكن. قال الزاهد: الآن نقتسم. لك بغلان بما يحملان، ولي بغلان بما يحملان. رضي الحطاب. ومضيا في طريقهما. قال الحطاب للزاهد: أنت زاهد ولا تحتاج إلى كل هذا المال، فأعطني بغلاً من بغليك. قال الزاهد: تفضل، خذ. ثم فكر الحطاب مرة أخرى، وقال للزاهد: وهل تحتاج إلى بغل عليه حمولة من الذهب والفضة؟ أعطني بغلك الآخر. قال الزاهد: تفضل. ثم افترقا ومضى كل منهما في طريق. وفكر الحطاب في تلك العلبةِ الصغيرة التي أخذها الزاهد من الكهف. فلحق بالزاهد واستوقفه، وقال له: وما شأن تلك العلبة؟ قال الزاهد: اسمها علبة الطمع، فلا تطمع بها. ليس فيها سوى مكحلة، ولا حاجة لك بها. فكر الحطاب قليلاً، ثم لوى ذراع الزاهد وأخذ العلبة، وألقى الزاهد أرضاً ووضع قدمه على عنقه. فتح العلبة فإذا بها مكحُلةٌ حقاً. فكحل عينه اليمنى بها، فإذا هو يرى بعينه اليمنى كهوفاً انفتحت أمامه وفيها صناديقُ ملأى بالجواهر واللآلئ، فطمع فكحل عينه اليسرى، فعمِيَ وأخذ يدور حول نفسه ويصرخ. وتحسس بغاله فوجد عليها حمولةً من الحطب. وصاح بالزاهد يستنجده، فلم يسمع جواباً.

زيت الزيتون

كان كريم النفس، ربته أسرة كريمة، فنشأ على السخاء. رأى صاحبنا في السوق امرأةً شاب شعرها تقعد القرفُصاء، وقد فرشت أمامها منديلاً. فوقف ووضع يده في جيبه يلتمس درهماً. فرآها غضت بصرها. فأخذ حَفنة دراهم ووضعها في المنديل، فرأى الدمع يترقرق في عيني العجوز، ولم تنطق بحرف. فتعجب، وقال في نفسه ما هذه بمتسولة كالمتسولين. قال لها: ما رأيتك هنا قبل اليوم! فصمتت. قال لها: هيا معي. أخذها إلى بيته كي تعيش معه ومع زوجته. وحتى لا يدخل في محظور، عقد عليها وتزوجها. وفي تلك الليلة حلم حلماً غريباً. وفي الصباح بكَّر إلى شيخ صالح، وقص عليه حلمه. قال: رأيتُني أسقي زيتونة من جرة، وإذا الذي يسيل من الجرة زيتُ زيتون لا ماء! قال له الحكيم: أمتزوج أنت؟ قال: نعم. قال: زوجةً مسنة؟ قال: بل شابة، واستدرك وقال: وتزوجت مسنة أيضاً. قال الحكيم: زواجك باطل. تسقي الزيتونة بزيت الزيتون! إنها أمك يا فتى. واستخبر الفتى فإذا هي أمه.

الكسول

كانت زوجته تغزل على نولها، ويخرج ويبيع ما تغزل. خرج يوماً إلى السوق وباغ غزْل زوجتِه بدرهمين. وأراد أن يشتريَ طعاماً، فإذا رجلان يقتتلان وقد أمسك كل منهما بتلابيب الآخر. فقال لهما: فيمَ خصامُكما؟ قالا: في درهمين. فأعطاهما الدرهمين وحلّ المشكلة. وعاد إلى البيت، فأعطته زوجته ثوباً لها عتيقاً ليبيعه في السوق ويشتريَ طعاماً. فخرج الرجل بالثوب العتيق، وقد هبط المساء. رأى رجلاً معه سمكةٌ كان اصطادها في الصباح وكسدت وفسدت. قال لصاحب السمكة: معك سمكة كاسدة، ومعي ثوب كاسد، فهلمّ نتبادل. وتبادلا. وعاد المعلم إلى بيته بالسمكة الفاسدة. فتحت زوجته السمكة، فوجدت بداخلها لؤلؤة كأنها بيضة حمامة. وعندما طلع الصبح حملها المعلم إلى السوق. عرضها على صائغ أمين فقال له ليس معي من المال ما أشتري

به هذه اللؤلؤة. ودلَّه على صائغ آخر اشترى اللؤلؤة بعشرين ألف درهم. وضع الرجل كلّ عشَرة آلاف درهم في كيس، واكترى عربة ومضى بالأكياس إلى بيته. وعلى مقربة من البيت رأى بائع السمك. قال له بائع السمك: أراك تحمل شيئاً: أليس لي منه نصيب؟ تناول المعلم كيساً وناول بائع السمك. وقال له: بارك الله لك، هذا نصيبك. ومضى إلى بيته. وما كاد يصل إلى باب البيت حتى وجد بائع السمك خلفه يمسكه من كتفه. أعطاه بائع السمك الكيس، وقال له: هذا المالُ كلُّه لك. ألست قد بذلت كل ما تملك أمس لفض شجارٍ بين رجلين؟ ووسط دهشة الرجل اختفى بائع السمك فجأة.

جرس وجرس

رأيت أكبر جرس في العالم، رأيته قبل نحو ثلاثين عاماً قرب سور الكرملين في موسكو. هو جرس جاثم على الأرض، ولم يرنَّ رنة واحدة في حياته. عندما انتهوا من صنعه أخذوا يحتالون للعثور على طريقة لتعليقه في أعلى البرج فجاءوا بخشب كثير. ثم شب حريق في الخشب، وجاء أحدهم بدلو ماء فسكبه على الجرس المتوهج فانشطر. وزن الجرس مئتا طن وستة عشر طناً من البرونز. وهذه قصة جرس آخر.

وجد الفئران جرساً صغيراً في ناحية البيت، واهتدوا إلى فكرة عبقرية للتخلص من شر القط. قالوا نعلق في عنقه الجرس، فكلما تحرك عرفنا مكانه فاختبأنا منه. قال كبير الفئران: الفكرة عظيمة، ولكن، مَن يعلق الجرس؟ وأصبحت العبارة مثلاً، فكلما خرج علينا أحدهم بفكرة ممتازة، ولكنها تحتاج إلى تضحية كبيرة، قلنا له: من يعلق الجرس؟

المتجوِّل المتحوِّل

كان الرجل سائراً في الصحراء فوجد بئراً ففرح أشدَّ الفرح ونزل فيها يستقي، فإذا صوت يصرخ به: مَهْ! فخاف وصعِد. فنزل أخرى فسمع الصوت

فخاف ورجع. وفي المرة الثالثة لم يأبه للصوت فنزل وشرب وملأ قربته، فسمع الهاتف يهتف به: إن كنتَ رجلاً فلتصبحِ امرأة، وإن كنتِ امرأة فلتصبحي رجلاً. وخرج الرجل من البئر، فإذا هو امرأة. مضت هذه المرأة ودخلت قرية، وعاشت غريبة فتزوجَها رجل من القرية، وأنجبت طفلين. وأرادت العودة إلى بلدِها اشتياقاً، فمرت بالبئر، فنزلت تشربُ فسمعت الهاتف يهتف بها. فلم تأبه له وشربت. فقال الهاتف: إن كنتَ رجلاً فلتصبحِ امرأة، وإن كنتِ امرأةً فلتصبحي رجلاً. وخرجت من البئر فإذا هي تعود رجلاً. وذهب صاحبنا إلى بلدته فاستقبله الناس بحفاوة. وتزوج وأنجب طفلين. وقال لصحبه يوماً: أتعلمون! لقد أنجبت طفلين من بطني وطفلين من صلبي. وحلف لهم، وكالعادة صدَّقوه.

قصة الإسفيذباج

هذه قصةُ طباخٍ كان في بلاط ملكٍ من ملوك الفرس. جاءَ الطباخُ للملك بقصعة فيها إسفيذباج، وهو لحم يُطبخ مع مرق فيه الحِمِّصُ والبصل والكُسفَرة ومستحلَبُ اللوز. والوصفة غير مهمة ولا علاقة لها بالقصة. المهمّ، أن الطباخ سكبَ قَطْرةً من المرقِ على ثوب الملك. فصاح الملك بغضب: خذوه فاقتلوه! فما كان من الطباخ إلا أن صبَّ القصعة كلَّها على ثياب الملك. فبُهت الملك. قال له الطباخ: الآن لن يلومَك أحدٌ على قتلي. فأما لو كنتَ قتلتني بسبب قطرة مرق فسوف يصفُك الناسُ بالظلم. وحاشا لك يا مولاي أن تكون ظالماً! فسكت الغضب عن الملك، وقال: ما أعجب ما صنعت، وبه قد نجوت.

أمنية صعبة

رأى المؤمَّل بن أميَل المحاربي الشاعر في الحِيرة امرأة بديعة الحسن رائعة الجمال، فقال:

شَفَّ المؤَمِّلَ يومَ الحيرةِ النَّظَرُ ليت المؤَمِّلَ لم يُخْلَقْ له بَصَرُ
صِفْ لِلأحبَّةِ ما لاقيتَ مِن سَهَرٍ إن الأحبَّةَ لا يدرون ما السَهَرُ
أمسيتِ أحسَنَ خلقِ اللهِ كلِهِمُ فخبِّرينا أَشمسٌ أنتِ أم قَمَرُ

وحدَّث الناسُ بعد المؤمل قالوا: نام المؤمل بعد قوله (ليت المؤملَ لم يُخلق له بصر)، وحلم برجل يُدخِلُ إصبعينِ في عينيه. فصحا من نومه أعمى.
قال الشاعر:

احذر لسانَك أن تقول فتُبتَلى إن البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمنطقِ

الملوَّن

كتب طفلٌ من جنوب إفريقيا - ممن يسمُّونهم الملوَّنين، وأصولهم تعود إلى الهند - قصيدة قصيرة: وُلِدْتُ أسوَدَ، وعندما أغضب فأنا أسودُ،

وعندما أسبح فأنا أسودُ، وأموتُ وأنا أسود.
وطفلُكم يولدورديَّ اللون، وعندما يكبُرُ فهو أبيض،
فإذا غضبَ أصبح أزرقَ، فإذا سَبَح صار أحمر،
وتقولون إنني أنا المُلَوَّن!

البياتي عندما تواضع

أرسل الشاعر العراقي عبد الوهاب البيَّاتي قصيدة إلى مجلة «الرسالة» وكانت أهم مجلة أدبية في زمنها، وتصل إلى كل مكان في العالم العربي. اسم القصيدة (أنشودة منتحر). ونشرها له صاحب المجلة أحمد حسن الزيات. فأخذ الناس يهنئون البياتي الطالبَ في دار المعلمين، وحدثت رجَّة في الوسط الأدبي ببغداد. وتحمس البياتي فأرسل قصيدة ثانية. فكتب له الزيات رسالة قال فيها: إياك والسرعة، لأن أمامك طريقاً طويلاً جداً، ونشرنا لك كي تبدأ

بالمسير في هذا الطريق، وسننشر القصيدة الثانية، لكن، انتظر بعدها، ولا تكتب إلينا إلا بعد سنة أخرى. ويعلق البياتي: تقبلت نصيحة الأستاذ الزيات، لأنني شعرت أنها نصيحة إنسان كبير، لا يريد لشاب في مقتبل العمر أن يصاب بالغرور.

أمسلمٌ هذا؟

حضر أبو الطيب المتنبي مجلساً فيه النحْوي أبو علي الآمدي. وأنشد المتنبي قصيدته التي فيها البيت:

إنــمــا الــتــهــنــئــاتُ لــلأكــفــاءِ ولــمــن يَــدَّنــي مِــن الــبُــعَــداءِ

فاعترض النحوي قائلاً: التهنئة مصدر، فكيف تجمع المصدر؟ فالتفت أبو الطيب المتنبي إلى مَن بجواره وقال له: أمسلم هذا؟ قيل له: مسلم؟ فقال المتنبي للنحوي: ألا تقرأ «التحيات» لله والصلوات الطيبات؟

حق الضيافة

كان الشاعر اللبَّادي خارجاً من أذربيجان على مهر فاره، فرأى في الطريق شاباً يركب حماراً، فترافقا. وكانت السنة مجدبة. ونزلا بخان، وطلبا من صاحب الخان طعاماً فما أعطاهما سوى رغيفين لم يكن عنده سواهما. وطلب اللبادي شعيراً لمهره فقال له صاحب الخان: ما يوجد في القرية أحد عنده شعير. فألحَّ الشاعر وجعل لصاحب الخان جُعلاً إن هو جاءه بشعير، فمضى صاحب الخان يسأل، وعاد وقال: هذا مَكُّوكُ شعير لم يرض صاحبُه فيه أقلَّ من خمسين درهماً. وبعد طول كلام نقده الشاعر خمسين درهماً، وعلق كيس الشعير في عنق مهره، وقعد مع الشاب صاحبِ الحمار يقضيان الليل بالأحاديث. قال الشاب أتسمعُ مني أبياتاً حضرتني، قال: قل. فأنشد الشاب:

آنستَني وسَررْتني وبَررْتني		وجعلتَ أمري في مُقَدَّمِ أمرِكا
أنا في ضِيافتِكَ العشيةَ ههُنا		فاجعلْ حِماري في ضيافةِ مُهْرِكا

فتنبَّه اللبادي إلى تقصيره، وابتاع مكوك شعير آخرَ لحمار رفيقه.

رحلة كِتاب

كانت عند أبي الحسن الغالي نسخةٌ ثمينة في غاية الجودة من كتاب الجَمْهَرة لابن دريد، وافتقر الرجل وباعها، فاشتراها الشريف المرتضى من الوراق بستين ديناراً. وعندما تصفحها وجد في ذيلها أبياتاً بخط أبي الحسن يتحدث عن هذه النسخة:

أَنِسْتُ بها عشرينَ حَوْلاً وبِعتُها		فقد طال وَجدي بعدَها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعُها		ولو خلَّدتْني في السجون ديوني
ولكنْ لِضعفٍ وافتقارٍ وصِبيةٍ		صغارٍ عليهِمْ تَستَهِلُّ شُؤوني

فطوى الشريف المرتضى الكتاب، ورده على أبي الحسن ومعه أربعون ديناراً.

التحليق

كانت لميعة عباس شاعرة فاتنة. عرض عليها عمر أبو ريشة لِفافة، فقالت لا أدخن، وكأساً فقالت لا أشرب. قال أترقصين؟ قالت لا أرقص. فقال لها: فلماذا تعيشين؟ فكتبت إليه قصيدة:

تدخنين؟ لا. أتشربين؟ لا. أترقصين؟ لا
أنا التي تَراني
كلُّ عطورِ الشرقِ في أرداني
فما الذي يَشُدُّ رِجليكَ إلى مكاني

يا سيدي الخبيرَ بالنسوانِ

إن عطاءَ اليومِ شيءٌ ثانِ

حَلِّقْ! فلو طأطأتَ لا تراني

ممنوع الدخول

يقصُّ الأديب الفلسطيني علي الخليلي علينا في سيرته الذاتية (بيت النار) أن أمه كانت تصحبه طفلاً إلى الحمام في اليوم المخصص للنساء. وذات مرة لمس جسم امرأة من المستحمات فصرخت المرأة بأمه: يا فلانة! ابنك كبر فلا يأتِ إلى الحمام بعد اليوم.

التهاني

روى سلام الراسي حكاية عن بلدةِ القَعْقَعِيَّة التي تقع على نهر الليطاني في جنوب لبنان. جاءت إخبارية إلى مخفر النبَطِيَّة يوماً بأن أحدهم نقش على خشب جسر القعقعية كلاماً فيه تحريض على الحكومة، فتوجه رئيس المخفر إلى الجسر الذي يصل بين ضفتي الليطاني. ووجد بيتين من الزجل محفورين على خشب الجسر:

نهر الليطاني بذاتو   يروي البحر بميَّاته

ونحنا حدو عطشانين   وأشجار الكانوا ماتوا

وبدأت التحريات لمعرفة الجاني، وتضخم المِلف. ووصل التقرير أخيراً إلى وزير الداخلية. رأى الوزير في ذيل التقرير عبارة (التحريات جارية لمعرفة الجاني). فكتب تحتها: (وإن حظيتم بالجاني، قدموا إليه التهاني). وأُقفل المِلف.

خرافة الفالوذج

كان عبدُ الله شيخاً متوكلاً على الله. سافر مع جماعة من الناس، وجرى بينهم حديث عن التوكُّل وعن ترك الأمور لله يدبرها. فاستخفَّ بعض القوم بالأمر. فحلف عبد الله على نفسه يميناً مغلَّظةً، قال: والله لا آكلُ شيئاً حتى يبعث لي اللهُ طبقاً من الفالوذج حاراً. ووالله لا آكلُ منه حتى أُجبَر على أكله إجباراً. فخاف القوم على هذا الشيخ من قَسَمه. ومضوا في سيرهم يومين وهو لا يأكل شيئاً، وما فتئوا يلحون عليه أن يأكل، حتى وصلوا بلدة فنزلوا في جامعها يستريحون من وعثاء السفر ويبيتون ليلتهم. وعبدُ الله جائع لم يأكل شيئاً. حل المساء فضعف جسمه وسقط إعياءً، وهم يلحّون عليه أن يأكل خبزةً أو تمرة فيقول: حلفت ألا آكل إلا من طبق فالوذج حار، ولا آكله إلا إذا أجبرت على أكله. ـ والفالوذج دقيق يطبخ بالعسل والسمن، وهو أكل فاخر من مآكل ذلك الزمن، ولكنه صار في زمننا طحيناً وسكَّراً وماء، وصار اسمه البالوظة فانحطت رتبته مع انحطاط اسمه ـ. المهم، في ذلك المساء وبعد أن هبط الليل إذا جاريةٌ على باب الجامع وبين يديها طبق كبير مغطى، فكشفته فإذا بخارٌ يصعد منه. وإذا هو فالوذَجٌ حارٌّ بالعسل، فكبّر القوم. وقال الشيخ: لا آكل. فصاروا يحلفون عليه. وهو لا يجيبهم. ثم وضعت الجارية طبق الفالوذج على مِصطبة عند باب الجامع، وقالت: تفضلوا وكلوا. قالوا لا نأكل أو يأكلَ هذا الشيخ. تقدمت الجارية من الشيخ، وصفعته صفعة كادت تذهب بعينه، ثم صفعته أخرى وأخرى. فتجمع عليها القوم ومنعوه منها. فقال الشيخ الصوفي: الآن آكل الفالوذج. وأكل، وأكل معه القوم حتى شبعوا. وقبل أن تنصرف الفتاة بالطبق الفارغ. سألوها: وما أدراك بمكاننا؟ فقالت لهم: لقد طلب سيدي من سيدتي أن تصنع له فالوذجاً. فتأخرت، وجاع سيدي فغضب، وحلف ألا يأكل من الفالوذج. ثم ازداد به الغضب وحلف على سيدتي بالطلاق ثلاثاً ألا يأكل هذا الفالوذج إلا قومٌ غرباء. يأكلونه وهو حار، فإذا برد فهي طالق. وقد جئت إليكم وعرفت بخبركم من أهل البلد. ولما رأيت الشيخ

عاندني وامتنع من الأكل غضبت لأن الفالوذج سيبرد وستطلق سيدتي بسبب عناده، فصفعته كما رأيتم. فكبّر القوم وقالوا: الآن نشهد أن من يتوكل على الله فهو حسبه.

البغدادي والمصري

ورث ابنُ سِمسِمةَ البغدادي عن أبيه مالاً جليلاً، ولكنه أسرع فيه وأتلفه حتى صار يبيعُ أبواب داره ليشتريَ ما يقوتُ عيالَه. نام يوماً، وجاءه في المنام هاتف يقول: غناك بمصر فاخرج إليها. ولما كانت حالُه عدماً ولم يبق له ما يخسرُه، شد الرحال إلى مصر. وصل مصر وقد نفد زاده، فباع ناقته وانتفع بثمنها، ثم افتقر وصار ينام في الجامع. وذات ليلة أنهكه الجوع فخرج هائماً على وجهه في الأزقة. فلا هو قادرٌ على تحصيل شيء يأكله، ولا نفسُه تطاوعه أن يسأل الناس. وبينما هو سائر إذا بالطائف ـ وهو حارس الليل ـ يمسك بتلابيبه، ويطرحُه أرضاً. رفع الحارس المِقرعة يريد أن يوسعَه ضرباً لأنه ظنه لصاً يترصّد للسّرقة. فصاح به ابنُ سمسمةَ: رويدك حتى أخبرك بحالي. فجلس الحارس على صدره مهدداً وقال له: تكلم. فأخبره بقصته. وكيف أنه رأى في منامه ببغداد هاتفاً يقول له: غناك بمصر. فهز الحارس رأسه. وقام عن ابن سمسمة. وأصلح له من هندامه. وقال له: وكيف تصدق يا جاهل هاتفاً يأتيك في المنام؟ أما والله إني لأعقل منك. أمس فقط حلَمت برجل يقول لي: يا هذا اذهب إلى بغداد وخذ الكَنز منها. ليس هذا فحسب، بل إن الهاتف قال لي: الكَنز موجود تحت شجرة سدرٍ كبيرة في محلة القهرمان. ولكنني لست جاهلاً مثلَك حتى أصدق هذا المنام. عندما سمع ابنُ سمسمة كلام الحارس وَجَم ولم يقل حرفاً. فإن دارَه هو موجودة بمحلة القهرمان ببغداد. وفي وسَط فناء داره شجرةُ سدر عظيمةٌ، ليس في الحيِّ كله سواها. في اليوم التالي شد ابن سمسمة رحاله إلى بغداد. وفي فناء داره حفر حول شجرة السدر عميقاً، وبين الجذور وجد جرة مليئة بالدنانير الذهب ومعها رقعة فيها: يا بُنَيَّ هذا مال دفنته، ودعوت اللهَ ألا يكشفَه لغيرِك. وهكذا

عرف ابن سمسمة أن غناه كان تحت قدميه في بغداد، ولكن لا سبيل إلى الوصول إليه إلا من مصر.

سارق السمكة

ابتسم الحظ للصياد فاصطاد سمكة عظيمة، حملها بين ذراعيه وأسرع بها إلى السوق. وفي طريقه صادفه رجل عريض المنكبين ضخم الجثة، رأى السمكة فأعجبته. فهجم على الصياد وانتزعها منه ومضى بها. وكان في السمكة بقية من رمق، فعضت إبهام السارق وأوجعته. وظل الألم يزيد حتى ذهب السارق إلى الطبيب شاكياً. فقال له إن إبهامه أصيب بالإكْلة أي الغنغرين ولا بد من قطعه. وقطعه. ومر يوم فإذا كف الرجل الذي سرق السمكة قد تورَّمت وازرقَّت، فذهب إلى الطبيب، فكان لا بد من قطع الكفّ. وبعد يوم أو يومين انتشرت العلة في الذراع. فقال الطبيب للرجل: لا بدَّ أنك ارتكبت جرماً، فإنني لم أفهم انتشار الإكْلة في ذراعك بهذه السرعة. فأقر الرجل بما فعل، ولكن كان لا بد من قطع ذراعه من الكتف. قال له الطبيب: أرى أنك تحسن صنعاً إن طلبت العفو ممن أذنبت بحقه. فمضى الرجل على وجهه يلتمس ذلك الصياد حتى وجده عند الشاطئ. فمضى يطلب منه السماح باكياً، فسامحه الصياد. قال له الرجل: لا بدَّ أنك دعوت عليّ حين سرقت السمكة منك؟ قال الرجل: قد فعلت وقلت: يا رب قد استقوى عليَّ هذا الرجل بما منحته من قوة في البدن، فأرِني فيه قوَّتَك. وعاش سارق السمكة بعدها بغير علَّة وبغير ذراع، وظل عبرة لمن يعتبر.

لا تَظلمنَّ إذا ما كنت مقتدراً فالظلم مرتعُه يفضي إلى الندمِ
تنام عينُك والمظلومُ منتبِهٌ يدعو عليك، وعينُ الله لم تنمِ

عاصفة في البحر

بدأت السفينة الشراعية تتأرجح والرياح تعصف، وأخذ الموج يعلو. وتمزقَ أحدُ الأشرعة، وشعر الركاب بالخطر، وأخذوا يرتجفون. ولكن أبا الفتح الإسكندري ـ وهو بطل مقامات الهمذاني ـ كان جالساً بهدوء يبتسم. قالوا له: ألا ترى ما نحن فيه؟ فقال لهم: بلى؛ غير أن معي خَرزاتٍ تحميني من أي مكروه. فتوسلوا إليه أن يعطيَهم منها. فنثر أبو الفتح مِسبحته داخل جيبه، وقال لهم: كلُّ خرزة بدينار. فنقده كل راكب ديناراً. ونجت السفينة، ونزلوا إلى البر. وهناك سألوه عن سر الخرزات. فقال لهم: يا مجانين! لو غرقنا فلا أحدَ سيحاسبني. وها قد نجونا جميعاً فالحمد لله على سلامتكم. أمّا أنا، فنجوتُ وفي جيبي دنانير كثيرة.

وفاء الزوجة

كان التاجر يحب زوجته ويخشى إن هو مات أن تتزوج بعده. وذات يوم كان يتمشى بجانب المقبرة فرأى امرأة تجلس بجانب قبر، فاقترب منها. رآها تحمل مروحة وتهش بها على القبر لا على وجهها. قال لها: ماذا تفعلين؟ قالت: عاهدت زوجي قبل وفاته ألا أتزوج من بعده حتى يجفَّ ترابُ قبره، وها أنا أروحه بمروحتي حتى يجف بسرعة، فهناك عريس ينتظرني. ذهب التاجر إلى بيته مغموماً، وقص القصة على زوجته، فعاهدته ألا تتزوج بعده أبداً. وبعد مدة دب الصراخ في البيت وأسرع الخادم وهو يلهث وينادي الزوجة، فوجدت زوجها مسجى بلا حَراك. فبكت وولولت، وجاء إلى البيت عدد من أصحاب الزوج للعزاء والقيام بواجب الدفن. كان بينهم شاب وسيم الطلعة وضيء الوجه، اقترب من السيدة وأخذ يواسيها، وقال لها: ليتني أستطيع أن أواسيك بالزواج منك، ولكنَّ بي علةً أعجزت الأطباء. سألته المرأة بلهفة: وما علتك؟ قال: أحس بوهن لا علاج له إلا أن أبتلع عين رجل مات لتوه. ففكرت المرأة قليلاً، ثم أخذت سكيناً، ودخلت إلى حجرة زوجها المسجى،

رفعت يدها بالسكين، فهب زوجها وأمسك بيدها. كان قد ادعى أنه ميت ورتب تلك المسرحية كلها مع صديقه الشاب. قال لها: تلك ذاتُ المِروحة، وأنت ذاتُ السكين. فماتت المرأة من هول الصدمة. وبالطبع تزوج الرجل بعد أيام.

قصة الحياة والموت

قصد الفتى حكيماً وقص عليه حلماً رآه في ليلته. قال: رأيتُني في غابة أجري هارباً وورائي أسد. خرجت من الغابة وظل يعدو خلفي، وأخذ يقترب مني. فرأيت أمامي بئراً فاعتليت الدلو وهبط بي إلى منتصف البئر فتنفست الصعداء. ونظرت إلى الأسفل فوجدت البئر ناضبة ليس بها ماء، وفي قعرها ثعبان ضخم يشرئب برأسه، فتمسكت بالدلو، ونظرت إلى الأعلى فوجدت فأرين في أعلى البئر يقرضان الحبل: فأراً أبيض وفأراً أسود، فتملكني الخوف. ثم وجدت على جدار البئر بقية خلية نحل مهجورة والعسل ينز منها. فأخذت ألحس من العسل بسرور، فقد كنت جائعاً. قال له الحكيم: ثم ماذا؟ قال الفتى ثم استيقظت وهُرعت إليك. فهل عندك تعبير لمنامي؟ قال الحكيم: الأسد ملك الموت فهو يلاحقك. والبئر القبر، والثعبان العذاب. والفأران الأبيض والأسود هما النهار والليل يقضمان حياتك، وما حياتك إلا نهاراتٍ ولياليَ. وأما العسل فهو متع هذه الحياة تتلهى بها حتى ينقطع بك الحبل وينفد العمر. قال له الفتى: ليتني بقيت على الكابوس الأصلي وما جئتك. هذه الأخيرة زيادة من عندي.

الديك والغراب

جاء أعرابي إلى الأصمعي يتحداه في مجلسه، قال له: أأنت العالم بكلام العرب؟ قال الأصمعي: كذا يزعمون. فقال له الأعرابي فما معنى قولِ الأول:

وما ذاك إلا الديكُ شاربُ خمرةٍ ... نديمُ الغراب لا يَمَلُّ الحوانيا
فلما استقلَّ الصبحُ نادى بصوته ... ألا يا غرابُ هل رَدَدْتَ رِدائيا

فشرح الأصمعي للسامعين: الديك والغراب يتنادمان ويشربان الخمر ولا يملان من الحواني أي الحانات. وعند الصباح صاح الديك بالغراب أعِد إلي ثوبي. ثم قال الأصمعي للأعرابي: اسمع يا أخا العرب، كان الديك في الزمن القديم يملك جناحين يطير بهما ويحلق في السماء، وكان الغراب لا يستطيع الطيران. وشربا الخمر معاً حتى فرغت القارورة عند الفجر. فقال الغراب للديك: أعرني جناحيك حتى أطير وأجلبَ قارورة خمر. فأعاره الديك جناحيه، فطار الغراب بهما ولم يعد. وظل الديك حتى زمننا يصيح عند الفجر ويقول للغراب: أعِد إليَّ جناحيّ. قال الأعرابي: يا أصمعي ما أنت إلا شيطان.

ملائكة على رأس الإبرة

يتجادل القوم في الأطباق الفضائية، ويحلف بعضهم أنه رآها. ويقول لك صاحبك إن العلماء سيرسلون مركَبة إلى كوكب بلوتو. وهو يعرف، أو لا يعرف، أن بلوتو أبعدُ من القمر بثلاثة عشر ألفَ مرة. وتجادله بالتي هي أحسن، ويجادلك بالتي هي أسوأ. نسمي هذا: الجدلَ البيزنطي. وبيزنطة هي إستانبول. عندما كان محمدُ الفاتح يحاصرها كان بعض رهبانها يتجادلون في مسألة لاهوتية عجيبة. والسؤال المطروح: كم مَلَكاً من الملائكة يمكن أن يقفوا على رأس الإبرة. وسقطت بيزنطة، وأصبح اسمها إستانبول، وظل الجدل قائماً. لم يصلنا جواب بشأن عدد الملائكة الذين يمكن أن يقفوا على رأس الإبرة. وفي عام ١٩٧٥ عثروا على نص قديم فيه الجواب: ألف من الملائكة. فهدأ بالنا. تخيلوا كيف كانت تكون حالنا لو بقي هذا السؤال عالقاً بلا جواب.

فضيلة الأعسر

حكى الجاحظ عن رجلين كان أحدُهما أيمنَ والآخر أعسر. فكان الأيمن يفخر على الأعسر. وأُخذ الرجلان في سرِقة اقترفاها. فقُطعت يمين كلٍّ منهما. فكان الأعسر يعمل بيساره أعمالَه كلَّها، والأيمنُ لا يستطيع أن يعمل بيسارِه، ففخر الأعسر عليه بذلك، فقال الأيمن: ما علمتُ أن للأعسر فضيلة إلا أن يَسرقَ فيؤخَذَ فتُقطَعَ يمينُه.

العناق الأخير

روى الجاحظ أنه حضر مجلساً لمحمدِ بنِ إسحقَ الموصلي على شاطئ دجلة. وقد رُفِع سرادق يطل من جهته على النهر، وأسدل سِتر ومن ورائه جاريتان تغنيان. غنت الأولى:

كـلَّ يـوم قـطـيعـةٌ وعـتـابُ ... ينقضي دهرنا ونحن غِضابُ
ليت شعري أنا خُصِصتُ بهذا ... دون غيري أم هكذا الأحبابُ

ثم سكتت فغنت الأخرى:

وارحـمـتـا لـلـعـاشـقـينْ ... مـا إن يُـرى لـهـم مُـعـينْ
فـإلـى مـتـى هـم يُـبـعـدونَ ... ويُـطـردون ويُـهـجـرونْ
ويُـعـذَّبـون مـن الأحـبـة ... بـالـجـفـاء ويَـصـنـعـونْ

وكأنما تحشرج صوت المغنية فلم تكمل الشعر، فسكتت، فقالت لها صاحبتها وهي تتضاحك: ويلكِ يصنعون ماذا؟ فما كان من المغنية إلا أن ضربت بيدها الستر فهتكته، وبرزت للقوم فإذا هي كالقمر المنير، وقالت: يصنعون هكذا، ورمت نفسها في دجلة. وكان يقف على رأس الموصلي شاب رومي بديع الجمال وبيده مِروحة، فألقاها من يده، ورمى نفسه في دجلة، وهو يتم الشعر بالبيت:

لا خيــر بــعــدكِ فــي الــبقــا   والــمــوت سَــتْــرُ الــعــاشــقــيــنْ

وأطل القوم فرأوهما يتعانقان في الماء، ويغوصان. فطرح الملاحون شباكهم فلم يقدروا على إخراجهما. ثم طرحتهما دجلةُ على الشاطئ ميتيْن.

يكذب على نفسه

كان الجاحظ مضرب المثل في القبح. جاء قوم إلى باب الجاحظ فقالوا للغلام: أين أبو عثمان؟ قال: هو في الداخل يكذب على نفسه. قالوا له: ويحك! كيف يكذب المرء على نفسه؟ قال: وجدته ينظر في المرآة ويقول: سبحان من خلقني جميلاً.

الجاحظ يصدُق

نسبوا إلى الجاحظ بيتين، قالهما وقد جاء بلدة في اليمن:

مــنــذ أَتــيــتُ الــيَــمــنــا   لــم أَرَ وجــهــاً حــســنــا
قــبَّــح الــلــه بــلــدةً   أجــمــلُ مَــن فــيــهــا أنــا

حي بن يقظان الأول

هذه قصة من الجاحظ نحكيها كما كتبها. لما وقع الطاعون الجارف، أتى على أهل دار من الدور، فلم يشكَّ أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد، فعمدوا إلى باب الدار فسدّوه، وكان قد بقي صبيٌّ صغير يرضع، ولم يفطنوا له، فلما كان بعد ذلك بمدة وانقضى الوباء، جاء بعض الورثة ففتح الباب، فلما أفضى إلى فناء الدار، إذا بصبيّ يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار، فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت الكلبة، فلما رآها الصبيّ حبا إليها، فأمكنته من أطبائها، أثدائها، فمصّها.

إيثار وتكافل

كان لرجل زوجانِ من حمام. زوجٌ طيارٌ بجناحين، وزوجٌ مقصوصُ الجناحين. وقد جعل لحمامِهِ طاقةً، فالحمام الطيَّارُ يخرج من الطاقة ويعود بالحَبِّ لصغارِه، والرجل يضعُ الحبَّ للحمام المقصوص الجناحين ولفراخه. وارتكب الرجل جنحة فحبسه السلطان. فركبه همٌّ ثقيل، وقال في نفسه ستموتُ الحمامتان المقصوصتا الجناحين، وتموت فراخُهما. وخرج الرجل من حبسه بعد مدة. فرأي الحمام كلَّه بخير والفراخَ جميعَها قد كبُرت. ولبث يراقب. فرأى الحمام الطيار يحضر الحب للمقصوص الجناح ولفراخه.

الإهليلَجات

أتعب وأنا أبحث في كتب العرب القديمة كي أعثر على حكاية ليس فيها شيءٌ عن السيف والنطع وتجبرِ السلاطين، وليس فيها شيء عن الجواري وقلة الأدب. هذه حكاية عن الجاحظ وقد جاوز التسعين وفُلِج. كان راقداً في بيته، وكانت تخدمه جارية صفراء. لعلها كانت شقراءَ من سبي الروم. ها قد عدنا إلى الجواري. هي خادمٌ والسلام. وحل ببغدادَ والي السند. انتهت ولايته على بلاد السند، وهي باكستان اليوم، وعاد إلى عاصمة الدولة. كان قد حصل عنده في مدة ولايته ثلاثون ألفَ دينار. من الرشوة طبعاً. والرشوة كانت مقننة في ذلك الزمن مثلما هي مقننة اليوم في بعض البلاد. خاف الوالي المنصرف على دنانيره فصاغها عند صيرفي يعرفه على هيئة إِهليلجاتٍ ذهبية، شيءٍ يشبه الأونصات الذهبية في زمننا، وشدها على وسَطه بحزام عريض. ثم قصد هذا الوالي المنصرف منزل الجاحظ. قالت له الخادم: الشيخ عليل. قال لها: لا بد من أن أسلِّم عليه. فدخلت تطلب له الإذن من الجاحظ. فأُذن للرجل. قال الجاحظ لزائره: وماذا تبتغي من شيخ ذي شق مائل، ولعاب سائل؟ فقد كان الجاحظ كما قلنا مصاباً بالفالج، بالشلل النصفي. قال الرجل: أردت أن ألقيَ السلام على شيخنا الجليل. قال الجاحظ: بل أردت أن تقول للناس: قد رأيت

الجاحظ قبل أن يموت. فدعا الرجل للجاحظ بأن يمُدَّ الله في عمره ويشفيَه. وقام منصرفاً، فناداه الجاحظ: أيها الفتى. فوقف الرجل واستدار، أردف الجاحظ سائلاً: أرأيت مفلوجاً ينتفع بإهليلجات من ذهب؟ قال الرجل والصدمة بادية على أساريره: لا والله. قال الجاحظ: فإني والله أنتفع ببعض ما في حزامك. ففك الرجل حزامه وأهدى إلى الجاحظ بضع إهليلجاتٍ ذهبية، ثم انصرف. وقص قصته على قوم، وقال: ما أعجبَ هذا الشيخ! يأتيه وهو مفلوج في فراشه خبرٌ سَتَرتُه عن كل الناس.

ردوا السلام

قص الجاحظ علينا قصة رجل خراساني كان يحمل طعامه في يوم الجمعة إلى البستان فيجلس بجانب جدول ويأكل. مر به في إحدى الجمع رجلٌ ورآه يأكل، كان الرجل يمشي على الجانب الآخر من الجدول. فألقى السلام. فرد الخراساني السلام، وقال: هلمَّ عافاك الله. أي تفضل. وهمَّ الرجل أن يقطع الجدول لكي يأكل. فصاح به صاحبنا: على رسلك، ماذا تريد؟ قال: أريد أن آكل. قال الخراساني: ولم ذاك؟ ومن أباح لك مالي؟ قال الرجل: أوليس قد دعوتني؟ قال الخراساني: ويحك! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام، الآيينُ، أي العادة، هو أن أقولَ أنا هلمَّ، فتجيبَ أنت هنيئاً، فيكونَ كلام بكلام. فأما كلام بفعال، وقول بأكل فهذا ليس من الإنصاف.

جربوني

قال الجاحظ: وقف سائل بباب قوم وقال: أنا جائع. فقالوا له: كذبت. قال: جربوني برغيفين ودجاجة.

تدبير

كان قوم من البخلاء يجتمعون في مسجد بالبصرة فسماهم الجاحظ المسجديين، وكانوا يتطارحون تجاربهم ويتذاكرونها التماساً للفائدة واستمتاعاً

بذكرها. ويسمون أنفسهم أهلَ الإصلاح، لا البخلاء. قال شيخ منهم: ماء بئرنا كما علمتم مالح أجاج لا يقربه الحمار ولا تسيغه الإبل، وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد، ونجلب الماء العذب بمشقة. صرنا نسقي الحمار الماء العذب فكلفنا ذلك مشقة، فخلطنا له مالحاً بعذب فاعتل منه وانتقض من أجله. وكنا نستحم بالماء العذب حتى لا يعتريَ جلدَنا ما اعترى جوف الحمار. ثم انفتح لي باب من الإصلاح. فشققت قناة تجر ماء الاغتسال إلى حوضٍ صهرجْته وملسته فصار كأنه صخرةٌ منقورة. فنحن نغتسل بالماء العذب ويسيل هذا الماء إلى ذلك الحوض. الحمار لا يتقزز منه، وليس علينا حرج من سقيه ماء الاغتسال. وما علمنا أن الكتاب حرمه ولا أنَّ السنَّة نهت عنه. فأسقطنا بهذا مؤونة عن النفس والمال. قال القوم: هذا توفيقُ الله ومَنُّه.

خلفاء وأمراء

لو كانت راضية!

كان عمر بن الخطاب شديداً في الحق، زاهداً. حل بالمدينة أحد ولاته، فأخذه إلى بيته وقدم له خبزاً وملحاً. قال الوالي: يا أمير المؤمنين، إنك لتقوم على شؤون المسلمين، ألا أَعَنْتَ جسدَك بطعام آخر. فقال له عمر: كُلْ يا أخي، فلو كانت زوجتي راضية لجاءتنا بزيت نأْتَدِمُ به. هذا عمر في بيته: يَرضى لزوجته ألَّا تكون راضية. رضي الله عنه.

عمر يشتري ظُلامة

كان عمرُ بن الخطاب يتفقد الرعية، فمر بخِباء تقعد أمامه عجوز، فحياها ومضى، فنادته ولم تعرفه، وسألت: ما فعل عمر؟ قال: هو بخير. قالت: لا جزاه الله عني خيراً. قال: ولم؟ قالت: ما نلتُ من عطائه درهماً. قال: وما أدراه بمكانك؟ قالت: ما ظننت أحداً يلي هذا الأمر إلا ويعرف أحوال الناس من مشرقها إلى مغربها. فبكى عمر، وقال في نفسه: كلُّ أحدٍ أفقهُ منك يا عمر. ثم التفت إلى المرأة وقال: بكم تبيعينني ظُلامتَك من عمر؟ فظنَّتْ أنه يهزأ بها، وما زال يكلمها حتى باعته الظلامة بخمسةٍ وعشرين ديناراً، ولكنها كانت تضحك من كلامه. ومر عليُّ بنُ أبي طالب وعبدُ الله بنُ مسعود فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين. قالت العجوز: واسوأتاه، شتمت عمر في وجهه. قال عمر: لا بأس عليك. وكتب لها عهداً بخمسة وعشرين ديناراً، وأشهد علياً وعبد الله على الصك. ودفع إليها المال. وقال: هذا الصك تضعونه في كفني حتى ألقاها به في محشري.

عمر والصبي

قال سنان بن مسلمة: كنَّا غِلماناً بالمدينة نلتقط ما يسقط من النخل، فأبصرْنا عمرَ بنَ الخطاب قادماً، فرمى الغلمانُ ما جمعوه وفَرُّوا، وبقيت أنا في مكاني. فاقترب مني عمر، فبادرته بالقول: إنما هذا التمر مما ألقته الريح. فقال: أرِني أنظرْ، فإنه لا يخفى عليّ. فنظر فقال: صدقت. قلت له: بعد أن تذهب سيعود الغلمان ويؤذونني. فمشى عمر بن الخطاب معي حتى بلغتُ بيتي.

عمر وشظف العيش

في زمنٍ بدأ فيه الخير يكثر بين أيدي العرب كان عمرُ بنُ الخطاب يحاول أن يعيدَهم إلى شظف العيش. رأى قوماً يطبخون كلَّ طعام في قدرٍ أشكالاً ألواناً، فسكب كل القدور في قدر كبيرة وقال لهم: الآن كُلوا، والله لو ميز المسلمون طعمَ هذا من طعم ذاك لاقتتلوا. وكان عمرُ يأمر الناس أن يُرازِموا في طعامهم. والمرازَمة أن يأكلَ المرء يوماً لحماً ويوماً خبزاً ويوماً تمراً ويوماً يشربُ لبناً، ولا يجمع بين طعامين في يوم. ولم يكن عمرُ يأكل طعاماً فيه إدامان، فإن اشتمَّ رائحة السمن في طعام اللحم رفع يده ولم يأكل.

أعرابي عند عمر

جاء أعرابي إلى عمرَ بنِ الخطاب، وقال له:

يا عمرَ الخيرِ جزيت الجنةْ
أُكسُ بُنيَّاتي وأُمَّهُنَّهْ
وكنْ لنا في ذا الزمانِ جُنَّةْ
أُقسمُ بالله لَتَفعلَنَّهْ

قال عمر: وإن لم أفعل، يكون ماذا؟ قال الأعرابي:

إذن أبا حفصٍ لأَمْضِيَنَّهْ

قال عمر: فإن مضيت يكون ماذا؟ قال الأعرابي:

والـلـهِ عـنـهـنَّ لَـتُـسـألـنَّـهْ
ومـوقـف الـمـسـؤول بَـيـنَـهُـنَّـهْ
إمَّـا إلـى نـار وإمَّـا جـنَّـةْ

فبكى عمر، وقال لغلامه: ادفع إليه قميصي ذاك، ووالله ما عندي غيرُه.

عثمان في محنته

لُقِّب الشاعر شأس العبدي بالممزَّق ببيت قاله: (فإن كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكلٍ.. وإلّا فأدركني ولما أُمزَّقِ). وعندما حوصِرَ الخليفةُ عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه في بيته بالمدينة أَرسل إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رسالةً هي هذا البيت.

قصة أُرَيْنِب

كانت أُرَينِبُ زوجاً للوالي عبدِ الله. وكانت من أحسن النساء، وكان يحبها وتحبه. ورآها يزيدُ بن معاوية فهويَها هوىً كادَ يتلفُه. فعرف معاوية بن أبي سفيان هذا الذي حل بولده يزيد. فاستدعى عبدَ الله الوالي، وقال له: قد علمتُ ما أنت فيه من شرفٍ وما أنت عليه من خلق، وقد أردت تزويجَك ابنتي. فسُرَّ عبدُ الله، لأنه سيتزوج ابنةَ الخليفة. وفي اليوم التالي حضرَ عبدُ الله مجلس الخليفة فقال له معاوية: قد كرهَت ابنتي أن تكون ضَرَّةً فتؤذي وتؤذى، وأنت عالمٌ بأهواء النساء، فاقبل العذرَ يا أخا العرب. فطمع عبدُ الله في هذا النسب الذي لاح ثم اضمحل. فقال لمعاوية: فأنا أُطلِّقُ أرينبَ. فقال معاوية: ذلك لك. وفي المجلس نفسه طلق الوالي أرينب، وشهد عليه قوم بينهم أبو الدرداء. وعاد عبد الله في اليوم التالي. قال له معاوية: يا لتقلُّبِ النساء يا عبدَ الله. لقد تمنَّعت ابنتي لأمر لا أعلمه. وأنت عالمٌ بأهواء النساء. فانصرف الوالي كسيرَ القلب، فقد طلقَ زوجته المحبوبة الجميلة، ولم يظفرْ

بمصاهرة الخليفة. ومرت أشهرُ العِدة. ثم إن معاويةَ أرسل الصحابيَّ أبا الدرداء إلى أرينبَ خاطباً. يريدُها لولده يزيد. وقبل أن يصلَ أبو الدرداء إليها مرَّ بالحسين بنِ علي مسلِّماً، وقص عليه خبرَ المهمة. قال له الحسين: فاخطِب لي معه، ولتختر هي من تريد. فمضى أبو الدرداء إلى أرينب، وخطبها ليزيد وللحسين. فقالت له: فأنا أستشيرك. فأشار عليها بالحسين. فتزوجها الحسين بن علي. وعاد عبدُ الله إلى موطنه عَزَباً لا زوجَ له، وهو يشعر بمرارةٍ لأن معاويةَ غدرَ به. وزار عبدُ اللهِ الحسينَ بنَ علي، وقال له إنه ترك عند أرينبَ مالاً. فدخل الحسين إلى زوجته أرينب وسألها، فقالت: نعم، قد ترك مالاً، وها هو في صندوقي. فخرج الحسين إلى عبدِ الله الوالي وقال له: تدخلُ وتتسلّمُ مالَك بنفسك. فدخل عبدُ الله على طليقتِه الجميلة، فأخرجت من الصندوق كيس مال، والحسينُ واقف بمبعدة. رآهما الحسين، وسمعهما. هو يعتذر لها، وهي تعتذر له، وهو يبكي وهي تبكي. فاقترب الحسين وقال أُشهد الله أنك طالق. ومضت عليها العدة ثم تزوجها طليقُها عبدُ الله وعاشا بثبات ونبات.

إرم ذات العماد

خرج ابن قُلابةَ يريد الشام، وتوسط الصحراء. سار يومين لا يرى بشراً ولا شجراً. وجنَّهُ الليل فرفع رداءه على عصاه ونام تحته، وأفاق وقد علا النهار. نظر حوله فإذا حصن عظيم يحيط به سور عالٍ، فظن أنه اختُلط في عقله، فهذا الحصن لم يكن موجوداً عندما نام. سار نحو الحصن، فرأى بابه مفتوحاً، فدخل، ومشى في طرقات مفروشةٍ باللؤلؤ، وعلى الجانبين شجر تتدلى ثماره، وقد غُرس في أرض تلمع فيها اليواقيت وشذور الذهب، ورأى حوله قصوراً شامخة تقوم على أعمدة، ولم ير إنساً. فظن أنه دخل الجنة. وطاف مذهولاً، ثم قال لنفسه، أجمعُ من هذا شيئاً أجعله في كنانتي، فالتقط ما استطاع حمله من اللؤلؤ والياقوت والذهب. ويمَّمَ شطر الباب، وخرج. والتمس ناقته فوجدها. وركب ومضى إلى الشام. كان في طريقه يتفقد ما جمعه، يخاف أن يكون ذلكَ كلُّه وهماً. ولما استقر به المقام في الخان،

تحقق مما معه من جوهر ولؤلؤ، فأيقن أنه حقيقي. قصد قصرَ الخليفة معاويةَ بنِ أبي سفيان، والتمس الإذن. وقصَّ على معاوية قصته، وأراه ما جمع، ووصف له تلك القصور التي تقوم على أعمدة. فاستضافه الخليفة في بيت قرب القصر. فكر معاوية في هذه القصور التي تقوم على أعمدة. في اليوم التالي استدعى معاوية كعب الأحبار وانفرد به. قال له: ما خبرُ «إرمَ ذاتِ العماد»؟ قال كعب الأحبار: كان شدَّاد بنُ عاد ملِكاً جباراً، قهر كل الملوك. جُبيتْ إليه أموال البلاد، ولم يترك عند أحد ذهباً ولا جوهراً إلا احتازه لنفسه. وكان يدمنُ قراءةَ كتب الأولين، ويجد فيها وصفاً للجنة. فقال لنفسه: بل أصنع جنتي بنفسي. وبنى مدينةَ إرمَ ذاتِ العماد، ورفع قصورَها على أعمدة. وعندما فرغ البناؤون منها، سار الملك على رأس جيشه يحُفُّ به وزراؤه قاصداً جنته الدنيوية. ساء ظنُّ القوم بخالقهم، وآمنوا بمَلِكِهم الذي صنع لهم جنة. وعندما كانوا على مسير يوم وليلة من إِرَم رماهم الله بصيحة أهلكتهم عن آخرهم. وقضى الله أن تَخفَى إِرم فلا يراها أحد من الخلق، إلا رجلاً من المسلمين يدخلها ويأتي بخبرها، حتى يعرف الناس أن إرم ذاتَ العماد التي لم يخلق مثلُها في البلاد حق. سمع معاويةُ هذا فدعا بالرجل فجيء به إلى المجلس، وقال معاويةُ لكعب الأحبار: هذا هو الرجل الذي دخلها.

أبو سفيان بالباب

لا يضير الأبَ أن يأخذ من ابنه مالاً. لا، بل هو يفتخر بذلك. كان في بلدنا رجل على شيء من اليسار يفتخر في المجالس بأن ولده المغترب يبعث إليه بمال. يَعُدُّ ذلك إنجازاً: فهو قد أنجب ولداً صالحاً ناجحاً. ووجدت في كتاب بهجة المجالس لابن عبد البر قصة عن أبي سفيان. فقد عاش وأسنَّ حتى صار عثمانُ بن عفان - وهو من الأمويين كأبي سفيان - خليفة. أتى أبو سفيان باب عثمان، فمنعه الحاجب من الدخول. فجلس ينتظر. قال له بعضهم: هيه، قد حجبك أمير المؤمنين! فقال أبو سفيان مفتخراً: لا عدِمْتُ من قومي من إذا شاء حجب.

حِلْم معاوية

دخل أبو الجهم وقد أسنَّ على معاوية بن أبي سفيان فسلم عليه، فرد معاوية رداً بارداً. فقال له أبو الجهم: وتكلمني هكذا؟ والله لقد رأيت أمَّك في الجاهلية وهي شابة حسنة فراودْتُها عن نفسها، فأَبَت. قال معاوية: ولو رضِيَتْ، لكنتَ ظفِرتَ بامرأة ذاتِ حسب ونسب. فذهل أبو الجهم لما بدا من معاوية من الحِلْم، فأكبَّ على يده يقبلها ويقول:

نـقـلِّـبُـهُ لِـنـخْـبُـرَ حـالـتـيـهِ فيكشفُ عنهما كرماً ولينا
نَـمـيـلُ عـلـى جـوانـبِـه كـأنَّـا نـميلُ إذا نـمـيـلُ عـلـى أبـيـنـا

الأكثر والأشهى

دعا عبد الملك بن مروان أهل مجلسه إلى طعام. ففرش الخدمُ الموائد بأطباقٍ فيها من الأصناف ما تشتهي العين. قال أحد الجالسين: يا أمير المؤمنين، لم يَرَ الناس قطُّ أكثرَ ولا أشهى طعاماً من هذا. وثنَّى الجميع على كلامه، إلَّا أعرابياً كان معهم، فقد ظل ساكتاً. فقال له عبد الملك: ما قولُك يا أخا العرب؟ فقال الأعرابي: أمَّا أكثرُ فلا والله ما رأيت أكثر من هذا الطعام، وأما أشهى فقد أكلت أشهى من هذا. فهمهم الحاضرون استنكاراً. فمضى الأعرابي يقول: اصطدتُ غزالاً، وأوقدت ناراً، ووضعته على الجمر. وأدركني نعاس فنمت تحت نخلة. وعندما صحوت كانت الشمس في الزوال، فصِرت آخذ الشحمة وأضعها بين تمرتين، وآخذ التمرة وأضعها بين شحمتين، وما زلت آكل حتى شبعت. فهذا أشهى طعام أكلته.

جواب من بيت النبوة

كتب ملك الروم إلى عبد الملك بنِ مروان كتاباً أقسَمَ فيه ليحملنَّ إليه مئةَ ألف في البحر ومئةَ ألف في البر. فأراد عبد الملك أن يكتب إليه رداً شافياً، فتحيَّر. فأمر عبد الملك الحجاج بن يوسف أن يكتب كتاب تهديد ووعيد

لمحمدِ بنِ الحنفية، ابنِ علي بن أبي طالب. قال له: اكتب إليه كتاب تهديد وقل لي ما سيكونُ جوابه. وصلت رسالة الحجاج إلى محمدِ بنِ الحنفية رضي الله عنه، فكان جوابه: إنَّ للهِ تعالى في كل يوم ثلاثَمئةٍ وستينَ نظرةً إلى خلقه، وأنا أرجو أن ينظر إليَّ نظرة يمنعني بها منك. فكتب عبد الملك هذه العبارة إلى ملك الروم. قرأها ملك الروم والتفت إلى أصحابه وقال: ما هذا منه! ما خرج هذا الكلام إلا من بيت النبوة.

عبد الملك في آخر أيامه

كان عبدُ الملكِ بنُ مروان في مرض الموت، فنظر من نافذته فرأى على البُعْدِ قصَّاراً يغسل الثياب، فقال: ليتني كنت قصاراً يغسل الثياب ولم أتقلد الخلافة. فبلغ كلامُه أحد الزهاد فقال: الحمد لله الذي جعلهم في ساعة الموت يتمنَّوْن ما نحن فيه، ولم يجعلنا إذا حضرنا الموت نتمنى ما هم فيه.

حديث الأَكَلَة

حديثنا عن الأَكَلَة بين بلزاك وسليمانَ بنِ عبد الملك. ولكننا نبدأ بإيسوب. كان إيسوب رجلًا موسراً في روما - وهو غيرُ إيسوبَ اليوناني صاحبِ الخرافات ـ. كانت تُعَدُّ له وجْبةٌ من لحمِ الببَّغاوات النادرة، ولا يكتفي بذلك بل يأمر بأن تطحن جوهرةٌ ثمينةٌ ويُذرَّ مسحوقُها تابلاً فوق الطعام. هذا رجل متفنن في الأكل، ونسميه الغورميه أي الذوَّاقة، ويا لذوقه البشع! الصنف الآخر من الأكلة هم النَّهِمون، يسمونهم غورماند. كان أونوري دي بلزاك الروائي الفرنسي نَهِماً. أكل يوماً اثنتي عشرة ريشة من أضلاع الخروف. وثنَّى ببطةٍ وبطائري سِمَّان، ثم التهم مئةً وعشراً من القواقع. وختم باثنتي عشرة إجَّاصة.

وكان سليمان بن عبد الملك نهماً. أتى الطائف وبصحبته عمرُ بنُ عبد العزيز، ونزل في ضيافة الشمردل. قال: ويلك يا شمردل، ما تطعمني! فقال الشمردل: عندي جدي سمين كأنه عُكَّة سمن، لِمَا عليه من شحم. فقال

هاته. فمضى سليمان يأكل حتى لم يَبقَ إلَّا فخذ، فقال لعمر: هلم يا أبا حفص! فقال عمر بن عبد العزيز: أنا صائم يا أمير المؤمنين. فأتى سليمان على الفخذ، وقال: ويلك يا شمردل، ما عندك شيء تطعمني! قال: أعددنا خمسَ دجاجاتٍ هندية. فجيءَ بها فكان سليمان يمزق الدجاجة وما يلقيها من يده إلا عظاماً، حتى أتى عليهن. وقال: ويلك يا شمردل، ما عندك شيء تطعمني! قال عندي حريرةٌ كأنها قُرَاضَةُ الذهب. وجاء بها في عُسٍّ - والعس هو القدح الكبير- فشربها سليمان، ثم تجشَّأَ فكأنما خرج الصوت من جوف بئر. ثم نصبت الموائد للقوم، فجلس سليمان وأكل. قال الشمردل: فرأيته يأكل مع الناس كأنه جائع لخمس. فكيف مات سليمان بن عبد الملك؟ مات بعدما أكل سلة تين وسلة بيض مسلوق، وأكل بعدَهما قَصعة مملوءةً مِخاخاً معجونةً بالسكَّر.

بعد سليمان بثمانين سنة كان هارون الرشيد يجالس أهل الأدب. فذكر الأصمعي نادرة عن سليمان، قال: كان يؤتى بالجدي المشوي حاراً خرج لتوه من التنور، فلا يستطيع سليمانُ أن يمسك بالفخذ بيده ليمزق الجدي، فكان يضع طرف كُمِّهِ في كفه، وبالكم يمسك بعظم الفخذ. سكت هارون الرشيد، ثم تذكر شيئاً. قال يا غلام: جئني بالصندوق الفلاني. وهذا صندوق كان بنو العباس قد جعلوا فيه أثواب الخلفاء الأمويين بعد انقضاء دولتهم. فجيء بالصندوق العتيق، وتفحص القوم ما فيه من أثواب حتى رأوا أثواباً عليها شارة سليمان، ورأوا أكمامها وإذا آثارُ الدهن باديةٌ على أطرافها. قال الرشيد للأصمعي: قاتلك الله، ما أصدق روايتَك!

أبناء الذوات

قال عمرُ بن عبد العزيز لإياسِ بنِ معاويةَ القاضي: دُلَّني على قوم من القُرَّاء كي أرسلهم عُمَّالاً في الأقاليم، فقال له: القراء ضربان: ضربٌ يعملون للآخرة، وأولئك لا يعملون لك، وضرب يعملون للدنيا فما ظنُّك بهم إذا

مكَّنتَهم منها! قال الخليفة: ما أصنع؟ قال: عليك بأهلِ البيوتات الذين يستحيُون لأنسابهم ويرجعون إلى أعراقِهم فولِّهم.

أسس عبد الحميد شومان البنك العربي في القدس، ثم أخذ يفتتح فروعاً له في المدن العربية. كان يختار مدير الفرع من أسرة ذات حسب ونسب، ولا يُعير الشهادةَ والخبرةَ كبير اهتمام.

يزيد بن عبد الملك

عزم يزيدُ بن عبد الملك على السير على خطى سلفِه عمرَ بنِ عبد العزيز. واضطرب بنو أمية، فهم ما صدَّقوا أن تخلصوا من عمر بن عبد العزيز الذي ألزمهم جادَّة الحق في الأموال والامتيازات. فجمعوا للخليفة الجديد أربعين من كبار الرجال ليشهدوا أن الخليفةَ لا عقابَ عليه في الآخرةِ ولا عذاب. ولفَّقوا حديثاً «من أقام في الخلافةِ ثلاثةَ أيام لم يدخل النار». وانحرف يزيد عن سيرة سلفه.

رسالة إلى هشام

بعث الخليفة الأموي هشامُ بنُ عبد الملك قرطاساً من قراطيس الخلافة - أي ورقة مختومة أو نحو ذلك - إلى الأعمشِ المحدث - سليمانَ بنِ مهران -. قال رسول الخليفة للأعمش: يقول لك أمير المؤمنين: اكتب في هذا القرطاس مناقبَ عثمان ومساوئَ علي. فأخذ الأعمش القرطاس ووضعه في فم شاة فلاكته حتى تغيرت هيئته، ثم ناول القرطاس للرجل وقال له: صف للخليفة ما رأيت. فقال الرجل: والله يكون في ذلك هلاكي وهلاكُك، أقسمتُ عليك إلَّا ما كتبتَ شيئاً. فكتب الأعمش: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعدُ يا أمير المؤمنين، فلو كان لعثمانَ رضي الله عنه محاسنُ أهلِ الأرض ما نفعتك، ولو كان لعليٍّ رضي الله عنه مساوئُ أهلِ الأرض ما ضَرَّتْك، فعليك بنفسك، والسلام».

طاووس اليماني يعظ هشاماً

قدم هشام بن عبد الملك حاجاً أيام خلافته، فقال إيتوني برجل من الصحابة، فقالوا: لم يبق في الحياة صحابي. فقال: فمن التابعين. فأتوه بطاووس اليماني، فلما دخل عليه لم يخلع نعله بالباب بل عند حاشية البساط. وقال: السلام عليك. وجلس بقربه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضباً تبيَّنَه الناس في وجهه، وقال: يا طاووس، ما حملك على ما صنعت؟ قال طاووس اليماني متعجباً: وما صنعت؟ قال: خلعت نعلك بحاشية بساطي، ولم تسلم علي بأمير المؤمنين، وقلت يا هشام ولم تكنني، وجلست بإزائي. قال طاووس: أنا أخلع نعلي بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات. وأما إمرة المؤمنين فلا يسلم لك بها كل أحد. وأما الكنية فإن الله سمى أنبياءه فقال يا موسى ويا زكريا، وكنَّى أعداءه فقال تبت يدا أبي لهب. وأما قولُك جلست بإزائي فإن علي بن أبي طالب قال: إذا أردتَ أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام. فسكن الغضب عن هشام، ثم قال: عظني يا طاووس. فقال: إن في جهنم حيَّاتٍ كالتلال وعقاربَ كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، والسلام عليك. قالها وقام مولِّياً.

الغلام الفصيح

أصاب الباديةَ قحطٌ في زمن الخليفة هشام بنِ عبدِ الملك فوفد عليه العرب، فرأى بينهم غلاماً فالتفت إلى حاجبه وقال مؤنباً: حتى الصبيانُ يدخلون علينا! فقام الغلام وقال: يا أميرَ المؤمنين إن الكلامَ نشْرٌ والسكوتَ طيٌّ، ولا يُعرَف الكلام إلا بنشره. قال هشام وقد وأعجبه الغلام: فانشر لا أبا لك! قال الغلام: أصابتْنا سنونَ ثلاثٌ، فسنةٌ أذابت الشحم، وسنةٌ أكلت اللحم، وسنةٌ لم تبقِ على العظم. وفي أيديكم فضولُ أموال: فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت للعباد فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا

بها عليهم. فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً! وقسَّم في البادية مئةَ ألفِ درهم.

قبة من فضة

بنى عبدُ الرحمن الناصر مدينةَ الزهراء عاصمةً لمُلكه في الأندلس، وبنى قصراً جعل قبتَه من الفضة، فتقع عليها الشمس فتأخذُ بالأبصار. وكان يقول لكل من جاء مجلسه: أرأيت مَلكاً صنع مثل هذا؟ فيقال له: ما رأينا أعجب من هذا. حتى إذا وفد عليه القاضي منذرُ بنُ سعيد سأله السؤالَ عينَه، فقال القاضي: بسم الله الرحمن الرحيم.. ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، صدق الله العظيم. فأمر الناصر من فوره بنقض القبة وبنائِها من جديد بالقرميد.

أيام السعادة

كان عبدُ الرحمن الناصر ثامنُ حكام الأندلس يكتب سطراً في رقعة يحتفظ بها كلما مر به يوم خالٍ من الهموم، وعند وفاته وجدوا الرقعة وقرأوا فيها: «أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في مدة سلطاني، يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا.. ويوم كذا.. ويوم كذا..» فعُدَّت تلك الأيام فوُجدت أربعة عشر يومًا. كانت مدة عبد الرحمن الناصر في الحكم اثنتين وثلاثين سنة. (باستخدام حاسبة الحاسوب: كان الرجل يعيش ٨٣٣ يوماً من الهموم مقابل يوم واحد من السعادة).

كدْتُ أقتله خنقاً

حدَّث المنصور جلساءه قال: كنا نتوارى في آخر زمن بني أمية. وقصدت الشام يوماً، وصحبت في الطريق رجلاً أعمى، قال لي إنه شاعر. وهذا الأعمى الذي صحبه المنصور هو أبو العباس السائب. وقد قال السائب للمنصور إنه

يقصد الشام ليمدح مروانَ بنَ محمد آخرَ خلفاء بني أمية. فقال المنصور أنشدني، فقال السائب:

خطباءٌ على المنابرِ فُرسا نٌ عليها وقَالَةٌ غيرُ خُرْسِ
لا يُعابونَ صامِتينَ وإن قا لوا أَصابوا ولم يَقولوا بِلَبْسِ

فلما فرغ من الإنشاد كاد المنصور ينشقُّ غيظاً من هذا المديح في بني أمية أعداءِ قومه بني العباس. ودار الزمان دورته، وقامت دولة بني العباس، وبعد سنين قلائل تولى المنصور الخلافة. حج المنصور ذات سنة. وبينا هو يتمشى في مكة أبصر عن بعدٍ أبا العباسِ السائبَ الأعمى، فقال لحاشيته تنحَّوْا عني. ولحق بالشاعر وماشاه. وقال له: أعرفتني؟ قال: لا. فقال: أنا رفيقُك وأنت قاصد الشام لمدح مروان. فميز الشاعر الصوت. فأردف المنصور: وأنا أبو جعفر المنصور الخليفة. فلم يُصَبِ الشاعر بالذعر، بل قال عن بني أمية:

خَلَتِ المنابرُ والأَسِرَّةُ منهُمُ فَعليْهِمُ حتى المماتِ سلامُ

فقال له المنصور: قل لي ما أعطاك مروان عندما مدحته. قال السائب: أعطاني ما كفاني أن أسأل أحداً بعده، فلست سائلاً أحداً. قال المنصور لجلسائه: والله كدت أقتُله خنقاً بيدي. ولكنني رعيت حرمة مكة.

المنصور وصديقه العامي

عَرَفَ أبو جعفر المنصور قبل الخلافة رجلاً من عامة الناس يقال له أزهر السمَّان. فلما تولى المنصور الخلافة جاءه أزهر، وقال له: عليَّ ديْن. فأمر له المنصور بمال. وقال له: لا تأتنا بعد اليوم يا أزهر. وبعد مدَّة جاءه أزهر. فقال له: ما جاء بك؟ قال: جئت مسلماً على أمير المؤمنين. فأمر له المنصور بمال، وقال له: لا تأتنا بعد اليوم، لا طالباً ولا مسلِّماً. ومرت أشهرٌ وعاد أزهر. قال له المنصور: ما الذي أتى بك؟ قال: دعاءٌ مستجاب كنت سمعته منك يا أمير المؤمنين جئت آخذُه عنه. فقال المنصور: لا تأخذْه عني فإنه غير

مستجاب، فإنني دعوت الله أن يريحَني من وجهك فلم يستجب لي. وردَّه هذه المرةَ خائباً.

بنو العباس بين الإيوان والهرم

عندما عزم الخليفة العباسي الثاني المنصور على بناء بغداد أراد أن يهدم إيوان كسرى. والإيوان هو ما يسميه بعضنا اليوم الليوان، وهو غرفة واسعة لا باب لها تكون لاستقبال الضيوف في المناسبات. استشار المنصور جليسه خالدَ بنَ يحيى في الأمر، فنصحه بألا يفعل قائلاً: اترك هذا البناء شاهداً على مُلْكٍ عظيم تمكن آباؤك العرب من الاستيلاء عليه. قال له المنصور: هيهات! هذا من بقية تعصبك لقومك الفرس. وأمر العمال بالمباشرة بالهدم. فأخذوا يوقدون النار على الحجارة ثم يصبون الخل عليها كي تتشقق. وتبين بعد قليل أن الأمر صعب جداً. فعاد المنصور إلى خالد وقال له: قد تعذر الهدم، فماذا تقول؟ قال خالد: الآن لا بد من مواصلة الهدم حتى النهاية، كي لا يقال إن ما بناه كسرى عجز المنصور حتى عن هدمه، والهدم أسهل من البناء. مرة أخرى لم يأخذ المنصور بالنصيحة وبقيت لنا من الإيوان بقية. ويبدو أن تكنيك النار والخل لتشقيق الحجارة كان طريقة معروفة عند البنائين. زار المأمون سابع خلفاء بني العباس مصر، ورأى الهرم الأكبر. ولم يُرِدْ هدمه، ولا طاقةَ له بهدمه أصلاً. أراد أن يعرف سر بنائه. وقيل بل أراد استخراج دفائنه من الكنوز. وجدوا فُتحة في جانب الهرم، لكنها لم تَفُضَّ مغالِقَ السر. فأرادوا أن يفتحوا فتحة أخرى. فشققوا حجراً بالنار والخل. وفتحوا فُتحة تسمى حتى اليوم فتحةَ المأمون، ولكن عبثاً.

حوار الصقر والديك

كان أبو أيوبَ المرزُباني مقرباً إلى الخليفة المنصور، وكان إذا طلبه الخليفة اصفرَّ لونه، ودخل مرتجفاً، فإذا خرج عاد إليه لونه. فقيل له: ما أعجبَ شأنَك! ما أكثرَ ما تدخل على الخليفة، ولكنك لا تنفكُّ خائفاً هلعاً إن دخلت،

فإذا خرجت رأيناك فرحاً متهلل الوجه. فقال لهم: أقص عليكم قصة الصقر والديك. قال الصقر للديك: يا هذا أنت محظوظ، تؤخذ من البيضة ويطعمونك ويسقونك، فإذا كبرت طرت هنا وهنا وعلوت على كل حائط. أما أنا فيأخذونني فرخاً ويسترون عينيَّ، ولا يطعمونني إلا اليسير، ثم يستعملونني للصيد فأصيد لهم، ولا آكل مما أصيد. قال له الديك: ذهبتْ عنك الحجة يا صاحبي، أنت لم تر صقراً يُشوى على النار، فأما أنا ففي كل يوم أرى الديوك تشوى على الأسياخ. وقال الوزير لصحبه: لو عرفتم من بطش المنصور ما أعرف لكنتم أسوأ حالاً مني كلما دخلت عليه، ولكنتم في غاية السرور وقد خرجتم سالمين.

إليزابيث تموت في السادسة والتسعين ولا تترك العرش

هذا أبو جعفر المنصور المؤسسُ الحقيقي للدولة العباسية، فهو قد تولى الخلافة ثانياً بعد أخيه أبي العباس السفاح، ومكث فيها اثنتين وعشرين سنة. والمنصور بنى بغداد وجعلها عاصمته، وصارت بعد سنين قلائل عاصمة الدنيا.

قال المنصور يوماً لولده محمد المهدي: قد تعبت وكبرت، وعزمت على أن أولِّيَك هذا الأمر. فخرج المهدي مستبشراً. ولاقى الكاتب ابنَ يسار، فأسرَّ له بنيَّة أبيه. قال له الكاتب: لا تُظهِر قَبولاً، إنما كان يختبرك. وإن عاوَدَك فأَظْهِرِ الإباء وقل له: «أبقى الله أمير المؤمنين، وأنا لا أنهض بهذا الأمر». وبعد حين دخل المهدي على أبيه المنصور، فقال المنصور: هل فكرت فيما قلتُه لك؟ فقال المهدي: والله لا أقوم بهذا الأمر، ويبقِي الله أمير المؤمنين ويمتعنا بحياته. فقال له المنصور: وهل ناظرت أحداً في الأمر؟ فقال المهدي: شاورت ابن يسار الكاتب. فصرف المنصور ولده. واستدعى الكاتب. قال له: ما هذا الذي ناظرك فيه ابني محمد؟ فاضطر الكاتب للبوح، وقال: قد ذكر لي الأمر وأشرت عليه. قال المنصور: اصدقني القول، لمَ أشرت عليه بالرفض؟ قال الكاتب: أصدُقُك وأنا آمن؟ قال المنصور: قل. فقال الكاتب: ما أراك

عرضت عليه الخلافة إلا لتختبرَ عقله، وما كنتَ تطيبُ نفساً بترك ما أنت فيه. قال المنصور للكاتب: ويحك، وكيف توهمت ذلك؟ قال الكاتب: سمعتك يا أمير المؤمنين تقول إنك تستيقظ في الليل، وتدعو بكتُبِ الوُلاة تنظر فيها، وتدبر أمور البلاد والعباد، وخادِمُك يَمرَخُ ظهرَك بالدهن لما تُحِسُّ به من الألم. فعلمت أن أمراً له في قلبك هذا الموقع لن تُؤْثِرَ به أحداً. فأثنى المنصور على كاتبه قائلاً: ما علمت أحداً يتفقَّدُ ما تفقَّدْتَه، قد أصبت الرأي، وأحسنت. بارك الله عليك.

الخليفة البخيل

كان الخليفة أبو جعفر المنصور بخيلاً. كان يحاسب الفعلة والعمال الذين يبنون بغداد ويدقق في الحساب ليس بالدرهم فقط بل بالدانق وهو سدس الدرهم، فسمي الدوانيقيّ. وكان المنصور يهيئ ولده المهدي للخلافة من بعده، وجعله ولي عهده. وفد على الأمير المهدي الشاعر المؤمِّل فمدحه فوهب له عشرينَ ألفَ درهم. فمضى المؤمل بها فرحاً. وورد الخبر على المنصور. فجعل على الجسر رصداً يوقفون كل مارٍّ وكل رَكْب. حتى مر بهم قوم فيهم المؤمل. فسألوا القوم عن أسمائهم وأنسابهم، ثم أخذوا المؤمل من بينهم وقالوا: طَلِبَةُ أمير المؤمنين. ففزع الرجل. وبعد سويعة كان يقف أمام المنصور. قال له الخليفة: تأتي فتى فتخدعه عن عشرين ألفَ درهم. قال المؤمل: هو كريم من أهل بيت كرام. فظهر في وجه المنصور إعجاب بالإجابة. قال المنصور: أنشدني ما قلت فيه. فمضى المؤمل ينشد قصيدته، وفيها يشبه المهدي بالقمر المنير:

هو المهديُّ إلَّا أنَّ فيهِ ... مَشابِهَ صُورةِ القمرِ المنيرِ
فهذا في الظلام سراجُ ليلٍ، ... وهذا بالنهارِ سراجُ نورِ

قال المنصور: هذا حسن جداً. ولكنه لا يساوي عشرين ألفاً. وصاح الخليفة بوزيره: يا ربيع، خذ منه ستة عشر ألفاً وخلِّهِ وما سواها. يقول

المؤمل: فأُخرجت من المجلس وأنا بأسوأ حال. وفتشوا متاعي وأخذوا ستة عشر ألف درهم وتركوا لي أربعة آلاف. ومات المنصور وتولى المهدي الخلافة، فجاءه المؤمل ووقف ببابه وبعث برقعة. فعندما قرأها المهدي ضحك حتى استلقى على قفاه. ثم أمر للمؤمل بما أُخِذَ منه، وزاده عشرين ألفاً أخرى.

سوَّار القاضي والكفيف

ركبَ الديْنُ سواراً القاضي، وبلغ دينُه خمسين ألفَ درهم، تحيّر في أمرها وركبه الهمّ. وعاد يوماً إلى بيته فوجد وكيلَه قد أحضر ألفي درهم من غَلَّة ضيعةٍ كانت له. وما تصنع ألفا درهم في دين كبير؟ طلب القاضي الغداء فجاءه، فلم تشته نفسُه الطعام فأمر به أن يُرفع فرُفع. وطلب النوم فامتنع عليه. وأراد أن يحادث أهل بيته، فلم يجد في نفسه رغبة في الكلام. فركب بغلةً له شهباء، وقال لخادمه احمل الدراهم واتبعني، نبتاع شيئاً لأهل البيت. ومضيا على وجهيهما، والقاضي سيّارٌ مهموم. مشيا طويلاً في دروب بغداد. وعبرا الجسر وانتهيا إلى طرف الصحراء، ثم عادا إلى باب الأنبار. ثم دخل القاضي مسجداً فصلّى العصر. وعلى باب المسجد وجد رجلاً كفيفاً يقترب منه. قال له الكفيف: شممت رائحة طيب، فظننت أنك من أهل النعمة. قال له سيّارٌ القاضي: وماذا تريد؟ قال الكفيف: كان لنا قصر، ثم باعه أبي وافتقر، ومات لم يترك لي شيئاً أعيش به. وليتني أستطيعُ الدخولَ على سوَّارِ القاضي لينظر في حالي، فقد كان صديقاً لأبي. سأل سوَّار: ومَن أبوك؟ فأخبره الكفيف. فصفَق سوارٌ كفّاً بكفّ وقال: سبحان الله، ظللتُ هائماً على وجهي، وساقنيِ الله حتى ألقاك. أنا سوّار القاضي. ففرح الكفيف. فقال سوّار لخادمه: ادفع إليه الألفي درهم. فقبلها الكفيف شاكراً. قال له سوَّار: إذا كان من الغد فأْتِني حتى أتعهَّدَك. كلُّ هذا وسوّار مدين بخمسين ألفَ درهـم، وهو قد أعطى الكفيف كلَّ ما يملك. انصرف سوارٌ راضي النفس مع ذلك. وفي المساء جاءه رسول الخليفةِ المهدي. دخل سوَّار على الخليفة فسأله عن أحواله. فقصّ

عليه سوّار قصة الكفيف، ولم يذكر شيئاً عن ديونه. فقال له المهدي: بارك الله فيك. وأمر الخليفة بأربعة آلاف درهم، وقال لسوار ادفعها إلى الكفيف. فأخذ سوّار صكاً بالمال وخرج. وقبل أن يصل الباب ناداه الخليفة وقال له: هل عليك دين؟ فقال سوّار: خمسون ألفَ درهم. فقال المهدي: أعطوه مئةَ ألف يسدُّ دينه، ويوسّعُ على نفسه. فخرج سيار وقد انقلبت حاله ببركة ذلك الكفيف.

المهدي وأضغاث الأحلام

أتى سعيدُ بن عثمان بابَ الخليفة المهدي وطلب الإذن عليه. قال له الحاجب: وماذا تبغي؟ قال: رأيت رؤيا صالحةً لأمير المؤمنين، وأحببت أن أقصها عليه. قال الحاجب: ما هذا! إن الناس يرون الرؤيا لأنفسهم فما يصدقونها فكيف بما يراه غيرُهم لهم؟ قال سعيد: لئن منعتني لأتوسَّلَنَّ بغيرك، وسأقولُ للخليفة إنك حجبتني. فدخل الحاجب إلى المهدي وقال له: يا أمير المؤمنين قد أطمعتم الناس. قال المهدي: هذا صنعُ الملوك، فما ذاك؟ فأخبره الحاجب. فقال المهدي: عليَّ بالرجل. دخل سعيد على المهدي وقال له: أتاني آت في منامي وقال لي إن أميرَ المؤمنين يعيش في الخلافة ثلاثين سنة، وآية ذلك أن يرى في نومه أحجار ياقوت فيعدَّها فإذا هي ثلاثون. قال المهدي: نختبر ذلك في ليلتنا، فإن صدقت الرؤيا أَثبناك، وإن كذبت لم نعاقبْك. وانصرف سعيد بن عثمان.

ونام المهدي. وبالطبع حلَم بثلاثين ياقوتة. ودعا بسعيد وكافأه وقربه، واستقضاه. وظل سعيد بن عثمان قاضياً على العسكر حتى وفاة المهدي. ولم تدم خلافةُ المهدي سوى عشر سنين. سأل بعضهم سعيداً عن الأمر بعد وفاة المهدي، فقال: لا والله ما رأيت له في منامي شيئاً. ولكنني ألقيت في باله أمراً فانشغل به فكرُه، فحَلَم به.

المهدي وأضغاث أحلام أخرى

رأى الخليفة المهدي في منامه أنه يصلي إلى الكعبة، بينما القاضي شريكُ بنُ عبدالله يصلي إلى جهة أخرى. فسأل تعبير المنام، فقيل له: القاضي مخالف لك، خارج عن طاعتك. فأمر الخليفة بإحضار القاضي، فدخل عليه وسلم، فلم يردَّ المهدي. وقال له: إني رأيت رؤيا تظهر لي خِلافَك وفسادَ طَوِيَّتِك في طاعتي. فلم يسأل شريك القاضي عن الرؤيا، بل قال: يا أمير المؤمنين الرؤيا على أربعة أوجه: منها وحيٌ من الله عز وجل، ومنها حديثُ الرجلِ نفسَه، ومنها أضغاثُ أحلام، ومنها تلعُّبُ الشيطان، فمن أيِّ الوجوه رؤيا أميرِ المؤمنين؟ قال المهدي: تلعُّبُ الشيطان. وأمر لشريكٍ بجائزة.

الخَيْزُران تفعل فعلتها

كان الخليفة المهدي شديدَ الولع بزوجته الخيزُران. ذهبت إلى مكة للحج وطال مقامها فكتب المهدي إليها:

نحن في غايةِ السرورِ ولكنْ ... ليس إلَّا بِكمْ يتمُّ السرورُ
فأَجِدُّوا في السيرِ، بل إن قَدَرتمْ ... أن تطيروا مع الرياحِ فطيروا

فأجابته زوجته الغالية:

قد أتانا الذي وصفتُمْ من الشو ... قِ ولكنْ ما إن قَدِرنا نَطيرُ
ليتَ أن الرياحَ ينقُلْنَ شوقي ... وهُيامي وما يُكِنُّ الضميرُ

وكانت الخيزران تتصرف في شؤون الملك، وكان المهدي يغضي عن ذلك لشدة حبه لها. وعيَّنَ ولديها موسى فهارون لولاية العهد.

ومات المهدي، فتولى موسى الهادي الخلافة. رأى الخليفة الجديد الوفود رائحة غادية على باب أمه الخيزران. رأى الناس يسألونها الحوائج، وشعر أنها تفضِّلُ أخاه هارون عليه. أحس أنها تريد التدبير لعزله وتوليةِ أخيه الخلافة. فبعث

إليها طعاماً مسموماً، قال إنه استطابه فلم يَسُغْ له أن يأكل منه وحده. فأقبلت الخيزران تريد أن تأكل فكفَّتْ جاريتُها خالصة يدها، وقالت: حنانيْكِ يا مولاتي! ووضعت الجارية الطعام لكلب، فمات من فوره. في اليوم التالي قال لها ابنها الهادي: كيف وجدت الطعام يا أمّاه؟ قالت: طيباً. فقال لها: لو كنتِ أكلت منه لتخلصتُ منكِ ومن شرورِك. أمَا والله لو رأيتُ ببابِكِ أحداً، مسلماً أو ذمياً، لضربتُ عنقه. أما عندك مِغزلٌ يشغلك، أو مصحف تقرأين فيه؟ فورد على الخيزران ما لم يكن في حسابها. فخرجت من عنده ولا تكاد رجلاها تعتدلان في مِشيتها. وجمع المهدي وجوه القوم وقال لهم: ما أرى بباب أمي رجلاً إلا ضربت عنقه، والحاضر يعلم الغائب. فكف الناس عن باب الخيزران، وسقطت منزلتُها. ونصحت ابنها الثاني هارون أن يفارقَ بغداد، ويفرَّ عن وجه أخيه الهادي حتى لا يقتلَه. فأخذ هارون يطوف في الأقاليم وهجرَ بغداد. وذات يوم علمت الخيزران أن ابنها الخليفةَ محموم وقد لزم فراشه. فبعثت إليه جواريَها. فوضعن المساند على وجهه وقعدن فوقه حتى مات اختناقاً. لم يمكث موسى الهادي في الخلافة سوى سنة وشهرين. وفي الليلة نفسها جاءت الخيزران بقاضٍ من المقربين إليها، فعقد الولاية لهارون الرشيد. وأعاد الرشيدُ أمه إلى سابق منزلتها. عندما ماتت الخيزران خرج الرشيد في جنازتها حافياً. وحكم هارون الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة.

سَيفان مشهوران

أشهر سيف عند العرب ذو الفِقار، سيفُ الإمام علي. جاء أن علياً وقف في أُحُد يحامي عن النبي صلى الله عليه وسلم ويرد عنه المهاجمين حتى انكسر سيفه. فأعطاه النبي سيفه، فهذا ذو الفقار. وظل هذا السيف مع علي. ونسبوا إلى حسانِ بنِ ثابت أبياتاً:

جبريل نادى معلناً والنقعُ ليس بِمُنجلِ
والمسلمون قد أحدقوا حولَ النبيِّ المرسَلِ
لا سيفَ إلَّا ذو الفِقار ولا فتىً إلَّا علي

وفي سيف الصحابيِ المشهور بالشجاعة عمروِ بنِ معدي كَرِبِ الزُّبَيْدي قيلت الأشعار وحيكت الأساطير. قيل إن عمرَ بنَ الخطاب طلبه، فأرسله عمرو إليه، فوجده الخليفةُ دونَ ما يقال عنه، فقال له عمرو بن معدي كرب: إنما أرسلتُ إليك السيفَ لا الساعد. وتوارث الخلفاء السيف حتى آل إلى موسى الهادي رابعِ خلفاءِ بني العباس، فوضعه أمامه وأذن للشعراء، وطلب إليهم أن يصفوا السيف شعراً. قال أحدهم:

حاز صَمصامَةَ الزُّبيديِّ مِن بين ... جميعِ الأنام موسى الأمينُ
فإذا ما هززتَه بَهَرَ الشمسَ ... ضِياءً فلم تَكَدْ تَستَبينُ
فكأنَّ المَنون نيِطَتْ إليه ... فَهْوَ مِن كل جانِبيهِ مَنونُ

فمنح الخليفة السيف للشاعر، ومعه دنانيرُ ذهباً. ففرق الشاعر الدنانير واستبقى السيف. فعاد الخليفة واسترجع السيف بدنانير أكثر. وظل الخلفاء يتوارثونه حتى آلَ إلى المتوكل عاشرِ خلفاءِ بني العباس، فأهداه إلى قائدِهِ باغر، وبهذا السيف قُتِل الخليفةُ المتوكل. هذا قاله ابن نباتة في سرح العيون. أظنك مثلي لا تصدق كل ما يرد في الكتب القديمة؟

بكاء الرشيد

أنشد أبو العتاهية يوماً في مجلس هارون الرشيد قصيدة قال فيها:

سيصيرُ المرءُ يوماً ... جسداً ما فيه روحُ
كلُّنا في غفْلةٍ ... والموتُ يغدو ويروحُ
نُحْ على نفسِك يا ... مِسكينُ إن كنت تنوحُ
لستَ بالباقي وإن ... عُمِّرتَ ما عُمِّرَ نوحُ

فبكى الرشيد.

الخيزران ومُزنة

كانت الخيزران - أمُ هارونَ الرشيد - جالسة في قصرها وحولها النساء. فدخلت الوصيفة وقالت: أعز الله السيدة! بالباب امرأةٌ يبدو أنها ذاتُ نعمة، ولكنها في ثوب بال ممزق، وتريد الدخول. قالت الخيزران: أدخليها. فدخلت المرأة، ووقفت بجنب عُضادة الباب، وسلمت بكلام مبين بليغ. وقالت: أنا مزنة زوجة مروانَ بنِ محمد - وهذا آخرُ خلفاءِ بَني أمية الذين زالت دولتُهُم قبل بضعة عقود -، قد بلغ من حالي أنني لا أجد القوت ولا الملبس، فقصدتكم. نظرت إحدى النساء إليها وقالت: أنت مزنة! فهل تتذكرين دخولي عليك قبل ثلاثين سنة وأنت زوجةُ الخليفة؟ رجَوْتُكِ أن تَسعَيْ في تسليم جثمانِ إبراهيمَ الإمام، أتذكرين كيف نَهَرتِني وأمرتِ بإِخراجي؟ قالت مزنة: ما أدى بي إلى هذه الحال إلا تلك الفعال. قد رأيتِ ما صنع الله بنا، أفتُريدينَ أن تصنعي مثل صنعنا؟ قالت هذا وولت باكية. فبكت الخيزران زوجةُ المهدي وأمُ هارونَ الرشيد، وبعثت وراء مزنة جاريةً لتمنعَها من الخروج وتحسنَ إليها. عادت الجارية فسألتها الخيزران: ماذا كان من مزنة بعد أن خرجت؟ قالت الجارية سمعتها تقرأ قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾. فجعلت الخيزران لمزنة مكاناً في القصر. ثم قضى الخليفة المهدي حقها، وألحقها بنساء بني العباس، وعاشت مزنة في بيوت بني العباس في عهد المهدي وابنه الهادي وماتت في زمن هارون الرشيد.

نعلا الكسائي

رأى هارونُ الرشيدُ مِن شُرفة قصرِه الكسائيَّ جالساً في الفناءِ وبين يديه الأمينُ والمأمونُ يؤدِّبُهما. وانتهى الدرس، فأسرع الصَبيَّان إلى نعليِ الكسائي، وجاء كل منهما بنعل وقدَّمَها إلى الأستاذ. وبعد أيام كان الكسائيُّ في مجلس الرشيد، فسأله الخليفة: من أعظمُ الناس قدراً وأعلاهم شأناً؟ قال الكسائي:

لا أحد يُماري في ذلك، هذا أمير المؤمنين. فقال الرشيد: بل أعظمُ الناس قدراً مَنْ يَتَسابق وَلَدا الخليفة لإحضارِ نعليه.

الغضبة الخالدة

غضب هارون الرشيد على عبدِ الله الخزاعي لقول بلغه أن الخزاعي قاله، وأمر الرشيد خواصَّ جلسائه ألا يكلموا الخزاعي في شيء. وإن هي إلا أيام حتى وجد الخزاعي أن الناس كلَّهم أخذوا يتجنبونه، ولا يردُّون عليه السلام، ووصل الأمر إلى أخص أصدقائه وأقربائه: لا يدنو أحد من بيته، ويبتعد عنه كلُّ أحد رآه. فضاقت عليه الأرض بما رحبت. زاره صديق له في جوف الليل، وقال له: يا خزاعي، لقد أحسنتَ إليَّ يوماً، ولن أنسى معروفك. وقد علمت ما جرى لك. وها إني بين يديك، فقل لي ما يمكنني أن أفعل، فوالله لأجعلنَّ نفسي وقايةً لك، وكما علمت فإنني أحضر مجلس أمير المؤمنين. قال له الخزاعي: ما نُقِلَ إلى الرشيد كان وشاية. نقل إليه عني قول لم يجر به لساني. في اليوم التالي حضر صديق الخزاعي باب الرشيد فأُذن له. فعاجله الرشيد بالقول: أين كنت هذه الليلة؟ فتيقن الرجل أن الرشيد قد جعل على بيت صاحبه الخزاعي أرصاداً. قال: كنت يا مولاي عند عبدك الخزاعي، أتبيَّنُ عذرَه إن كان له عذر، فوجدته يحلف بطلاق نسائه وعِتقِ مماليكه، وبأن يسير حافياً إلى مكة إن كان صح ما بلغ أميرَ المؤمنين عنه. نظر الرجل إلى وجه الرشيد فرآه يشرق مرة ويتجهم أخرى. ثم إن الرشيد رفع رأسه وتطلَّق، وقال: أحسبه صادقاً، فقل له يغدُ علينا. فأسرع الرجل وأبلغ الخزاعي برضا الرشيد عنه، فبكر الخزاعي إلى باب الرشيد. فلما أُذن له استقبل القبلة وسجد، ثم استدناه الرشيد فدنا وعيناه تهملان، وقبل البساط بين يدي الرشيد وقبل رجليه وموطئ قدميه، وقام يريد أن يعتذر. فقال له الرشيد: قد بان عذرك وعرفته.

ومع الأيام ازدادت ثقة هارون الرشيد بإخلاص الخزاعي. ولكن، ظل الخزاعي يرى في وجه الرشيد انقباضاً لم يكن يراه في سابق الأيام. فكلَّم

صديقه مرة أخرى. فعندما اختلى صديقُه بالرشيد، قال: يا أمير المؤمنين عبدُك الخزاعي يرى أثراً باقياً من تلك النَّبْوة. قال هارون الرشيد: إنَّا معشرَ الملوك إذا غضبنا على أحدٍ من بطانتنا ثم رضينا عنه، بقي لتلك الغضبةِ أثر لا يخرجه ليل ولا نهار.

سجين الرشيد

حبس هارون الرشيد رجلاً من المتمردين على حكمه. ثم تذكَّره فجأة، وتعجّب من نفسه كيف لم يقتلْه فوراً بدل أن يحبسه، هذا رجل عاصٍ خارجٌ متمرد. وتفاقم الغضب في نفس الرشيد حتى إنه أراد للرجل ميتة فظيعة. فدعا حارسه وأمره أن يذهب إلى السِجن فيخرجَ الرجل، ثم يحملَه إلى موضع في الصحراء فيحفرَ له حفرة عميقةً ويجعلَه فيها ويدفنَه حيّاً. وحتى يستوثق الرشيد من تنفيذ أمره قضى بأن يذهب مع الحارس رجال. وكان بين هؤلاء الرجال حدّادٌ كان شُغلُه تقييدَ العصاة بالحديد وفكَّ القيود عمن يعفو عنه الخليفة. فذهب القوم، وأخرجوا الرجل من السِّجن مقيداً بقيودٍ من حديد في يديه ورجليه، وحملوه على دابة إلى الصحراء، وحفروا له. قال حارس الرشيد (وهو الذي روى القصة بعد موت الرشيد): «رأيناه عندما أخرجناه من السجن شاباً حسن الوجه له طلعةٌ كالقمر. وقلت في نفسي: لو كنت وحدي لوجدت إلى إنقاذه سبيلاً. أما ومعي هؤلاء الرجال فلا. ذهبنا، وكنت أتحاشى أن أنظر في وجهه خجلاً، فأنا أعرف أن هذا الوجه سيأكله التراب عما قليل، وعلى يديّ». عندما استكمل الرجال الحفر. قال لهم السجين اتركوني أدعو الله، ثم افعلوا ما بدا لكم. نظر الحدّاد إلى قيوده. فقال في نفسه: هذا رجل سيموت بعد قليل، فلماذا ندفن القيود معه. أنا والله أولى بها. أفكّ القيود وأبيعها في السوق. تقدم الحدّاد من الفتى وفكّ القيود من يديه ورجليه. فرفع الفتى يديه ودعا: (يا خفيَّ اللطف أغثني)، وكررها مرات. وما إن أتم دعاءه حتى هبّت ريح سافية. ودخل الرمل في عيون القوم، وأخذوا يتّقونه بأرديتهم. ثم سكنت الريح وإذا الرجال واقفون وليس بينهم السجين، وتفرقوا في كل اتجاه يبحثون

عنه، فلم يجدوا له أثراً. وعادوا إلى الرشيد، ولم يجدوا بداً من الصدق. فقصوا عليه ما حدث. فقال الرشيد: لقد تداركه اللطف الخفي. وصار هارون الرشيد يدعو بهذا الدعاء كلما واجهته ملمة.

أجود من غناء الموصلي

المَوْصلُ في العراق كحلبَ في الشام: كلتاهما منبَع الطرب والغناء. وتشاء الأقدار أن تُهدما هدماً ذريعاً في الزمن الأخير. وكان إبراهيم الموصلي سيدَ المغنين في بلاط هارون الرشيد. طلب الموصلي من الرشيد طلباً جريئاً، قال له: يأذنُ لي أميرُ المؤمنين بيوم أخلُد فيه إلى الراحة في منزلي. قال الرشيد: ليكن يوم السبت، فإنني أجده ثقيلاً على نفسي. وحان السبت وجلس إبراهيم الموصلي في منزله. قال لخدمه: اليومَ لا يأتينا رسول أمير المؤمنين، فغلِّقوا الأبواب ولا تُجيبوا طارقاً. هذا اليومُ لي. وجلس وحوله خدمُه يطوفون عليه بألوان الطعام والشراب. ثم إن إبراهيم قام لبعض شأنه، وعندما رجع إلى مجلسه وجد شيخاً ذا لحية بيضاء واقفاً بإزائه، فتبين الغضب في وجهه، ورشق خدمه بنظرة شزراء. ثم أخذته مهابةُ هذا الشيخ فدعاه إلى الجلوس. ودعاه إلى الطعام فأبى. قال الشيخ: ألا غنَّيتنا يا إبراهيم؟ ننقل الآن الكلام إلى لسان إبراهيم الموصلي: «غضبت غضباً شديداً، فما اكتفى هذا الزائر الثقيل بأن طلب مني الغناء حتى سمَّاني باسمي دون كنيتي. لكنَّ حسن الأدب غلب علي. فأصلحت العود وغنيته صوتاً. فقال: أحسنت. فوالله ما اغتظت من كلمة (أحسنت) إلا عندما سمعتها منه. ثم قال: زدني، فقلت في نفسي: هذا رجل ثقيل أدخله الخادم رغم كل تحذيري، فكأن الخادم شعر بالخجل، ولا والله لا أكون أقل حياء من الخادم. سأغني أحسن ما عندي، ليس من أجل هذا الثقيل، لكن من أجل أن أُطرب نفسي وأنسى وجودَه في مجلسي. فغنيت حتى لقد رأيت الغلمان يتمايلون من الطرب، والشيخ ساكن في جِلسته. فما فرغت حتى قال: هذا حسن. وهناك أحسن منه. فما تمالكت نفسي حتى

قمت إليه ووضعت العود في حجره مغضَباً حنِقاً. قلت في نفسي: لعله يعتذر ثم يقوم وينصرف. فمس وتراً بعد وتر ثم انطلق يغني:

وَلـي كَبِدٌ مقروحةٌ من يبيعُني ... بِها كَبِداً ليستْ بِذاتِ قُروحِ
أَباها عليَّ الناسُ لا يشترونُها ... ومَن يشتري ذا عِلَّةٍ بِصحيحِ

فوالله لقد خلت الحيطان تتمايل طرباً، وسمعت غناءه يتجاوب في أضلاعي. ثم غنى صوتاً ثانياً فكاد عقلي يذهب من حسن غنائه. وختم بصوت:

ألا يا صَبا نَجدٍ مَتى هِجْتِ مِن نَجدِ
لقد زادني مَسراكِ وَجْداً على وَجْدِ

فأغمضت عيني استعيد هذا الغناء، وأنا في نشوة. قلت له وعيناي مغمضتان: أَعِدْ عليَّ بالله عليك. فقال لي: لا بأس عليك، قد حفِظْتْ. وفتحت عينيَّ وقمتُ أريدُ أن أُقَبِّلَه بين عينيه، فوجدته قد انصرف. فجرَيْتُ إلى الباب فإذا هو مقفل. وسألت الخدم: أين الشيخ؟ فقالوا: أيُّ شيخ؟ فكاد يذهب عقلي. وإذا صوت يأتيني من سقف المنزل ويقول: أنا إبليس، فانْحُ في غنائك هذا النحو. فقمت من فوري وقصدت قصر الرشيد، وطلبت الإذن، فعجب الرشيد مني، أطلب الإذن عليه في يوم كنت طلبت أن أخلو فيه إلى نفسي. مثلت أمام الرشيد وحدثته بما جرى، فقال أعد عليَّ الغناء، فأعدته عليه لم أنس منه شيئاً. قال الرشيد: هذا الغناء لا يكون إلا من ذلك الملعون.

الحقود

جيء إلى الرشيد برجل اقترف ذنباً، فقال له أحد من بالمجلس: بلغني أنك حقود. فقال الرجل: إن كان الحقد بقاءَ الخير والشر، إنهما لباقيان في صدري، فصدري خِزانة تحفظ ما استودعت من خير، ولا تنسى الإساءة. فقال الرشيد: ما رأيت أحداً احتجَّ للحقد بمثل ما احتججت.

رزق بُهلول

خرج هارونُ الرشيد ينوي الحج، وفي الكوفة أبصر رجلاً معتوهاً يجري والصبيةُ وراءه. فسأل، فقيل له: هذا بُهلول. قال الرشيد: كم اشتهيت أن أراه! فوقف الموكب بجلاله، وأحضر حرس الخليفة بُهلولاً فوقف بإزاء جمل الخليفة، والخليفة في هودجه. قال الرشيد: السلام عليك يا بُهلول. قال: وعليك السلام يا هارون. قال: كم اشتهيت أن أراك! قال: أنا لم أَشْتَهِ رؤيتَك. قال الرشيد: عِظْني يا بُهلول. فأشار بهلول إلى قصور بعيدة، ثم أشار إلى مقبرة قريبة، وقال تلك قصورهم، وهذه قبورهم. قال الرشيد: فإنا قد أمرنا أن يُجرَى عليك الرزق. قال بهلول: أترى أن الله رزقك ونسيني؟ ثم ولَّى يعدو.

الأصمعي المعلِّم

دخل الأصمعي على الرشيد بعد غيبة، فسأله: يا أصمعي، كيف كنت بعدي؟ قال: يا أمير المؤمنين ما لاقَتْني بعدك أرض. فتبسَّم الرشيد. فلما انفض المجلس قال الرشيد للأصمعي: ما معنى قولك «ما لاقتني أرض؟» قال الأصمعي: ما استقرت بي أرض، يقولون فلان لا يَليق مالاً أي لا يستقر بيديه مال. قال الرشيد: لا ينبغي أن تكلمني والناس حاضرون إلا بما أفهمُه، فإن خلوت بي فعلِّمني، فإنه قبيح بالسلطان أن يقال أمامه كلام لا يفهمه. فهو إن أجاب انكشف جهله، وإن سكت ظنَّ الحاضرون به الجهل. قال الأصمعي، حين روى الحكاية بعد موت الرشيد: قد والله علَّمَني أكثرَ مما علَّمْتُه.

فِطنة الرشيد

دخلت امرأة من البرامكة على مجلس الرشيد ـ بعد إذ نَكَب أهلَها ـ تطلب حقاً من حقوقها، وقالت: يا أمير المؤمنين أقرَّ الله عينك، وفرَّحك بما آتاك، لقد حكمت فقسطت. فأدى الرشيد إليها حقها وخرجت. فالتفت الرشيد إلى أهل مجلسه قائلاً: أتدرون ما قالت؟ قالوا: قالت خيراً. فقال لهم الرشيد:

أما قولُها أقرَّ الله عينك، فتعني أسكنها، والعين إذا سكَنَت عميت. وأما قولها فرَّحك بما آتاك فمن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾، وأما قولها حكمت فقسطت فمن قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، فتعجب الناس من فطنة الرشيد، ومن سماحته عندما أرضى تلك المرأة.

المغنية البلهاء

تولى الأمين الخلافة بعد أبيه هارونَ الرشيد، فهذا هو الخليفةُ العباسي السادس. ثم اختلف مع أخيه المأمون الذي كان بخراسان، وأراد خلعَه من ولاية العهد. ونشِبت الحرب بينهما. زحف جند المأمونِ على بغداد، وحوصر الأمين. وفي الحصار طلب الأمين من مغنية أن تغنيَه، فغنت:

كليبٌ لَعَمْري كان أكثرَ ناصراً ... وأَيْسَرَ جُرْماً منكَ ضُرِّجَ بالدَّمِ

فقال لها كفّي عن هذا وغني غيره، فغنت:

شَكَتْ فراقَهُمُ عيني فأَرَّقَها ... إنَّ التفرُّقَ للأحبابِ بَكَّاءُ

فقال لها: عليك لعنةُ الله، أما تعرفين غير هذا، فاضطربت المغنية، وغنت ما خطر ببالها:

ما اختلفَ الليلُ والنهارُ وما ... دارتْ نجومُ السماءِ في الفَلَكِ
إلَّا لِنقلِ السلطانِ مِن مَلِكٍ ... قد غابَ تحتَ الثَّرى إلى مَلِكِ

فصرخ بها الأمين: قومي عليك اللعنة. فقامت فتعثرت ببساط فوقع قدح بلور فانكسر، فتم الشؤم. وما مضت أيام حتى قبض على الأمين وقتل.

بين المأمون وطاهر بن الحسين

اشتد الخلاف بين المأمون ولي العهد ووالي خراسان، وبين أخيه الأمين الخليفةِ ببغداد. وخلع الأمين المأمون من ولاية العهد، فأرسل المأمون جيشاً

على رأسه طاهرُ بنُ الحسين، ووقعت الحرب. دخل طاهرٌ بغداد وضيق الخناق على الأمين حتى قَبَضَ عليه وقتله. وتولى المأمون الخلافة، وكافأ طاهراً بأن جعله والياً على خراسان. لكن الخليفة المأمون حمل في قلبه كُرْهاً لطاهر، لأنه قتل أخاه، واضطَغَنَ عليه أيضاً تحسُّباً وخوفاً، فمن قتل الخليفة أمس قد يُحِسُّ في قلبه قَوَّةً فيسعى في قتلِ الخليفة غداً. أرسل المأمون إلى خراسان وصيفاً، بليغَ اللسان، حسنَ الأدب، ذكياً، وأرسل معه الألطافَ والهدايا لطاهر، وأعطاه سُمَّاً يقتلُ من يتناوله لساعته. وأوصاه أن يتقرَّبَ من طاهر حتى يصبحَ مِن خَواصِّ خَدَمِه، ثم يتحينَ الفرصة لدس السم في شرابه. وصل الغلام إلى خراسان ودخل على طاهر وأبدى له الولاء والخضوع. قبل طاهر الهدية، وأبعد الغلام، فكان الغلام يسعى إلى مجلس طاهر فيأمره بلزوم حجرته. فقال له الغلام: ألا تقبلُ خِدمتي وولائي؟ فسكت طاهر. ثم مرت أيام، واستدعى طاهرُ بن الحسين الغلام إلى مجلسه. دخل الغلام فوجد الأمير جالساً على حصير وحده وبيده سواك، وأمامه مصحف منشور، وعلى المصحف سيف. قال له طاهر: الزم مكانك عند الباب. ثم رفع طاهر يده بالسواك وقرع رأسه، وقال للغلام: الآن تعود من فورك إلى بغداد. عاد الفتى وأخبر المأمونَ بما رأى. فقال المأمون لجليس من خواص جلسائه: أتعلم تفسيرَ ذلك؟ قال الجليس: عجيب هذا الذي فعله طاهر. قال المأمون: قرع رأسه بالسواك علامة على الخضوع والطاعة، ونشر المصحف بين يديه يذكرنا بما بيننا من عهود، وجعل على المصحف سيفاً، كأنما يقول: إن نكثنا العهد فهو السيف بيننا. وترك المأمون طاهر بن الحسين والياً على خراسان حتى توفي قبل المأمون.

المأمون والشعر

التقى شاعران في زمن الخليفة المأمون، فقال أحدهما للآخر: أتدري! الخليفة لا بصر له بالشعر، ولا يعرف جيده من رديئه. قال له صاحبه: ويحك! والله إنه لَيعرف آخر البيت إذا سمع أولَه، وما علمت أحداً له بالشعر معرفةٌ

كالمأمون. قال له: لقد أنشدتُه قصيدة فيها بيتٌ ما مُدح بأحسنَ منه امرؤٌ قط، لقد جعلتُه إمامَ الهدى، وجعلت الدين يملأ قلبه وعقله. وسمع البيت فما اهتز له، ولا تبيَّن في وجهه انشراح، قلت:

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغلاً
بالدين، والناسُ بالدنيا مشاغيلُ

فقال له صاحبه: «أوتَعُدَّ هذا مدحاً، والله ما هو إلا الذمُّ بعينه. خليفةٌ يسوس أمور الناس ويعالج دنياهم، وتصفه بأنه منشغل عن الدنيا؟ من يقوم بأمر الناس إن كان عنهم مشغولاً؟ ويحك ما زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها، بيدها سُبحة».

رأي يحتمل الخطأ والصواب

قال الخليفة المأمونُ لجلسائه يوماً: ما طالتْ لحية إنسان قطُّ إلا نَقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته. وأخذ الشاعر المعنى فقال:

إذا عَظُمتْ لِلفتى لحيةٌ فطالتْ فصارتْ إلى سُرَّتهْ
فنُقصانُ عقلِ الفتى عندها بِمِقدارِ ما طالَ مِن لِحيَتِهْ

القاضي يرفع المفعول به

كان القاضي يحيى بنُ أكثم عند المأمون فدُعِي بالشراب، فقد أحل فقهاء العراق نبيذ التمر. فأوعز المأمون إلى الساقي أن يواليَ الكؤوس للقاضي، فسكر القاضي وترنح. وكان في المجلس ورد كثير ورياحين، فشقوا في الورد شبهَ حفرة، وحملوا القاضي ووسَّدُوه فيها، وغَطَّوْهُ بورق الورد والرياحين. فأمر المأمون الجارية أن تغني بالبيتين:

ناديتُهُ وَهْوَ مَيْتٌ لا حَراكَ بِهِ
مُكَفَّنٌ في ثيابٍ مِن رياحينِ

وقلتُ قُمْ، قال رِجلي لا تُطاوعُني
فقلتُ خُذْ قال كَفِّي لا تُواتِيني

وجعلت الجارية تردد هذا الغناء، فأفاق يحيى بن أكثم، ورفع رأسه من بين الرياحين، وقال:

يا سيدي وأَميرَ الناسِ كُلِّهِمُ
قد جارَ في حُكْمِهِ مَن كان يسقيني
إنِّي غَفَلْتُ عنِ السَّاقي فَصَيَّرَني
كما تراني سليبَ العقلِ والدينِ
لا أَستطيعُ نهوضاً قد وَهَى بَدَني
ولا أجيبُ المُنادي حين يَدعوني
فاخترْ لِنفسِكَ قاضٍ إِنَّني رَجُلٌ
الراحُ تَقتُلُني والعُودُ يُحيِيني

قال (اختر لنفسك قاضٍ)، والوجه أن تكون قاضياً. لكنه كان سكران.

طفيلي.. ليس مثلهم

في أيام الخليفةِ المأمون كان رجل كبيرُ السن يذهب إلى خرائب قصور البرامكة الذين نكبهم الرشيد أبو المأمون، ويقف عندها ويبكي. وبلغ الخبرُ الخليفة، فأرسل الحرس ليحضروا الرجل. كَمَنوا له طويلاً حتى رأوْه يأتي إلى جدار القصر المهجور، ويجلس عنده ويبكي بحرقة. انقضَّ الحرس عليه، وساقوه إلى الخليفة. قال له المأمون: قد زالت دولةُ البرامكة، فما وقوفُك بخرائب بيوتهم؟ فقال: دخلت بغداد قبل سنين طويلةٍ فقيراً معدِماً، ومعي عشرون من أهلي وعيالي لا نجد ما نأكله. وليس معي إلَّا عباءةٌ حسنة ادَّخرتُها أَتجمَّلُ بها. لبست عباءتي وتركت عيالي في المسجد، وبينا أنا أمشي في بغداد حائراً أبحث عن باب رزق، رأيت موكباً من الكُبراء فانضممتُ إليهم.

وسرْنا، وأنا خائف من تطفلي، أخشى أن يُكشف أمري فأطردَ شرّ طِردة. دخلوا قصراً فدخلت معهم، وجلسوا فجلست. وإذا نحن نشهد عَقد زواج لولد من أولاد يحيى البرمكي. ورأيت يحيى جالساً في الصدر. وعُقد القِران، وطاف الخدم على الضيوف يعطُونَ كُلَّ واحدٍ مِمَّن حضر طبقاً من الذهب فيه قطعة عنبر. فتناولت طبقي وأنا هائب ووضعته أمامي. ثم قام القوم وأخذ كل واحد طبقه. فمددت يدي أريد الطبق، فنبض عرق في يدي. وهذا عرق ينبض كلما مددت يدي إلى طعام حرام أو مال حرام. وأنا متطفل، وهذا الطبق حرام عليّ. فقمت وتركت الطبق الذهب. وعندما اقتربت من الباب أريد الخروج ردّني الخدم ومنعوني. وساقوني إلى يحيى البرمكي. أجلسني يحيى بجانبه وقال لي: لك شأن يا بني! فبكيت، ثم قصصت عليه قصتي، وأن أهلي بالمسجد جوعى، وأنني دخلت بيته بلا دعوة. فبكى يحيى البرمكي ونادى أحد أولاده وهمس في أذنه. فأخذني وسار بي من دار إلى دار، حتى أسكنني داراً فاخرة. واستحيت أن أطلب الخروج، وبت ليلتي على فراش وثير والندم يأكلني: ما كان ضرَّني لو أخذت الطبق الذهب، ومضيت إلى عيالي؟ وفي الصباح أفقت على صوت وراء السِتر، فنحَّيته فإذا عيالي، وقد لبسوا أحسن لباس. وعرفت أن يحيى البرمكي أمر بإحضارهم من المسجد، ولم يجمعني بهم إلا بعد أن أزالت النسوة عنهن وعثاء الفقر واغتسلن، وغسلن العيال. واستأذنت في الخروج بعيالي فقال لي البرمكي الإبن: بل تخرجُ إلى دار حسنة هيأناها لك. وأعطاني مالاً عظيماً. وبقيت في خدمة البرامكة، حتى نكبهم أمير المؤمنين الرشيد، فتأخرتْ حالي وصرت إلى الفاقة. عندما وصل المنذر إلى هذا الحدّ من حكايته قال له المأمون: نردُّك إلى مكانتك، ولا نقصر معك. وفيت لهم وتفي لنا بإذن الله، الوفي لا يمكنه إلا الوفاء.

التفقُّد

كان الزيادي كاتباً من صغار كتبة الديوان ببغداد، له حال بسيطة، وصُرف من عمله. وقد ضاقت به الأمور وركبه الدين، وصار الخباز والبقال والقصاب

والعطار يطالبونه بما لهم عليه من مال، ثم قطعوا معاملته. واشتدّ ذلك عليه وجلس في بيته. ذات يوم جاءه رجل من خراسان في طريقه إلى الحج. فقال له: دَلَّني قوم عليه، وقالوا إنك رجل أمين. وأريد أن أترك هذا الكيس عندك حتى أعود من حجّي، وفي الكيس ألف درهم. فأخذ الزيادي الكيس، ومضى الخراساني. وراح الزياديّ من فوره يسدّد ديونه مما في الكيس من المال، ووسَّع على عياله في النفقة. قال لنفسه: ما إن يعودُ الخراساني من حجه حتى يفرِّجَ اللهُ ما بنا من ضيق. وفي اليوم التالي إذا الخراساني بالباب يقول: وردني من خراسان أن أبي توفي، ولا سبيل إلى المضيّ، سأحج في العام المقبل. وأنا راجع إلى خراسان، فأعطني دراهمي. فوجم الزيادي هنيهةً، ثم قال للرجل: عد إليَّ غداً فقد وضعت دراهمك في مكان بعيد. وتحيّر الزيادي ماذا يصنع. وفي المساء ركب دابته ومضى بها على وجهه لا يدري أين يذهب. فأرادت الدابة أن تعبر الجسر فجذبها من عِنانها، ولكنها وقفت وأبت أن تسير، فنزل وراح يجرّها ولكنها حَرَنت ولم تتحرك. فركب الزيادي مرة أخرى وترك الدابةَ تسير أنى شاءت، فعبرت الجسر. ومضت به في دروب لا يعرفها وهو غارق في فكره. وهبط الظلام، ولم يعد في الدروب أحد. وفجأة أبصر ركباً عظيماً ومعهم المشاعل يأتون في اتجاهه، فتنحّى لهم حتى يمرّوا. ومرّ الركب به ثم وقفوا. ورجع إليه أحدهم وبيده شعلة تبدد ظلام الليل وسأله: أتعرف أبا حسان الزيادي. فقال له: أنا هو. فصاح الرجل بالموكب: هذا هو بعينه. فأخذوه معهم إلى الخليفة المأمون. فتعجب الخليفة كيف عثروا عليه بهذه السرعة. قالو له: يا أمير المؤمنين، سألنا أول رجل لقيناه عن اسمه. فإذا هو هو. فوجم المأمون وقال: هذا مقدَّر. ودفع إلى الزيادي رقعة فيها حكمةٌ بخط حسن: (من تفقَّد الناسَ تَفقَّدَهُ اللهُ بِلطفِه). وقال له: أليس هذا خطُّك؟ قال الزيادي: بلى يا أمير المؤمنين. قال المأمون: كانت هذه الرقعة في قعر كيس رِقاع الولاة، رقعةٌ ليس فيها شكوى ولا طلب، ولا هي في مكانها، وقلت «ما وقعتْ في هذا المكان إلا لسبب»، وعرضناها على الكتاب فقالوا: «هذا خط الزيادي، كان في الديوان وكان كسولاً، غير أنه أمين صادق، وما حاجتنا إلى أمانته

وصدقه مع كسله، فصرفناه». فقلت في نفسي: لا بد أن أتفقَّدَك، فأمرت بطلبك. فقل لي: ما شأنك؟ قال الزيادي: هذه الرقعة كنت أضعها أمامي وأنا أعمل في الديوان، وتركتها في مكانها عندما صُرِفت من عملي. ثم قصَّ الزيادي على الخليفة قصة فقره وقصةَ الخراساني، وقصة دابته التي أبت إلا عبور الجسر، وأقر بتهاونه في العمل. قال المأمون: بل نحتاج إلى الأمين الصادق. وأعطاه مالاً خلصه من ورطته، وأعاده إلى الديوان. فنشط فارتفعت حاله ببركة عبارة (من تفقد الناس تفقده الله بلطفه).

اعتِداد

تولى الخليفة المأمون عشرين سنة، وكان رجلاً مثقفاً عالماً بالشريعة، وبالشعر، ملماً بعلوم عصره. وكان متواضعاً، ومترفعاً عن سفك الدماء. لكنه كان معتداً بنفسه. قال مرة: معاويةُ بعَمْرِه، وعبدُ الملكِ بحَجَّاجِه، وأنا بنفسي. يقصد أن معاوية بن أبي سفيان كان يشُدُّ مُلْكَه بِعمروِ بنِ العاص، وأن عبدَ الملكِ بنَ مروان شَدَّ مُلْكَه بالحجاج بنِ يوسف، فأما هو، أي المأمون، فهو يشد ملكه بنفسه.

المأمون فارضاً

رويَ أنهم أوصلوا إلى المأمون امرأة رأوا أنها مظلومةٌ ظلماً بيِّناً. مَثُلَتْ بين يديه، وقالت: يا أمير المؤمنين، مات أخي وخلَّف ستَّمئةِ دينار، فما أعطوْني منها سوى دينارٍ واحد. فأطرق المأمون هنيهة، وأخذ يحسب في عقله. ثم قال لها: أخوك خلَّف أربع بنات. قالت: نعم. قال: فلهن أربعمئة دينار. وأمُّه على قيد الحياة؟ قالت: نعم، فقال: لها مئةُ دينار. وخَلَّف زوجةً؟ قالت: نعم. قال: فلها خمسةٌ وسبعون ديناراً. ثم قال لها المأمون: بِالله أليس لكِ اثنا عَشَرَ مِنَ الإِخوة الآخرين سوى المتوفَّى. قالت: نعم والله. فقال: لكل أخ ديناران. ويبقى لك دينار.

وها هي الحسبة: أربع بنات: ٤٠٠ دينار + الأم: ١٠٠ + الزوجة: ٧٥ + الإخوة: ٢٤ = ٥٩٩ وللأخت الوحيدة: دينار واحد. قرأت القصة في كتاب فوات الوفيات للكتبي. أن يكون المأمون حسب الحسبة في عقله غير مستحيل، لكنه أمر مستبعد.

المأمون وكاتبه

كان أبو العباس كاتبُ المأمون يقرأ على الخليفة رِقاعَ الشكوى، فمرَّ برقعة للوالي البريدي، فقرأ: الثريدي. فقال المأمون: هاتوا ثريداً لأبي العباس فقد جاع. فجيء بالثريد وأكل الكاتب. ثم مضى يقرأ، فمر برقعة لرجل يقال له الحِمْصي، فقرأ: الخبيصي. فأمر المأمون له بخبيص، وهو حلوى من تمر وسمن. وعزم عليه أن يأكل فأكل، وهو يتصبب عرقاً. ثم لم يخطئ بعدها أبداً.

بَطَحوه بطحاً

كان الخليفة الواثق مغنياً وملحناً. ونحكي عنه قصة وهو بعدُ وليُّ عهد. انطلق أبوه المعتصم مع الجيش في غزوة عَمُّورِيَّةَ المشهورة، وأجلس الواثق مكانه على سريرِ الخلافة في سامرَّاء نائباً. جمع الواثق المغنين في القصر وقال لهم: اليومَ نغني ونطرب وأنا معكم كواحد منكم. نزل الواثق عن سرير المُلك، وقعد في حلْقةٍ مع المغنين، وبينهم المغني المشهور إسحقُ الموصلي. وبدأ الواثق بنفسه فضرب على العود وغنى، ثم مرر العود إلى من يليه فضرب وغنى، ووصل العود إلى إسحق الموصلي فلم يأخذ العود بل مرره إلى من بجانبه. ودار العودُ دورة أخرى، وغنى كل منهم خير ما عنده، واستعفى إسحق. ومرة ثالثة دار العود دورته واستعفى إسحق الموصلي. فوثب الواثق من مجلسه وقعد على سرير الملك، وقال لهم اخرجوا عني. ثم أمر الحجاب بإدخال المغنين واحداً واحداً، وأوقفهم عند الجدار، وأمر بإدخال إسحق آخِراً. فقال له: يا كذا يا ابن الكذا، وشتمه شتماً ذريعاً. أتظنُّ أميرَ المؤمنين كان يقتلني بك لو أنني قتلتك؟ أيها الحرس ابطحوه. وبطح الحرس إسحق على بطنه

وضربوه ثلاثين عصاً. ثم أمر الواثق المغنين بالقعود، وأمر إسحق أن يغني وحده حتى يهبط الليل. فغنى. أنا سعيد بهذه القصة جداً، فإني خبرت المغنين ورأيتهم أكثر خلق الله زهواً وعُجْرُفِيَّةً.

الواثق بالله والمَرْت

رأى الخليفة الواثق في نومه قائلاً يقول له: لا آخرةَ لمن قلبُه مَرْتٌ من الإيمان. صحا الواثق، وسأل من عنده عن مِعنى «مَرْت»، فما عرف أحد. ثم في مجلس آخر طلب أبا محلِّم الشيباني وسأله. قال أبو محلِّم: المَرْتُ الأرض القفْرُ لا نَبتَ بها. قال الواثق: أليس على الكلمة بيت شعر؟ فوَجَمَ أبو محلِّم. فانبرى أحد الحاضرين وقال: قال بعض بني أسد: (ومرتِ مَرُوراتٍ يَحارُ بِها القطا.. ويُصبِحُ ذو علم بها وهو جاهلُ).

فتبسَّم أبو محلم، وقال: ربما بَعُدَ الشيء وهو أقرب إلى الإنسان من كُمِّه. والله لا أبرح حتى أنشدك يا أمير المؤمنين. وانفتحت ذاكرة أبي محلِّم على مصراعيها، ومضى ينشد أبياتاً وردت فيها كلمة المرت حتى عدَّ من بالمجلس عشراتِ الأبيات. فأجازه الواثق بألف دينار. وقال بعضهم بمئة ألف دينار. الرواة هكذا، لا أحد يدفع من جيبه.

بين قاض ووزير

كان للخليفة الواثق وزيرٌ وقاضٍ للقضاة: الوزير هو محمدُ بنُ عبدِ الملك الزيات، وكانت له مكانة كبيرة عند الخليفة. كان قاسياً، يحبس الناسَ ويعذبُهم. نصبَ في قصره قفصاً من حديد، كأنه تنور، يضع فيه المسجون ويشعل حوله النار، فلا السجين يموت ولا هو يعيش، وكان بالتنور مساميرُ تمنع السجين أن يجلس، فكان يظل على هذه الحال حتى يموت. وكانت للوزير الزيات كلمةٌ مشهورة: (الرحمة خَوَر في الطبيعة). أي أن الرحمة ضعف. ذات مرة طلب منه الخليفة أن يؤدِّبَ الأميرَ جعفر أخا الخليفة. فاستدعى الوزير الزيات

الأمير، وطلب من حرسيٍّ أن يقص شعره المسترسل، ورمى بالشعر المقصوص في وجه الأمير. لكن الخليفة كان راضياً عن وزيره الزيات رغم قسوته. لا بل إنه طلب من قاضي القضاة أحمدَ بنِ أبي دؤاد أن يقف للوزير كلما دخل عليه. دخل الوزير مرة على القاضي قبل الظهر، فوقف القاضي وقال: الله أكبر، وبدأ يصلي. فهو قد قام للصلاة وليس للوزير، فأطاع أمر الخليفة ولم يذعن للوزير، فقال الوزير ابن الزيَّات، وكان شاعراً:

صلَّى الضُّحى لَمَّا استفادَ عَداوَتي
وأَراهُ يَنسِكُ بعدَها ويَصومُ
لا تَعدِمَنَّ عَداوَةً مَأجُورة
تركتْكَ تَقعُدُ تارةً وتَقومُ

ومات الخليفة الواثق. وأسرع قاضي القضاة إلى جعفر أخي الخليفة الشاب، فعمَّمه بيده وقبله بين عينيه، وأشهد الفقهاء على أنه تولى الخلافة، وكتب بذلك إلى الآفاق. هذا هو الخليفة جعفر المتوكل. هذا هو الأمير الذي رمى الوزير ابن الزيات بشعره المقصوص في وجهه. صبر الخليفة الجديد أسابيع، ثم أمر بالوزير ابن الزيات أن يُحبَس ويُعَذَّب. فحبَسوه في التنور الذي كان يحبِسُ الناس فيه. كان في ذلك التنور ذي المسامير مكانٌ صغير يمكنُ للمحبوس أن يجلس عليه، جلسَ الوزير مَرَّةً، ففوجئ بالحارس، الذي كان يعمل تحت إمرته قبل نكبته، يَخِزُهُ برأس الحربة ويأمُرُه بالوقوف، قال للحارس: ارحمْني! قال له الحارس: الرحمة خَوَرٌ في الطبيعة. ومات ابن الزيات محبوساً ومعذَّباً في تنوره.

موقف ليعقوبَ بنِ السِّكِّيت

دُعيَ يعقوبُ بن السِّكِّيت، اللغويُّ المشهور صاحبُ «إصلاح المنطق»، إلى تأديب ولدي الخليفة المتوكل. وبينا هو في حضرة الخليفة إذ مَرَّ ولداه المعتزُّ والمؤيَّد. قال الخليفة: مَن أَحَبُّ إليك يا يعقوب: وَلدايَ هذانِ أم الحسنُ

والحسين؟ فانتفض يعقوب بن السكِّيت وقال: والله لَقَنبَرُ خادمُ عليٍّ بن أبي طالب خيرٌ منك ومِن ولديك. فأمر الخليفة الجند فداسوا يعقوبَ حتى مات.

سَلَمَة النصراني

كان سَلَمَةُ فقيراً، وكان له أخٌ غني. وكان سلمة عفيفاً نظيفَ اليد، ولكنه قليل الحيلة. طلب من أخيه عملاً، فقال له أخوه: «تشتغل عندي شاكرياً» أي خادماً. عرض عليه أمراً ظنَّ أنه سيرفضه بالتأكيد، فيتخلصَ بذلك من الحرج. لكن الأخ الفقير قبِل. وصار خادماً للأخ الغني. صار إذا ركب الغني ركض وراءه حافياً. ثم عندما يصل الغني إلى المكان الذي قصده يمسك بركابه ويعينه على النزول، ثم يأخذ الدابة ويعتني بها. وظل هكذا زمناً. وذات يوم سأل الوزير جلساءه عن هذا الخادم المخلص، قال لهم: يبدو أنه ذو أصل، وهو يشتغل خادماً مع أنه ليس شاباً. قالوا له: هذا سلمة، وهو يخدم أخاه. فتعجب الوزير، وطلب سلمة، فاكتشف أنه كاتب حاسب، فكلفه أن يضبط حاجيات القصر، ويحاسبَ البقَّالين والحمَّالين والطباخين. وفي رأس الشهر اكتشف الوزير أن نفقة قصره انخفضت، وظل يكتشف في كل شهر أن أمانة سلمةَ النصرانيِ كانت سبباً في توفير كبير. وحسنت حال سلمة، وصار يركب دابةً إلى منزله بعد أن كان يجري حافياً وراء دابة أخيه الغني. وحدث أن سأل الخليفة المتوكل وزيرَه عن رجل يضبط له مصروفات قصره، فسكت الوزير، ثم قال للخليفة: كنت أحب أن أخفيَ عنك خبر سلمة. ولكن الطاعةَ لك توجب عليّ أن أعرّفك بهذا الرجل الأمين. وانتقل سلمة إلى قصر المتوكل، وصار أميناً على نفقاته. وأغدق المتوكل عليه حتى غدا أغنى من أخيه. وذات مرة غضب المتوكل على سلمة وألزمه غرفة من القصر لا يبرحها لتقصير وقع. وذات عشية مر المتوكل بالغرفة، فأطل من الباب الموارب فرأى سلمةَ قد فرش أوراقاً، ورآه يحسب ويرتب نفقات القصر. فدخل المتوكل وقال له: يا سلمة! عزمت على أن أطردك وأجرّدك من كل أموالك. وها أنت تحسب

وتعمل كأنك في الخدمة، كأنك تشك في صدق عزمي. فقال سلمة: يا أمير المؤمنين، هذا من ثقتي بحسن رأيك. فسُرَّ منه المتوكل، وعفا عنه ورفعه درجة. وأما الأخ اللئيم فقد افتقر، وسقطت منزلته في بغداد لأن الأمراء والكبراء ما فتئوا يقولون: هذا الرجل كان يشغِّل أخاه خادماً يركض وراء دابته حافياً. وما كان عيال الأخ اللئيم يأكلون الخبز بعدما افتقر إلا من خير سلمة.

الخراساني والعطار

أراد تاجر خراساني الحج فحمل تجارة ومضى بها حتى وصل بغداد، فقال في نفسه أبيع ما حملْت من خراسان في بغداد، ثم أمضي إلى بيت الله حاجَّاً لا تاجراً. وباع ما يحمل من الحرائر النفيسة بربح وفير زاد على الألفِ دينارٍ ذهباً. خاف أن يحمل الدنانير معه فاشترى بها عِقداً من الجوهر الثمين. ثم إنه خاف أن يحمل العقد معه، فأودعه عند عطَّار، ومضى إلى مكة. وبعد مدة عاد من حجه، فقصد دكان العطار وبيده هديةٌ. وطالبه بالعقد فرفسه العطار رفسة أخرجته من الدكان، وقال له: تريد أن تفضحني يا هذا وتدَّعي عليّ، وأخذ يلطمه ويلكمه والناس يتفرجون. وقف الخراساني وسط السوق مبهوتاً، وحار في أمره. ثم علم أن عَضُدَ الدولة البويهي يجلس لعامة الناس في باحة قصره في يوم معلوم، ولا يحجب أحداً. فمضى إلى الباحة فرأى جموع الناس قد احتشدوا، فوقف في آخرهم. ثم إنه رفع عصاه عالياً في الهواء، فقال عضد الدولة إيتوني بصاحب العصا. فجيء بالخراساني فقص على عضد الدولة حكايته. قال له الأمير: تذهب غداً في الصباح وتقعد على باب دكان العطار، فإن منعك فاقعد قبالة دكانه، اقعد هناك ولا تبرح من الصباح إلى العصر، فإن رأيتَني في موكبي فلا تبرح مكانك. في اليوم التالي مر عضد الدولة بموكبه الكبير وتوقف بإزاء الرجل، وقال له: كيف حالك يا هذا؟ تأتي إلى بغدادَ ولا تقصدنا، إذا كان من الغد فاغدُ علينا. فلم يزدِ الخراساني على أن دعا لعضد الدولة وجلس، ثم مضى الموكب. رأى العطار الموقف فهُرع إلى الخراساني، وقال له: يا أخي ألا تذكِّرني بهذا العقد الذي زعمت أنك

أودعتَنيه. وأخذ العطار يبلقش ويكعكش (وهاتان كلمتان عاميتان من بلدي) وأخرج العقد، وقال للخراساني: لقد والله نسيت أمره. خذ عقدك يا أخي. قصد الخراساني قصر عضد الدولة كما طلب منه، وأخبره بأنه استردَّ عِقدَه وشكره. فاشترى منه عضد الدولة العقد بضعف ثمنه. وقال له: متى تسافر؟ قال الرجل: غداً. قال عضد الدولة: قبل سفرك تذهب إلى دكان العطار عند الضحى. فقال الرجل في نفسه: حقاً يجب أن أشكر العطار لأنه رد العقد. في اليوم التالي وجد الخراساني الناس مجتمعين أمام دكان العطار فاقترب، ويا لَهول ما رأى. رأى العطار مقتولاً ومصلوباً على باب دكانه، ورأسه مائل، وفي عنقه العقد. لمح الجند الخراساني فقالوا له: تقدم. فنزعوا العقد الثمين من عنق العطار، وقالوا له: أمر الأمير برد عقدك إليك. ومضى الخراساني بالمال الوفير وبالعقد الثمين إلى بلده.

صفة الخمر

وصف شاعر الخمر وصفاً دقيقاً في معرض قصيدة مدح بها الخليفة. قال له الخليفة: الآن وَجَبَ عليك الحَدُّ، فما وصفتَها إلا وقد شربتَها. قال الشاعر: وأنت يا مولاي، ما أدراك أن وصفي لها صحيح؟ فأفحمه.

المتآمرون الثلاثة

تآمر قائدان من حرس السلطان على نزعه وتولية ولده القاصر، وضما إليهما القاضي أبا عمر كي يضفيَ شرعية على المؤامرة. قبِل القاضي طمعاً في أن تعلوَ مكانته في العهد الجديد، وخوفاً من أن يبطش به القائدان الآن وقد عرف عن المؤامرة. فإن هو رفض المشاركة فقد يدبران قتله قبل أن يسبقهما ويخبرَ السلطان. وقبل يوم التنفيذ انكشفت المؤامرة. وسيق الثلاثة إلى الحبس. وُضع كل واحد منهم في غرفةٍ وحدَه. وذات ليلة سُمع صرير السلاسل بأيدي الحرس، وقلقلت المفاتيح. فارتاع الثلاثة وجلس كل واحد منهم في آخر غرفته. ثم فتح الحرس باب غرفة القائد أبي المثنى، وراح الآمر يوبخه على

خيانته، وتلا عليه أمر السلطان، ثم أمر الحرس فأضجعوه كالشاة وذبحوه واحْتَزُّوا رأسه وأخذوه. ومضت ساعةٌ من الليل عاد بعدها الحرس، وسمع السجينان الباقيان الأقفال فارتاعا. وفُتح باب القائد ابنِ أبي داود. وأضجعه الحرس ليذبحوه فأخذ يصيح بهم: اتقوا الله، ألا تسألون عن مالي، ألا أفدي نفسي؟ عندي ذهبٌ مخبوءٌ لا يعلم مكانه الجن، أُخرجه لكم، فاذهبوا وقولوا ذلك للسلطان، ولكن الحرس ذبحوه واحتزُّوا رأسه بالسيف. أخذ أبو عمرَ القاضي يدعو، وطلع النهار عليه لم ينم، ثم سمع صوت الأقفال فأيقن أنه مقتول كصاحبيه. فهبطت عليه السكينة ورفع رأسه إلى السماء وقال: يا رب، إن كنت تريدُ أن تُعجِّل قدومي إليك فلا أسألك ردّ القضاء، لكن تُبْ عني يا الله. وفتح باب غرفته وجذبه الحرس جَذَبات منكرة، وقال له آمرهم: يقول لك السلطان يا فاعل، يا صانع، ما حملك على نكث بيعتي؟ فتكلم أبو عمر وقال: شقائي وسوء ما صنعت لنفسي. وقد تبت إلى الله، فعسى أن يتوب عني. فغاب الآمر برهة، ثم رجع. وقال للحرس: خذوه، فقد تكلم الوزير في أمره، وأُخذ أبو عمر. وعند الضحى جيء به إلى مجلس السلطان. فنافح عنه الوزير في المجلس. صار السلطان يؤنبه ويغلظ له القول، وهو ساكت، والوزير يردُّ عنه. والقاضي يتوقع في أي لحظة أن يؤمر به فيقتلَ في المجلس نفسه، وازداد غضب السلطان فدعا بالنطع والسيف. والنطع بساط من جلد يوضع تحت المقتول حتى لا ينتثر دمه في المجلس. لكن الوزير ظل يرد عنه. فالتفت السلطان إلى الوزير، وقال بغضب: أترومُ عِصيانَ أمري؟ قد قَضَيتُ بقتله. وقبل أن يعصفَ السلطان بوزيره، تريث هنيهة والتفت وقال للوزير: اصدُقني القول، ماذا بينك وبين هذا العاصي؟ قال الوزير: كنت كاتباً في ديوانكم في أول عهدكم بالسلطنة. واجتمع عليَّ كبارُ الكَتَبَةِ يريدون إقصائي، ودبَّروا لي مكيدة وساقوني إلى القاضي أبي عمر. فما زال بهم حتى كشفَ أمرَهم، وحكم ببراءتي. وظلت حالي من يومئذ في صعود حتى رفعتَني إلى الوزارة، فأنا أردُّ جميله. فسكت عن السلطان الغضب. وقال للقاضي: تذهب إلى بيتك، ولا تقع عيني عليك ما دام أحدُنا في الحياة. وذهب القاضي إلى

بيته فرآه بعض أهل بيته فنظروا في وجهه بدهشةٍ، وحانت منه التفاتة إلى المرآة فإذا شعره قد شاب في تلك الليلة.

لا أُعيدها

فتح عمرو بنُ العاص قيساريَّة ثم انحدر إلى غزة وحاصرها، فبعث أميرُها الرومي إليه: أن أرسلْ إليَّ مِن قِبَلِكَ رجلاً أفاوضْه. ففكر عمروٌ، وقال لنفسه: ما لهذا الأمر أحدٌ غيري. فائتزر بثيابِ عامةِ الناس ومضى إلى أمير غزة، ففاوضه وأسمَعَه كلاماً لم يسمعْ مثلَه قط. قال له الأمير الرومي: وهل في قومِكَ كثيرون مثلك؟ قال عمرو: أنا من عامَّة الناس، أرسلوني إليك، على ما في ذلك من خطر، لِهَواني عليهم. فأمر له الأمير بكُسوةٍ وجائزةٍ وصرفه. وأشار الأمير إلى البوَّاب إشارةً معناها أنِ اقتله عندما يخرج، وخذْ ما معه. وفي طريق الخروج التقى عمروٌ بِعَربيٍّ من نَصارى غَسَّان كان في خدمة الأمير الرومي، قال الغساني لعمروٍ بالعربية: أحسنتَ الدخول فأحسِنِ الخروج. فانتبه عمروٌ إلى أن ثَمَّةَ مكيدة، فنكص على عقبيه ورجعَ إلى مجلسِ الأمير. قال له الأمير: ما خطبُك؟ قال عمرو: قد والله خشيتُ أن يقاسِمَني أولادُ عمومتي هذه الجائزة، وهذه الكسوة، فقلت لعلِّي أُحضِرُ عَشَرةً منهم وأعودُ بهم إليك، فتسمعَ منهم، ولعلك تُجيزُهم. فانبسطت نفسُ الأمير لهذا، وأشار إلى البوَّاب أن يطلقَ عمراً. فذهب عمروٌ إلى عسكره آمناً. ثم بعد أيام فُتحت غزة، فرأى الأمير الرومي عمروَ بنَ العاص، فإذا هو قائدُ الجيش. فقال له: أهو أنت؟ قال عمرو: نعم، على ما كان من غدرِك. ولكنني لا والله لا أُعيدُها.

الناثر يغلب الشاعر

كانت ليلة زَمْهَريريَّة، وكان الشاعر يجلس في قصر الأمير، والنار قد خمَدت والبرد يتسلل إلى العظام. قال الأمير للشاعر صف لي هذا البرد في أبيات. وأخذ الشاعر يفكر، فدعا الأمير خادمه وطلب منه أن يأتي بزجاجة خمر. قال الخادم: (خَمَدَ الجمْر فجَمَد الخَمْر). فقال الشاعر: لا والله لا أقول شيئاً بعد هذا الإيجاز

البليغ (خمد الجمر فجمد الخمر)، وأخذ يرددها. وهذه تكملة الحكاية من عندي: قال الأمير للخادم: اذهب وهات الزجاجة يا بليد، فالنبيذ يجمد على درجة خمسة ونصف مئوية تحت الصفر، وميزان الحرارة يشير إلى الصفر فقط.

إجابة المتنبي

الظِّربانُ حيوان يرُشُّ مادة كريهة الرائحة على من يقترب منه، والحَجَلُ عصفور قرر أن يصير دجاجة، فهو لا يطير إلا قفزةً قفزة. ولهذينِ المخلوقين قصة مع المتنبي. كان المتنبي في مجلس سيف الدولة، وأراد أبو علي الفارسي النحويُّ المشهور أن يختبره، فقال له: ما الجموعُ في العربية التي على وزن فِعلى؟ فأجاب المتنبي من فوره: حِجلى وظِربى. قال أبو علي بعدها: فعكفت على كتبي يومين أبحث عن سوى هذين الجمعين فلم أجد لهما ثالثاً.

أبو دلامة في مأزق

أُدخل الشاعر أبو دُلَامة على الخليفة المهدي، وكان في المجلس أعيان القادة والوزراء، فأراد الخليفة أن يعابثه، فقال له: لا بُدَّ لك من أن تهجوَ أحدَ من بالمجلس، وإلا عوقبت شر عقوبة. فوقف أبو دلامة متحيراً ينظر في وجوه القوم، فما ينظر في وجه أحدِهم حتى يشيرَ بأصابعه: واحدٌ يشير بثلاث أصابع، وواحد بخمس، وواحد بأكثر أو أقل. كلٌّ منهم يَعِدُه بألوفِ الدراهم إنْ هو تخطَّاه. وأخيراً وجد أبو دلامة المخرج فهجا نفسه، وقال:

ألا أَبلِغْ لديكَ أبا دُلَامة   فليس من الكرامِ ولا كرامةْ
إذا لَبِسَ العِمامةَ كان قرداً   وخنزيراً إذا نزع العِمامةْ
جمعتَ دمامةً وجمعتَ لُؤْما   كذاك اللؤمُ تتبعُه الدمامةْ
فإن تَكُ قد جمعتَ نعيمَ دنيا   فلا تفرحْ فقد دَنَتِ القيامةْ

فضحك القوم، وكلُّهُمْ أجازه.

الكوفي الخجول

قدِم سعيدُ بنُ العاصِ والياً على الكوفة. وكان ممن يتعشى مع الوالي رجلٌ حسنُ الهندام. لكن هذا الرجل الكوفي كان فقيراً معدِماً لم يَعُدْ له من المتاع سوى ملابِسِه التي عليه، يتجمَّلُ بها. وقد اشتد به الفقر وهو يستُرُ حاله. وفي يوم قالت له زوجتُه: «ويحَك! تتعشَّى مع الأمير كل ليلةٍ وأنتَ أفقرُ خلق الله! اذكر للأمير فقرَك، وإلَّا فلا فائدة منك ولا من أميرك هذا.» فوعدها زوجُها أن يفعل، وحلف لها. وفي المساء تعشى الكوفيُّ مع أمير الكوفة سعيدِ بن العاص. ثم بدأ الناس ينصرفون فثبتَ في مكانه. فقال له سعيد: ما حاجتك؟ فسكت الكوفي. فأشار الأمير إلى الحرس والغلمان فخرجوا، ثم قال له: ما حاجتُك؟ فخجل الكوفي الفقير وانحبس لسانه، وأنشأ يقوم من مجلسه. فقال له الوالي: اقعد. وأقبل الوالي على السراج ونفخ عليه فانطفأ. ولم يعد أيٌّ منهما يرى وجه الآخر. وسأل: ما حاجتك؟ فقال الكوفي: أصلح اللهُ الأمير، أصابتنا شدة وافتقرنا. وسكت. فقال له سعيد: إذا أصبحتَ فاذهب إلى وكيلي فلان. أما الآن فامض على بركة الله. في الصباح ذهب الكوفي إلى الوكيل، فقال له: قد أمر لك الأمير بشيء، فأَحضِرْ من يحمِلُه معكَ على دابّة. فانصرف الكوفي إلى زوجته حزيناً، وقال لها: أكبر ظني أن الأمير أمرَ لي بِحمْلٍ مِن التمر أو القمح. وصار يلومُها لأنها دفعته إلى سؤال الأمير، وجعلته يكشفُ فقره، وهو لا يشك في أن منزلته قد سقطت عند الوالي. ومضت ثلاثةُ أيام والرجل وعيالُه في أسوأ حال. وهو لا يذهب إلى مجلس الأمير. ثم قالت له زوجته: اذهب إلى وكيل الأمير وأحضر التمر أو القمح، فوالله ليس عندنا في الدار ما نأكل. فذهب الرجل إلى الوكيل فإذا به يتلقاه متلهفاً، وقال له: أين أنت يا رجل؟ نبحث عنك منذ أيام. لقد أمر لك الأمير بهذه الأكياسِ الثلاثة. فإذا هي أكياسٌ كبيرة سودٌ. فتدبر الرجل أمرها وحملها إلى بيته. وإذا هي مملوءة بالدراهم. ومنذ ذلك الوقت لم يجد ذلك الرجل للفقر طعماً.

«شجرة» والشاعر

كان «شجرةُ» خياطاً وترك مهنة الخياطة وصار ذا شأن في الدولة الأموية، وصار يركب الخيل ويزعم أن به جرحاً أصابه وهو يقاتل الخارجين على الدولة. جاءه أعشى همْدانَ الشاعر وسأله حاجة فرده شجرةُ رداً غليظاً. فهجاه، وعيره بأن إصبعه الوسطى هي المجروحة لكثرة ما وخزتها الإبر وهو يعمل خياطاً، ومهنة الخياطة أو الحياكة كانت موضع احتقار في ذلك الزمن، قال أعشى همدان:

لقد كنتَ خياطاً فأصبحتَ فارساً
تُعَدُّ إذا عُدَّ الفوارسُ مِن مُضَرْ
فإن كنتَ قد أَنكرتَ هذا فقلْ كذا
وبَيِّنْ لِيَ الجَرحَ الذي كان قد دَثَرْ
وإِصبعُكَ الوُسطى عليهِ شهيدةٌ
وما ذاك إلَّا وَخْزُها الثوبَ بِالإِبَرْ

ووفد شجرة على الحجاج بنِ يوسف الثقفي يوماً، فقال له الحجاج: أرني إصبعك. قال شجرة: أصلح الله الأمير، وما تصنع بإصبعي؟ قال الحجاج: أنظر إلى صِفَةِ الأعشى. فخجل شجرة. قال الحجاج لكاتبه: أنقِصْ من عَطاء شجرة، وزدْهُ في عطاء الشاعر أعشى همدان. وانثنى إلى شجرة فقال له: هذا حتى تتعلم كيف تتَّقي لسانَ الشعراء وتشتري عِرضَك منهم. ومضت سنةٌ وراءها سنة، وخرج أعشى همدان الشاعر على الحجاج في ثورة ابن الأشعث. وبعد الهزيمة وقع الأعشى في قبضة الحجاج. قال له، أولست القائل:

وإذا تُصِبْكَ مِن الحوادثِ نكبةٌ فاصبرْ فكلُّ غيابَةٍ سَتَكَشَّفُ

والله لتكوننَّ هذه نكبةً لا تتكشف أبداً. يا حرسي اضرب عنقه. هكذا كانت نهاية أعشى همدان محتقرِ الخياطين. (وأنا رجل سليل قوم خياطين، لا أعرف من أجدادي أحداً لم يكن خياطاً).

أسير الحجاج

كان الحجاج يحب أن يقتل أسراه بمشهد من الناس لإدخال الرعب في القلوب. وجيء يوماً بأسير، ولم يكن الناس قد اجتمعوا. فقال لوزيره: خذه بقيوده عندك، واغْدُ به عليَّ في الغد حين يجتمع القوم. فمضي الوزير بالأسير في موكبه، وأنزله في مكان في قصره. وبعد سويعة قال الأسير للوزير: أطلقْنِي الليلةَ حتى أُوَدِّعَ أهلي، وأقضي حقوقاً للناس عندي، وأعودُ إليك عند الفجر. فضحك الوزير وقال له: وتعودُ إليَّ كي تُقتل؟ قال له الرجل: نعم. فولَّاه الوزير ظهره. فحلف الرجل أنه يعود. فأصابت الوزير نشوةُ النخوة، فأمر بفكِّ قيودِ الرجل وقال له: اذهب. ثم تفكَّر الوزير فيما صنع فانتابته قُشَعْريرةُ خوف. وقضى ليلته لم ينم. وعند الفجر طُرق الباب، فإذا بالرجل يعود. فوضعوا في يديه ورجليه القيود. ومع الصباح أتى به الوزير إلى مجلس الحجاج، واستأذن أن يقص على الحجاج قصته. فعجب الحجاج، وتردد لحظة ثم قال: قد وهبتُه لك. فانطلق الوزير مع الأسير وفك قيوده، وقال له: امض، فأنت طليق. فرفع الرجل يديه، وقال: الحمد لله، ومضى. تعجب الوزير، فهو قد أنقذ حياة الرجل وتكبد في سبيل ذلك مخاطرة عظيمة. وها هو الرجل ينطلق حراً ولا يشكره بكلمة. ونام الوزير، وصحا الوزير، فإذا طَرْقٌ على الباب، وإذا الأسير يعود، ويقول للوزير: الآن أشكرك. جعل الله ما صنعتَه في كتاب حسناتك. وقبل أن يولي الرجل سأله الوزير: ولِمَ تأخرت يوماً حتى تشكرَني؟ قال الرجل: عندما أطلقتني لم أُرِدْ أن أُشرِك في حمد الله أحداً.

إِذَنْ!

قال الحجاج ليحيى بنِ يعمر: أتجِدُني أَلْحَن؟ فقال: الأمير أفصح من ذاك. قال الحجاج: عزمت عليك لتخبرَنِّي. قال: نعم، لحنت عندما قرأت: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، فقد قلت أحبُّ

وهي أحبَّ. قال الحجاج: إذن لا تسمعني ألحنُ أبداً. وبالفعل لم يسمعه يحيى يلحن بعدها، لأن الحجاج نفاه إلى خراسان. نكمل القصة. بعد حين جاء كتاب من يزيدَ بنِ المهلب والي خراسان إلى الحجاج، وفي الكتاب: (إنا لقينا العدو فاضطَرَرْناه إلى عُرْعُرة الجبل ونحن بِحَضيضِه). قال الحجاج: ما هذا بكلام ابنِ المهلب. فقيل له: أيها الأمير: قد التحق به يحيى بنُ يعمر، وعمل كاتباً عنده. فعلق الحجاج بكلمة واحدة، قال: إِذَن!

قال الحجاج

خطب الحجاج يوماً فقال: إن الله أمَرنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤونة الدنيا، فليت أنَّا كُفينا مؤونةَ الآخرة وأُمِرْنا بطلب الدنيا. فوصل قولُه إلى الحسن البصري فقال: هذه ضالَّةُ المؤمن، خرجتْ من قلبِ منافق.

جَحْدرٌ والأسد

نقص قصة جَحدَر. والقصة فيها أسد، ونبدأ بوصف أعرابيٍّ للأسد. قال الأعرابي: له عينان مثلُ وَهَجِ الشرر، كأنما نُقِرتا في عُرْضِ حَجَرْ، لونُه وَرْد، وزئيرُه رَعْد، هامتُه عظيمة، وجبهتُه شَتيمة، لا يَهابُ إذا الليل عَسْعَس، ولا يجبُنُ إذا الصبح تَنَفَّس. وقال الشاعر:

بـراثِـنُـهُ شُـثْـنٌ وعـيـنـاهُ فـي الـدُّجـى
كَـجَـمـرِ الـغَـضـا، في وجـهِـهِ الـشـرُّ طائـرُ
يُـــدِلُّ بِـأنـيـابٍ حِـــدادٍ كـأنَّـهـا
إذا قَـلَّـصَ الأَشْـــداقَ عـنـهـا خَـنـاجِـرُ

كان جَحْدَرٌ لِصاً يقطع الطريق، وأعيا الناس حتى بلغت الشكوى منه أقطار البلاد، فجُعل على رأسِه مالٌ كثير، فقبض عليه قوم من بني حنظلة وجاءوا به مكتوفاً إلى الحجاج. قال له الحجاج: ما جرَّأَكَ على ما بَلَغَني عنك؟ قال: جَوْرُ الزمان وجَراءةُ الجَنان. قال الحجاج: لا بُدَّ من عقاب. قال جحدر:

فليختبرني الأمير مع ثُلَّةٍ من الفرسان. قال الحجاج: هيهات! إني قاذفٌ بك في أُخدودٍ مع أسد. فقال جَحدر: قَرُبَ الفرج. فأمر الحجاج بحبسه، وكتب إلى عامل له أن يبعث إليه أسداً. وكان في العراقِ ونجدٍ وفلسطينَ أُسودٌ لذلك الزمن. وجاء الأسد في قفص. فجوعه الحجاج أياماً. ثم ألقى به في الأخدود. فزأر الأسد زئيراً اهتزت له الأرض، ورِيعَ الناس. فأنشدَ جَحدر (هكذا تقول القصة، يدسون في كل مكان في القصة شعراً، وكأنَّ جحدراً كان يملك أن ينشد في ذلك الموقف)، قال جحدر:

لـيـثٌ ولـيـثٌ فـي مـجـالِ ضَـنْـكِ ... كـلاهـمـا ذو قـــوةٍ وسَـفْـكِ
إنْ يـكـشـفِ الـلـهُ قـنـاعَ الـشَّـكِّ ... فـأنـت لـيِ فـي قَبضتي ومِلكي

ثم أُدلي جحدرٌ في الأخدود، وليس عليه درع ولا معه ترس، إن هو إلا السيف. فوثب الأسد وثبة عظيمة فلاقاه جَحدرٌ بسيفه ففلق هامته، وألقاه صريعاً. فكبَّرَ الناس. فقال الحجاج لجَحدر: إمَّا أن تُقيمَ معي مكرَّماً، وإما أن تَلحَقَ ببلادك لا تؤذي أحداً. فأقام جحدر، وحَسُن أدبه، ثم بعد حين ولَّاه الحجاج على اليمامة. مكتبة سُر مَن قرأ

قال الحجاج

نُقِل أن الحجَّاجَ قال عند موته عبارةً جميلة، قال: «اللهم اغفرْ لي، فإنهم يقولون إنَّكَ لا تغفرُ لي». وكانت هذه الكلمة تعجِبُ عمرَ بنَ عبدِ العزيز كثيراً. وذُكرت العبارة للحسن البصري، فسأل: أَوَقد قالها؟ قالوا: نعم. فما زاد على أن قال: عسى! يقصد عسى أن يغفر له الله.

لسان الفرزدق

جاءت أم أحد المقاتلين إلى الفرزدق ترجوه أن يتوسط لها عند الأمير لكي يعيد ولَدها حُبَيْشاً الذي طال غيابه مع الجند في الثغور. فأرسل الفرزدق إلى الأمير:

فهبْ لي حُبَيْشاً واتَّخِذ فيه مِنَّةً   لِغُصَّة أمٍّ ما يَسوغُ شرابُها

فاختلط الأمر على الأمير لعدم وجود النُّقَط: أهُوَ حبيش أم خُنيس. فأمر بإطلاق كل رجل في الجيش اسمه حبيش، وكلِّ رجل اسمه خنيسٌ أيضاً. كلُّ هذا خوفاً من لسان الفرزدق.

منتهى التكبُّر

ضرب المثل بِتِيه المغَنِّي. والتيه شيء يشبه التكبر. والتيَّاه هو الذي يقول فيه المثل العامي (يا أرض اشتدي، ما حدا قدي). والمغني تيَّاه. وقد عرفت مغنين كُثراً، رأيتهم تيَّاهينَ أُولي خُيَلاء. وقال المثل، وصَدَق: «لا تقل للمغني غَنِّ، حتى يغني من نفسه». وقال المثل (أَتْيَهُ مِن عُمارة!).

كان الفضل البرمكي تيَّاهاً. قال له بعض خلصائه يوماً: أيها الأمير، كمُلت فيك الفضائل، غيرَ شيء! فأشْرأَبَّ الفضل برأسه، ولم يسأل. قال له خِلصُه: فيك تيه! فتَبَسَّطَ الفضل وَتَطَلَّق، وضرب بكفه على فخذ صاحبه، وقال له: إنما تعلَّمْتُ ذلك من عُمارةَ بنِ حمزة، فاسمع قصتي مع عمارة.

طُولِب أبي بمالٍ جزيل، فأدَّى كلَّ ما عنده، وبقيت عليه بقية، فطلب مِنِّي أن أذهبَ إلى عُمارة كي أقترضَ منه ثلاثةَ آلافِ دِرهم. فقلت لأبي: كيف يكون ذلك وعُمارةُ ألدُّ أعدائك، ولو أمكنه أن يُتْلِفَكَ لأَتلَفَك. فقال لي: ليس في بغدادَ أحدٌ يَستنْقِذُني مما أنا فيه إلا عُمارة. فذهبت إليه، وأنا أُقَدِّمُ رِجلاً وأؤخر أخرى. فأُدخلت عليه، فإذا هو جالس على فراش وثير ووجُهُه إلى الجدار، وقد تطيب بكل طيب. فسلمت، فلم يردَّ السلام. فهممت بالانصراف، ولكنني فكرت فيما يكون لو رجعت إلى أبي خاويَ الوفاض. فقلت لعُمارة وهو يُوَلِّيني ظهرَه: أبي محتاج إلى ثلاثة آلاف درهم. فقال: ننظر! فسلَّمتُ وانصرفت. وطَفِقْتُ أطوفُ في طُرُقاتِ بغدادَ والندمُ يأكُلني، كيف سأعود إلى

البيت؟ وماذا سأقول لأبي؟ وبعد ساعات عدت إلى بيتنا. وجدت بغلين أمام الباب، والحمال يُنزِل مِن عليهِما الأكياس. وعرفت أن عُمارة بعثَ بمئة ألف درهم. وبعد حين تولى أبي للسلطانِ عَملاً وحسُنَتْ حالُه وأَثرى، فبعث معي مئة ألف درهم إلى عُمارة. فدخلت عليه، فإذا هو على جِلسته الأولى ووجهُه إلى الجدار. فسلمت فلم يرد. قلت له: المال بالباب، وقد كان ذلك قرضاً، وأبي يقرئك السلام، ويشكرك. فقال: ما كنت قِسْطاراً لأبيك. أي أنني لست صَيْرَفِيّاً له، والمعنى أنني لا أقرض المال لأحد بل أعطيه إعطاء. وأردف: عُدْ بالمال، فهو لَك. فعدت بالمال. ومن يومِئذ وأنا أتشبه بعمارة، لا أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك.

الأصمعي والفرس

حضر الأصمعي وأبو عبيدة عند الأمير. قال الأمير للأصمعي: كم كتابُك عن الخيل؟ قال: مجلَّد. فقال لأبي عبيدة: وكم كتابُك عن الخيل، فقال بفخر: خمسونَ مجلداً. ثم مضى الأمير بهما إلى إسطبله وقال لأبي عبيدة صاحبِ الخمسين مجلداً: قم إلى هذا الفرس، وأَمْسِك عضواً عضواً وسَمِّ لنا أعضاءه. قال أبو عبيدة: ما أنا بِبَيْطار، إنما ذلك كلام من كلام العرب أخذته ودونته. فقال الأمير للأصمعي وهو صاحب المجلد الفرد: قم يا أصمعي. فأخذ الأصمعي يمسك بالفرس عضواً عضواً ويسمي كل ذلك، وينشد بيتاً من الشعر شاهداً على كل كلمة، ما ترك عضواً حتى حافرَ الفرس. قال الأمير: بورك فيك، فخذ الفرس. يقول الأصمعي: فكنت كُلَّما أردت إِغاظةَ أبي عبيدة أتيتُه راكباً ذلك الفرس.

فاض به الكيل

كان ابن الجصاص أغنى رجل في بغداد. كان يتَّجِرُ بِالجواهر، وكان يدخُلُ على الخلفاء والوزراء. ورويت عن غفلته وحمقه عشرات الحكايات. منها أن وكيلَه حَملَ إليه من مزارِعه مئةَ حِمْلٍ قُطناً، فحُلج القطن ـ أي أزيل ما به من

بزور ـ فنقص القطن نقصاً ذريعاً. فقال ابن الجصاص لوكيله: من الآن فصاعِداً تزرعون قطناً محلوجاً، وشيئاً من الصوف. بعد موت ابن الجصاص سأل أحدهم ولده: أكان أبوك كما يروون عنه؟ فقال الابن: رحم الله أبي فقد كان داهية، واسمع خبراً عنه لا يعرفه أحد. كان الوزير ابن الفرات يلاحق أبي، يُصادِرُ مِن ضِياعه ما يصادر، ويَتَعقَّبُ وُكَلاءَه. وحضر أبي مجلسَ الوزير يوماً، وعندما انصرف سمع خادماً يقول لزميله: «هذا بيتُ مالٍ يمشي على قدمين». فعرف أبي أنَّ هذا الكلام ليس من كلام الخادم، لكنه سمعه من الوزير. فقضى ليلته منتبهاً يفكر، وقد أكل الهم قلبه. وقبيل الفجر عزم على أمر. فركب إلى قصر الوزير. قال له الحرس إن الوزير نائم في هذه الساعة، والشمس لم تشرق بعد. فقال: لا بدَّ من رؤيته. فتوجسوا أن يكون ابنُ الجصاص جاء برسالة من الخليفة. فأيقظوا الوزير، ودخل عليه ابنُ الجصاص وطلب الانفراد به. قال له: قد توالى كيدُك لي، وهذا حين نتفقُ أو نختلف. سأغدو على الخليفة وأدفعُ إليهِ ألفي ألفِ دينار (أي مليونين بلغة ذلك الزمن)، وتعلم أنني قادر عليها، وسأطلب إليه أن يُسْلِمَك إلى مَنْ يُصادرك. (وكان الخلفاء في ذلك الزمن ينقلبون على وزرائهم فيسلمونهم إلى من يعذبهم حتى يقروا بما لديهم من مال، فيؤخذُ المال ويعود الوزير إلى بيته فقيراً معزولاً). قد والله عزمت، ولي عند الخليفة المنزلةُ التي تعرفها. قال الوزير: وَيحك! أوتفعلُ هذا الفعل الشنيع؟ قال ابن الجصاص: قد ألجأتَني إليه. وما جئتُك في بطن الليل إلا وقد حسمتُ أمري، وليكن ما يكون، لا أبالي. فسُقط في يدِ الوزير وتفكر هنيهة، ثم قال: أوْ غير ذلك؟ قال ابن الجصاص: تحلف لي وأحلف لك ألا يكون بيننا إلا الود، ولك عليَّ الطاعةُ والمؤازرة، ولي عليك ألَّا تتعرض لي. فأطرق الوزير، ثم أمر بقرطاس. فكتبا عهداً على التصافي. ومضى ابن الجصاص إلى بيته. وصار كلما حضرَ مجلسَ الوزير رفعه الوزير وتودد إليه، والناس يتعجبون من تغير الحال. وما عرف أحد بهذه الحادثة إلا بعد موت الوزير وابن الجصاص.

محنة أبي الحسن

كان أبو الحسن تاجراً كثير الربح، كثير الإنفاق. وكان يعيش في بغداد. ولكرمه المشهود حسده الوزير أبو القاسم، وظن له مالاً عظيماً فطمع فيه، فحبسه وحبس ابنه معه. حبسهما في حجرة ضيقة، وأخذ يمنع عنهما الطعام حيناً، ويخرجهما في الشمس حيناً حتى يُقِرَّا بالمكان الذي يخفيان فيه الأموال. لكن أبا الحسنِ لم يكن ذا مال عظيم، كان ينفق ماله أولاً بأوّل. وطالت المحنة بالتاجر وابنه. وظل الناس في بغداد يتألمون لحالهما ويتذكّرون سخاء التاجر. اشتد غيظ الأمير، لما يسمع ولما يتلقّى من شفاعات في التاجر وابنه. أما حرّاس السجن فكانوا يسعوْن قدر استطاعتهم في التخفيف عنه وعن ابنه. بعث التاجر مع أحدِهم رسالةً إلى تاجرٍ آخرَ في المدينة يطلب فيها منه أن يُقْرِضَه ثلاثة آلاف درهم. وحضر المال إلى السجن، أراد التاجر أن يفرّقه على الحراس، فامتنعوا ولم يأخذوا درهماً. فسأل عن السبب فلم يسمع جواباً، ثم قال له الحارس الموكل بالباب: نستحي أن نأخذ منك شيئاً، ونحن نعلم ما نعلم. قال له التاجر: ويحك، وما الذي تعلمه؟ فقال الحارس: قد أمر الوزير أن تقتلا عند الفجر. فاغتم التاجر وابنه غمّاً شديداً. وإذ سمع التاجر كلمة القتل تذكّر صوفياً فقيراً كان قد أحسن إليه. ودعا له الصوفي دعاءً قال فيه: «اللهم إن أبا الحسن قد أحسن إليّ لوجهك الكريم. اللهم فاقبل دعاءه إن دعاك، وحوّل السيف عن عنقه إلى عنق عدوه». تذكر التاجر ذلك الدعاء فاطمأنت نفسه، ورفع وجهه إلى السماء وقال: يا ربّ، الوزير ظلمني، وأنا بين يديك، وأنت أحكم الحاكمين، فاحكم بيننا. وظل يدعو بهذا الدعاء لا يزيد عليه حرفاً حتى مضى الليل. ومع أول شعاع من الفجر قعقعت أبواب السجن وسمع التاجر وابنه حركة منكرة. أما التاجر فوقف وتنشط بقوه الأمل، وأما ابنه فأيقن بالموت وخارت قواه. فتح الحرس الأبواب وبأيديهم الشموع، وهم يصرخون: أبشِرْ أبا الحسن، أبشر. وعلى باب السجن كان حرسٌ آخرون يحضرون الوزير مقيداً، فقد أمر به الخليفة أن يسجن لخيانة عظيمة. ولم

ينقض اليوم حتى كان التاجر وابنه في البيت. ثم لم تمض ثلاثةُ أيام حتى قتل الوزير في سجنه.

سجين زبيدة

كان الأمراء في العصر العباسي يتخذون وكلاء يديرون لهم مزارعَهم وضياعهم ويقبضون الخراج من الفلاحين، ويبيعون محصول الأرض. كثيراً ما كان الوكيلُ يخون الأمانة. وكثيراً ما كان الأمير يشك في وكيله لغير سبب، أو لما يسمع من كلام الحسّاد.

كان لزُبيدةَ ـ حفيدةِ الخليفة المنصور وزوجة هارونَ الرشيدِ ـ وكيلٌ، وقد حبسته وطالبته بألفي دينار. وكان لهذا الوكيل صديقان في بلدة أخرى. فلما سمعا بنبأ حبسه، تجهزا وقصدا بغداد ليسعيا في إطلاق سراحه. ونزلا في الطريق على رجل يسمى الفيضَ بنَ أبي صالح، وأخبراه بقصدهما. فقال لهما: أوَلا تريدان أن أكون معكما؟ فقالا: بلى، على الرحب والسَّعة، ثلاثة خيرٌ من اثنين. ومضى الثلاثة إلى بغداد. والتقوا بكاتب الأميرة. فقال لهم: لا سبيل إلى إطلاق الوكيل إلا أن يدفع ألفي دينار، ثم كتب الكاتب رقعة للأميرة أخبرها فيها بخبر الوساطة. فكتبت في ذيل الرقعة: لا نطلق الوكيل إلا أن يؤديَ ما عليه من المال. فقال الصديقان: قد والله قمنا بواجبه. والآن لا سبيل إلى إطلاقه. وأرادا العودة. فقال لهما الفيض: أليس رجلًا أميناً شريفاً؟ قالا: بلى. فقال لهما: إذن أؤدي المال عنه. وقصد الفيضُ تاجراً ببغداد واقترض منه المال، وذهب به إلى كاتبِ الأميرة. قال له: هاك المالَ، فأطلِق الرجل. قال الكاتب: لا سبيل إلى ذلك إلا بعد أن أرفع الخبر إلى مولاتي زُبيدة. وأرسل الكاتب رقعة إلى زبيدة عرفها فيها بالخبر. قال لها: هذا رجل يصاحب صديقي الوكيل، وهو لا يعرف الرجل المحبوس، وهو مع ذلك جادٌّ في إطلاقه. فكتبت زبيدة في ذيل الرقعة: بل نردُّ المال على الفيض بن أبي صالح، ونطلق سراح

الوكيل، نحن أولى بهذه المكرمة. وهكذا خرج الوكيل من حبسه، وانتفع بسعي رجل لا يعرفه.

ادفنوه بسرعة

قَتل عضدُ الدولة وزيرَه ابنَ بَقِيَّة وصلبه، ثم إن عضد الدولة مات، وبقي ابنُ بقية مصلوباً. وذات يوم مر رجل بالجذع الذي صلب عليه ابن بقية، فقال: سبحان الله، عضدُ الدولة في التراب، وابنُ بقية فوق التراب. فسمع بذلك الأمير الذي خلف عضد الدولة، فقال لهم: أسرعوا وادفنوا جسدَ ابنِ بقية.

شيخوخة مريحة

كان الأمير منغمساً في الحرب، والخليفة يلحُّ عليه في طلب أموال طائلة كان قد احتجزها واتُّهم بها. وقتل الأمير في الحرب. وكان للأمير حارس وفيٌّ يعيش في نعمته. وظل حارسه يعيش في بيت كبير في بغداد كان من بعض بيوت الأمير القتيل. ولم يعد للحارس عمل، فافتقر وتقطعت ثيابه ولم يعد يدري كيف ينفق على عياله. وذات صباح قال لخادمه: لم يبق عندنا سوى لجام الفرس المُحلَّى بالفضة، خذ اللجام إلى السوق وبعه، واشتر لنا بثمنه جدياً سميناً وخبزاً، فوالله لم نأكل اللحم منذ زمن. وعاد الغلام من السوق وقد باع اللجام، وجاء بدلاً منه بلجام من الحديد، واشترى بفضل ما بين الحديد والفضة جدياً وخبزاً. وبينا أهل البيت يشوُون الجدي إذا قَرْعٌ متواصل على الباب، وصراخٌ عالٍ، ففتحوا، فإذا كاتب الخليفة ومعه ثلة من الجند. دخلوا جميعاً إلى ساحة في وسَط الدار. وأمروا بإخلائها. ثم بدأوا يحفرون أرض الساحة بالمعاول وينقلون التراب. والحارس متعجب من فعلهم. ثم اقترب الحارس، وقال للكاتب: سيدي أنتم تبحثون عن شيء؟ فلم يجب الكاتب بشيء. قال الحارس: الأمر لكم سيدي، لكنكم نزلتم عليّ ضيوفاً. ولا بد من أن تأكلوا معي. وقدم الحارس للكاتب وللفعلة اللحم والخبز،

وأكلوا جميعاً، وعاد الفَعَلة إلى الحفر. وصار الحارس يحدث الكاتب كما يحدث المضيفُ ضيفه بأدبٍ وبحسن منطق، والكاتب مصغٍ إليه، وهو يمد بصره بين الحين والحين ينتظر نتيجة الحفر. وفجأة إذا بالرجال تكبِّر. فقام الوزير إليهم فرآهم قد كشفوا عن جرارٍ كبيرة مليئةٍ بالدنانير الذهبية. يحدثنا الحارس بعد أن شاخ، وقد مات الكاتب ومات الخليفة، يقول: أُخرِجت الجرار من وسَط بيتي وأنا أنظر وأتحسر، وأقول في نفسي: أبيع لجام حصاني لآكل به، وأنا قاعد فوق جرارٍ مملوءة بالدنانير الذهبية! وقبل أن يخرجوا التفت إليّ الوزير ليشكرَني على الضيافة، نظر في وجهي هنيهة، ثم إذا به يصرخ بالرجال: قفوا. فوقفوا بالجرار، وصار الوزير يغرِف من فم كل جرة حَفنةً من الدنانير الذهبية بيده ويلقيها في حِجري. وبهذا الذهب عشت غنياً حتى شيخوختي هذه.

عقاب عجيب

كان الوزير العباسي أحمدُ بنُ المدبِّر يستقبلُ الشعراء المادحين على شرْط: فإن جاءه شاعر ضعيفُ الشعر سخيف المعنى قال لغلامه: امضِ به إلى المسجد، ولا تفارقْه حتى يصليَ مئةَ رَكعة. جاءه يوماً الحسينُ البصْريُّ الشاعر، وقبل أن يُنشد قال له الوزير: أتعرفُ الشرط؟ فقال نعم. وأنشد:

وقالوا يقبَلُ المِدَحاتِ لكن جوائزُه على المَدْحِ الصَّلاةُ
فقلتُ لهم: وما تُغني صلاتي عيالِيَ، إنما تُغني الصِّلاتُ

فاستظرف الوزير قوله وأمر له بمئة دينار. ثم قال له: من أين أخذت هذا المعنى؟ فقال: من قول أبي تمام:

هُنَّ الحَمامُ فإن كَسَرتَ عِيافةً مِنْ حائهنَّ فإنهنَّ حِمامُ

المنديل الحرير

كان عليٌّ بن يزيد كاتباً عند أمير عباسي، وغضب عليه الأمير وصادر أمواله ولم يَبْقَ له إلا دابةٌ بسرجها ولجامها وجُبةٌ وعِمامة، وبقي عنده غلامٌ يخدمه. وكان الكاتب يركب دابته في الصباح فيتردد على من يعرفه في المدينة عساه يجد عملاً، ثم يعودُ ظهراً، فيأخذُ غلامه الدابة فيعمل عليها حمّالاً ليكسب دراهم يشتري بها علفاً للدابة وخبزاً له ولسيده. واتفق أن الغلام لم يكسب شيئاً يومين فبات هو وسيده (عليُّ بن يزيد) جائعيْن. ففكر عليٌّ في هذه الحال. ونظر في بيته فلم يجد فيه شيئاً يصلح أن يباع. فأخرج منديلَ حريرٍ عتيقاً، كان ضمن خِلعة خلعها عليه الأمير أيام الرضا، وقال لغلامه: انطلق إلى السوق وبع هذا المنديل، واشترِ بثمنه علفاً للدابة، فإن صَبرْنا نحن على الجوع فهي لا تصبر، وإن زاد درهم فاشتر لنا خبزاً. مضى الغلام إلى السوق. وجلس عليّ بن يزيد في بيته فرأى في ساحة البيت طائر الشاهَمُرج الذي كان عنده (وهو طائر شبيه بالصقر) رآه قد ضعف لقلة الأكل فلا هو قادرٌ على أن يطير ليصيد لنفسه، ولا هو يجد في البيت شيئاً يأكله. ثم إذا بعصفور يقف على حوض ماء في الفناء ليشرب. فنهض إليه الشاهمرج ليفترسَه. ولكنه كان أضعفَ من أن ينقضَّ على العصفور. فأفلت العصفور وطار. ثم رجع العصفور إلى المكان نفسِه، ووقف على مقربة من الشاهمرج فانقض عليه وابتلعه، وقويت نفس هذا الطائر الكاسر بعد أن أكل العصفور، وصار يصفق بجناحيه فرحاً وقد شبع. رأى عليّ بن يزيد هذا المنظر فبكى. ورفع رأسه إلى السماء وقال « اللهم كما فرجت عن هذا الشاهمرج فرّج عنا، وارزقنا من حيث لا نحتسب». وعاد الخادم بخبز ولحم، وقال إن البزَّازَ في السوق عرف قيمة المنديل فأعطاني فيه مئةَ درهم، وهذه بقيتها. يحدثنا علي بن زيد: بعد أيام نفِدَت الدراهم، وعدنا إلى ما كنا فيه. وعاد الشاهمرج ضعيفاً. وفي المساء جاءني رسول الأمير. فقلت هو الحبس أو الفرج، ومضيت إليه. دخلت مجلسه فلوح أمام ناظريَّ بالمنديل الحرير، وقال: ما جعلك تبيع مناديلَنا في السوق

إلا وقد اشتدت بك الحاجة. قد جاءنا تاجر بهذا المنديل وعليه طِرازُنا فعرفناه. فاعتذرت بما حضرني من قول. فناولني الأمير المنديل. وسألني وهو يبتسم: فبكم بعته؟ قلت بمئة درهم. قال: اشتريناه من البزاز بثلاثمئة، وما اشتريناه إلا وقد حَدَسْنا أنه مما نفحناه وليَّ نعمتنا، وتذكَّرت أنني كنت زدته في خلعتك. فدعوت للأمير واقفاً. وصمتَ الأمير، فتهيأت للخروج، فقال: اجلس. ولم أزل من يومِئذ جالساً، فقد أعادني الأمير إلى الخدمة.

للوعد حلاوته

كلَّم الحاجب الوزير في حاجة لرجل. فقال له الوزير: حسناً، هذا وعدٌ مني بإنجازها، فقل له إنني وعدته. فقال له الحاجب: وما يدعوك إلى الوعد يا سيدي، وبوسعك قضاءُ الحاجة من غير تأخير، فهذا أشبه بمنزلتك الرفيعة. فقال له الوزير: هذا قولُ من لا يعرفُ موقعَ الصنائعِ من القلوب. الوعد يجعل النفس تتحدث بما سيكون لها من سرور عند الإنجاز، الوعد كرائحة الشواء في أنف الجائع، إنها تجعلك تتهيأ لما ستلقى من سرور عندما يحين وقت الأكل. دعه ينتظرُ الإنجاز ويستشعرُ لذة الانتظار حتى يحسُنَ في نفسه موقعُ الصنيعة.

كيد النساء

كان للأمير زوجتان، وكان بهما سعيداً. وذات يوم دخل عليه وزيرُه فرآه مغتماً وغاضباً، سأله: ما الخبر أصلح الله الأمير؟ فدفع إليه رقعة مكتوباً فيها أن زوجته الثانية تخونه، وأن في القصر خادمين يعرفان الخبر ولكنهما يتكتمان عليه، وفي الرقعة اسمُ الخادمين. قال الوزير للأمير: وهل سألت الخادمين؟ قال الأمير: سألتُهما فأنكرا ملياً، فعرَّضتُهما للضرب وصنوفِ العذاب فأصرا على الإنكار، ثم إن أحدَهما أقرَّ، ثم أقرّ الثاني بأنها تخونني. قال له الوزير: وما أنت فاعل أيها الأمير؟ فقال الأمير: سأقتلها، لكن بعد أن أعرفَ مع من تخونني. فاستأذن الوزير وتناول المصحف، وفتحه كيفما اتفق له، يستخير،

فقرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾. ثم قال للأمير: تترك الأمر لي مع الخادمين وتتروى قليلاً؟ فأمر الأمير بالخادمين فدفعا إلى الوزير. فأخذ الوزير أحدَهما منفرداً وسأله، ثم أخذ الثاني وحدَه وسأله، فرأى في كلامهما اختلافاً. فأحضرهما معاً وقال لهما: لئن قَتل الأمير زوجته ظلماً، ثم عرف الحق فسيكونُ نصيبُكما الموت، فاصدقا الآن تَنْجُوا. فتلجلج الخادمان ثم قالا إن الزوجة الأولى أمرتهما بأن ينكرا خبرَ الخيانة وأن يتحمّلا التعذيب، ثم أن يعترفا بعد ذلك ببعض التلكؤ، حتى تصبح التهمة مؤكدة. وقالا: لقد نالنا عذاب كثير، واعترفنا بخيانة الزوجة الثانية بحسب ما طلبته منا الزوجة الأولى. وبكيا وانتحبا. فحمل الوزير الخبر إلى الأمير، ففوجئ إذ وجده في صدر مجلسه منشرح الأسارير، فطلب النجوى، واختلى بالأمير. قال له الأمير وهو يبتسم: زوجتي الأولى أقرتْ بأنها هي التي دبرت الأمر كله، وأبدت ندمها. فقص عليه الوزير أن الخادمين قالا ذلك أيضاً. وهكذا جاءت براءة الزوجة الثانية من كل وجه. قال الوزير: نعاقب الخادمين؟ قال الأمير: خادمان أخلصا لمولاتهما واحتملا العذاب، فهذا كان عقابَهما. ثم أردف الأمير، فأما تلك التي افترت وكادت أن تودي بحياة ضرتها فهي أم أولاد، أكلتها الغيرة، ثم إنها سارعت بالإقرار. وأخذ الأمير شهيقاً، ومع زفيره تلا: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

رسائل مشفَّرة

كان الوالي متوارياً من الأمير، وكان الأمير يطلبه كي يقتلَه. فطلب الأمير من وزيره أن يكتب للوالي كتاباً يقول له فيه إن الأميرَ راض عنه، وإن بمقدوره القدومَ إلى حلب للالتحاق بمعية الأمير. عرف الوزير أن الأمير يريد استدراج صديقِه الوالي كي يقتله. ولكنه مجبر على الكتابة. فكتب كتاباً لطيفاً يستأنس به الوالي ويدعوه إلى القدوم. وفي ختام الكتاب كتب عبارة «إن شاء الله». وضع شدة على إنْ، فأصبحت إنَّ. قرأ الوالي الكتاب وانتبه إلى هذه الشدة

التي في غير موضعها. وأدار الأمر في عقله فخطرت بباله الآية ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾. ففهم الإشارة وكتب رداً على الرسالة. وجاء في الرد (إنّا الخادم المطيع لسيدنا الأمير) وكسر كلمة أنا، فأصبحت إنّا. عندما قرأ الوزير الرسالة فكر في (إنا) هذه، وعرف أن صاحبه يشير إلى الآية ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾. ونجا الوالي.

الأعرابي يعيد صلاته

صلى أعربي صلاة خفيفة، وكان الوالي في المسجد فقام إليه وصفعه، وقال: أعد صلاتك. فصلى الأعرابي صلاة متمهلة. وعندما فرغ قال له الوالي: أرأيت! أهذه الصلاة أحسنُ أم الأولى؟ فقال الأعرابي: بل الأولى، الأولى كانت خوفاً من الله، والثانية خوفاً من صفعة ثانية.

إلحاح ونجاح

افتقر أعرابي وجف عنده الزرع والضَّرْع. فقصد باب الأمير مالكِ بنِ طوق. فرده الحجاب رداً غليظاً. فأقام يومين وليلتين، يطوف حول القصر متحيِّناً فرصة خروج الأمير. فلما خرج الأمير أسرع الأعرابي وأمسك بعِنان فرسه. حاول الحرس إبعاده، فتعلق وتشبث، وأخذ ينشد:

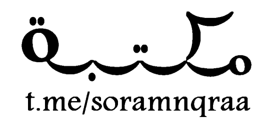
ببابِكَ دونَ الناس أَنْزَلْتُ حاجتي
وأقبلتُ أسعى نحوَه وأطوفُ
ويمنعُني الحُجَّابُ والليلُ مُسْبِلٌ
وأنتَ بعيدٌ والرجالُ صُفوفُ
يَطوفونَ حولِي عابِسين كأنَّهُمْ
ذئابٌ جِياعٌ بينَهُنَّ خَروفُ
وما ليَ في الدنيا سواكَ، ومَا لِمَنْ
تركتُ ورائي مَربَعٌ ومَصيِفُ

فجئتُكَ أَبغي الخيرَ منك، فراعَني
ببابِكَ مِن ضَربِ العبيدِ صُنوفُ

فقال مالكٌ لحرسه ورجال حاشيته: الدرهمُ عليَّ بدرهمين. فأخذ بعضهم يعطي الأعرابي مئة درهم لينال بدلاً منها مئتين من الأمير، وبعضهم أعطاه أكثر. أفرغ رجال الحاشية والحرس ما معهم من المال لكي ينالوا الضِّعف. فمضى الأعرابي بآلاف الدراهم.

إفحام الصاحب بن عباد

ذم أبو حيانَ التوحيديُّ الصاحبَ بنَ عباد كثيراً. ولكن هذا الأمير كان يحب أهل الأدب ويتجاوز لهم عن بعض ما يبدر عنهم إذا أعجبه منطقُهم. قال الصاحب يوماً لجلسائه: ما أفحَمني أحدٌ كأبي الحسن البُدَيْهيّ، فإنه كان عندي وقَدَّمتُ إليه فاكهة فأمعن في المِشمِشَ يتناول الواحدة إثر الأخرى. فقلت له: المشمشُ يُلَطِّخُ المَعِدة. فقال: لا يعجبني المضيف إذا تطبَّب. فأفحمني.



قصص من الشرق والغرب

انتقام

أحس الوزير أن الملك يريد به شراً. وذات صباح داهم الجند منزل الوزير وأُحضر إلى مجلس الملك. فاتهمه الملك باتهامات باطلة، وقال له: جزاؤك الموت. قال الوزير: أَطلُبُ قبل موتي طلباً. قال الملك: اطلب أيَّ شيء إلا العفو. فقال الوزير: وصيةٌ تركتُها لولدي في صندوق صغير وضعته في ديوان الوزارة في المكان الفلاني، توصِلونها إليه. وضَربَ السياف عُنُقَ الوزير في ذلك المجلس. ثم أمر الملك بإحضار الصندوق حالاً قبل تسليمه لولد الوزير المقتول. فتحه فوجد فيه ورقة صغيرة وبداخلها حبة بيضاء، وقد كُتب على الورقة: هذه الحبَّةُ يا بُنيَّ تجعلُك تعيشُ فوق المئة سنة. فما كان من الملك إلا أن ابتلع الحبة، فمات من ساعته. وهكذا أخذ الوزير بثأره، وهو ميت.

على هامش الدرس

عندما كان كسرى أنوشروان صبيّاً صفَعَه مؤدِّبُه دون سبب. فنكَّس كسرى رأسه، ومضى المؤدبُ يلقي عليه الدرسَ، وكأنَّ شيئاً لم يكن. ومرَّتِ السنواتُ، وأصبح الصبي ملِكاً. فكان أولَ ما صنعه أن طلب إحضارَ المؤدب. فمَثُل المؤدِّب بين يديه. قال كسرى، والشررُ يتطاير من عينيه: لماذا صفعتَني؟ قال المؤدب: ألم تنسَ تلك الصفعة؟ قال كسرى، وغضبُه في ازدياد: لم أنسَها،

ولن أنساها. قال المؤدِّب: كذلك كلُّ مظلوم. لا ينسى. فسكت الغضب عن كسرى، وطأطأ رأسه وقال: أحسنت. وكان كسرى أنوشروان أعدلَ الأكاسرة.

الصَّهْصَلِق

كانت امرأةُ سقراطَ صخَّابة كثيرة الأذى، كانت بالتعبير العربي القديم صَهْصَلِق. كانت ذات يوم تغسل الأثواب وهو جالس ينظر في كتاب، وراحت تَكيل له قوارعَ الكَلِم من لوم يُفضي إلى شتم، وهو ساكت يطالع في كتابه. ثم إنها أراقت ماء الغسيل فوق رأسه، فما زاد على أن قال: ما زالت تُبرِق وتُرعِد حتى أمطرت.

الناشر الظريف

يحدثنا مارك توين الكاتب الأميركي الساخر عن أول كتاب كتبه: ذهبت إلى السيد كارلتون بحسب موعد، وقدمت إليه الكتاب. فقال: «الكتب! الكتب! انظر وستجد في كل مكان حولك كتباً تنتظر النشر. هل تظن أنه تنقصني الكتب؟ المعذرة، لست بحاجة للمزيد. أتمنى لك صباحاً طيباً». ومرت إحدى وعشرون سنة، وزارني كارلتون. صافحني وقال: «أنا لست شخصاً مهماً على الإطلاق، ولكن عندي مزية أفخر بها، وقد تخلِّدُ ذكري: لقد رفضت نشر كتابك الأول، وبهذا أستحق جائزة الغباء للقرن التاسع عشر دون منازع». قلت لكارلتون: حسناً أنك اعتذرت لأنني كنت في كل يوم من السنوات الإحدى والعشرين الفائتة أقتُلُك في خيالي، كلَّ مرة بطريقة. الآن صرت صديقاً.

العُزْلة

هذه قصة من تشيخوف. تراهن مصرفي كبير مع شاب في الخامسة والعشرين على مليوني روبل يأخذها الشاب إن هو استطاع اعتزال الناس تماماً خمس عشرة سنة. فأسكنه المصرفي في كوخ بحديقة قصره، وللكوخ نافذة يمرَّر للفتى منها الطعام والشراب والكتب. ولا يكلم أحداً، ولا يسمع صوت

إنسان. بل هو يَترُك ورقة بما يحتاج إليه، فتلبَّى طلباته بصمت. ووُكِّل بالكوخ حارس. ومضت سنة. قرأ الفتى الروايات الخفيفة، ومضت خمس سنين، فقرأ الفلسفة، والعلوم. وعشرُ سنين. وفي كل مرحلة يصف لنا القاص الروسي نفسية الشاب وما يعتريه من إحباط ويأس. وما ينتابه من أفكار في الحياة والناس. وقبل أن ينقضيَ الأجل بيوم واحد كان القلق واليأس يعتريان المصرفي الذي ساءت حاله وكاد يفلس. قرر المصرفي أن يقتل الشاب. لكن الشاب كان أسرع منه. فقبل ساعات من انتهاء المدة تسلل الشاب من النافذة ليلاً، تاركاً ورقة يقول فيها إنه أخلَّ بالشرط وخرج قبل انقضاء المدة بساعات، ولا يريد المليونين. قد بلغ أعلى مراتبِ الحكمة في عزلته.

منتهى الإيجاز

يسمون المراسل غير المتفرغ سترينغر. ومعناها «أبو الخيطان». فسترينغ في الإنجليزية معناها خيط. ذلك أنهم كانوا في الصحف البريطانية يستقبلون التقرير من المراسل وينشرونه. فإن كان المراسل موظفاً فهذا يتقاضى مرتباً. وإن كان متعاوناً فإن محاسب الجريدة يقيس «بالخيط» الأعمدة التي نُشرت فيها تقارير المراسل في ذلك الأسبوع، ويحاسبه. اتفق أن المراسل مايكل جونز كوبرفلد سميث - لنسمه مايكل تسهيلاً- اتفق أن المراسل مايكل كان يطيل تقاريره، وظل المحرر يؤنبه ويمعن في تقاريره شطباً. ذات يوم بعث مايكل بتقرير هذا نصه: «توقفت سيارة مستر جونز فظن أن البنزين نفِد، فترجل وفتح خزان البنزين ليرى بنفسه، وأوقد عود ثقاب. الجنازة الخميس منتصف النهار».

الدراجة الحمراء

اجتمع عشَرة كهول في نادٍ في فرانكفورت، كانوا جميعاً في الفصل الدراسي نفسِه بالمدرسة قبل أربعين سنة، وانقطعت الأواصر، وسافر من سافر، ومات من مات. واتفق العشَرة على لقاء على غداء. ضحكوا على أنفسهم وهم يتعانقون، فهذا فَقَد شعره وذاك فقد أسنانه، وآخرُ انتفخ بطنه ورابعٌ انحنت

قناته. ثم قدَّموا فريتز كبيرَ الجراحين ليلقيَ كلمة افتتاحية. قال فريتز: أحسنُ من الكلمات المكرورة أن أقص عليكم قصتي. ألا تتذكرون دراجتي الحمراء؟ هتف بعضهم: بلى نتذكرها. قال: كان أبي عاملاً في مصنع. وكنت أتمنى الحصول على دراجة، ويقول لي: يا بني لا نملك مالاً لشرائها. وذات سنة، رأيت في المهرجان السنوي لفرانكفورت كُشك يانصيب، والجائزة الكبرى دراجةٌ حمراء. ودفعت عشرين فِنِكاً وسحبت، وبالطبع لم أفز، وذهبت إلى البيت حزيناً. في اليوم التالي اصطحبني والدي إلى ميدان المهرجان، وقال لي: هيا جرب حظك مرة أخرى ولا تيأس. وأعطاني دراهم فسحبت، ويا للمفاجأة! حمل صاحب الكشك الدراجة وبارك لي. وفرحت فرحاً كبيراً، وعرفت أنني رجل محظوظ، وتغيرت نظرتي إلى الحياة. ما لم أعرفه صغيراً عرفته بعد موت أبي. مات أبي، ومرت سنتان ودخلت كلية الطب، ولكنني بدأت أفكر في ترك الكلية والهجرة إلى هامبورغ كي أعيش حياة الشباب الصاخبة في شوارع غريبة لا يعرفني فيها أحد. فأجلستني أمي قبالتها، وقالت: يا فريتز، أتذكر دراجتك الحمراء القديمة؟ قلت: نعم، ما بالها؟ قالت: لقد اقترض أبوك مئةً وخمسين ماركاً، ودفعها لصاحب الكشك، لكي يجعلك تربح. قال إنه يريدك أن تؤمنَ بنفسك وأن تُقبل على الدنيا متفائلاً. لقد سددنا ثمن تلك الدراجة أقساطاً على مدى سنة. كان أبوك دائماً يتمنى لك أن تكون طبيباً ناجحاً. الآن القرار لك. بصراحة أيها السادة، لم أبك ولم أعانق أمي. تعرفون أنني من عائلة متميزة بالبرود. لكنني عرفت فوراً أنني لن أخذل أبي حتى وهو ميت. ومضيت في دراستي.

التعجيل

ازدهر فن القصة القصيرة أيام كانت هناك مجلات. وبضمورها ضَمَر. كنت أقرأ قصص غي دي موباسان وتشيخوف في مجلة المقتطف. هذه المجلة ماتت قبل ولادتي، ولكنني كنت أطالع في أعدادها القديمة المجلَّدة في مجلدات. وقرأت قصة ترجمها محمد السباعي، وهو والد الروائي يوسف

السباعي. نتحدث عن الابن قليلاً ثم نعود إلى أبيه. يقول عبد اللطيف السعدون في مقال له في موقع العربي الجديد: (سألت يوسف السباعي، وأنا أحاوره على التلفزيون، عما تعنيه روايته «طريق العودة» بالنسبة إليه، أجاب: «أردت من روايتي هذه أن أضع القضية الفلسطينية في مكانها الطبيعي في الذاكرة المصرية»). وقُتل يوسف السباعي برصاص متطرفين فلسطينيين. وتنصلت المنظمات والفصائل، لكنه اغتيال ترك جرحاً.

والده محمد السباعي ترجم كثيراً من القصص القصيرة. والقصة القصيرة ليست ذاتَ شجون. هي شجن واحد، (والشجن بالعربية الغصن) فالحديث ذو أغصان متفرقات، والقصة القصيرة كالشجرة أغصانها جميعاً مرتبطة بجذعها. قال تشيخوف ينصح القاص: إذا علَّقت في بداية القصة بندقية على الجدار، فيجب أن تطلقها في مكان ما من قصتك. هيا نتفرج على أسلوب محمد السباعي وهو يترجم قصة الشيطان لموباسان. يصف الكاتب العجوز لاربيب: «وكانت لاربيب هذه عجوزاً تُستأجر للقيام بالأعمال السخيفة المضجرة المسؤومة، كانت تخيط أكفان الموتى وتغسل ملابس الأحياء، وكانت مغضَّنة البشرة مشنجة الأديم، كأنها تفاحة العام الفائت، سيئةَ الخلق ضجوراً برمة، حسوداً حقوداً تمشي مقوسة القناة». المهم أن لاراپيه - وجعلها المترجم لاربيب - كُلِّفت برعاية عجوز مشرفة على الموت. لقد استُدعي القسيس ونالت المحتضَرة الغفران. وقال الطبيب إنها ستموت بين يوم وليلة. وجُعِل للاراپيه مبلغ مقطوع تأخذه كاملاً عن الأيام التي بقيت للمريضة. رضيت لاراپيه بالصفقة، واستغفرت الله لأنها تقامر على حياة إنسان. وعاشت العجوز يوماً ويوماً ويوماً. وضجرت لاراپيه. كانت المحتضَرة فاتحةً عينيها وتحرك شفتيها حركة خفيفة، وتستجيب لحديث لاراپيه. قالت لها لاراپيه بعد انقضاء أسبوع: لا تقلقي يا سيدتي، فقابض الأرواح حين يأتي يكون لابساً قلنسوة سوداء تغطي وجهه وتتدلى منها جديلتان، ويحمل مِكنسةً ويصرخ صراخاً حاداً ويتقافز أمام المحتضَر. فزوت المحتضَرة وجهها لهذا الحديث. وبعد سويعة، ذهبت لاراپيه إلى المخزن

ولبست قلنسوة سوداء غطت وجهها واتشحت بملابس عتيقة وحملت مكنسة ودخلت غرفة المحتضرة وهي تتقافز وتصرخ صراخاً حاداً واقتربت من السرير. فرفعت المحتضَرة رأسها تبتغي القيام والفِرار، ثم انهارت على سريرها ميتة. وبكل هدوء أعادت لاراپيه المكنسة والقلنسوة إلى المخزن. وأغمضت جفني المتوفاة بمهارة. وركعت أمام فراشها تتلو صلاةً كانت تحفظها عن ظهر قلب.

الموظف

هذه قصة من تشيخوف. كان الموظف في المسرح وعطس، فتطاير الرذاذ على الجالس في الصف الذي أمامه، فإذا به جنرال. فاعتذر الموظف. قال الجنرال: لا يهم. وظل الموظف يعتذر. وانتهى العرض، وفي اليوم التالي ذهب الموظف إلى مكتب الجنرال. وأخذ يحاول أن يشرح له، وظل يعتذر. وأخيراً طرده الجنرال. فذهب الموظف إلى بيته، وارتمى على الأريكة، ومات.

أنكور

(أنكور) الفرنسية كلمة يرددها النظارة في المسرح، ومعناها «أعِدْ». وصاحبنا العربي لم يكن يعرف الفرنسية، وجاع فذهب إلى مطعم في باريس. وضع إصبعه على سطر في لائحة الطعام فهز الجرسون رأسه وعاد بطبق فيه سيقان الضفادع، فسُقط في يد صاحبنا، وقعد متحيراً، وراح يجيل النظر في المناضد المجاورة. رأى رجلاً يلتهم سمكة شهية حتى رأسُها رأسِها رأسَها. ثم إن هذا الرجل صاح بالجرسون (أنكور)، فجاءه الجرسون بسمكة مثلِها. فتهلل وجه صاحبنا، ظن أن أنكور معناها سمكة. فقال للجرسون (أنكور). فجاءه الجرسون بسيقان أخرى.. لضفادعَ أخرى.

خوش تبرير

عرفت فتاة لا تأكل السمك إلا مقطوع الرأس، تقول: لا آكل مخلوقاً وهو ينظر إليّ. كان بنجامين فرانكلين نباتياً، ركب السفينة فرأى الملاحين يأكلون

السمك فامتنع. ثم رآهم يشقون بطن سمكة كبيرة فإذا بداخلها سمكة صغيرة، فقال في نفسه: السمك يأكل بعضه، فلم لا آكله، وشمر عن ساعديه.

راضعة الغبار

قبل ثلاثين سنة أعلنت شركة هوفر أن من يشترِ جهازاً بقيمة مئة جنيه يحصلْ على تذكرة طائرة تصل إلى ستمئة جنيه، ليس في يانصيب وسحب، بل يحصل على التذكرة قطعاً. لكن الشركة ربطت الأمر بشروط تعجيزية من ملء نماذجَ، والتزامِ حدودٍ زمنية صعبة، ومراسلات. وبالفعل اشترى البريطانيون منتجات الشركة وفرغت الأسواق، وأخذت مصانع هوفر تعمل سبعة أيام في الأسبوع. وفرحت الشركة. كأنها كانت تجهل طبيعة مواطنيها! البريطانيون يعشقون ملء النماذج والكوبونات، البيروقراطية تسري في عروقهم. إن هي إلا أيام حتى بدأ الناس يقصفون الشركة بآلاف المطالبات، وعجَزت الشركة عن السداد، وطردت عدداً من كبار المدراء فيها، وظل الناس يجرُّونها إلى المحاكم ثمانيَ سنين، وسرعان ما بيع فرعها البريطاني لشركة إيطالية.

سلة المهملات

كان جيمس نايسميث قسيساً ومربياً. كان يشرف على التربية البدنية للطلاب في مدرسة أميركية. واشتد البرد في شتاء سنة ١٨٩١، فاستحال على الطلاب أن يخرجوا إلى الملاعب. فضجوا وعلت أصواتهم، وتشاجروا وهم حبيسون في غرف الدرس لا يبرحونها. فخطرت للأستاذ نايسميث فكرة. ثقب سلة المهملات من أسفلها وعلقها على الجدار، وقسم الطلاب إلى فريقين، وأعطاهم كرة، والفريق الفائز من يدخلها في السلة مرات أكثر. وعاش جيمس نايسميث بعد هذا «الاختراع» نحو خمسينَ سنةً ليرى لعبة كرة السلة ضمن دورة الألعاب الأولمبية في عام ١٩٣٦.

إحياء الموتى

كانت غريزهايم تعيش حياة أيِ بلدةٍ صغيرة، على جدولها الصغير. وحل بها يوماً شابان كانا يدرسان الطب. حدث هذا في ألمانيا قبل أن يكون هناك إنترنت، وحتى قبل اختراع الهاتف. استأجر الشابان غرفة فوق الحانة. تناولا أولَ عَشاء لهما في الحانة. وبالطبع أراد صاحب الحانة أن يعرف ما الذي أتى بهما إلى القرية. أخذ يسأل السؤال تلو السؤال، والشابان يجيبان إجابات مقتضبة. وأخيراً قال له أحدهما: نحن نجري تجربة مهمة، ستستغرق شهراً. فما هي التجربة؟ صاحب الحانة يخدم زبوناً ثم يعود إليهما بالسؤال. استولى عليه الفضول. أخيراً أخرج له أحدُهما ورقة مختومة بخَتم مذهب من بلدية غلوكشتادت: انظر، هل فهمت؟ هذا غير معقول؟ ماذا؟ أنتما قد تمكنتما من إحياء الموتى في غلوكشتادت؟ همهم الشابان، وقالا إنهما يريدان تكرار التجربة هنا في غريزهايم للتأكد من دقتها العلمية. ثم انصرفا إلى غرفتهما. في اليوم التالي كانت كل القرية تعرف أن الشابين يقولان إنهما تمكنا من إحياء الموتى. الكل سخر من الأمر. والتزم الشابان غرفتهما. يراهما الناس من خلال النافذة يحملان بعض أنابيب الاختبار ثم يتواريان. وفي الليل، شوهد الشابان في مقبرة البلدة. ويوماً بعد يوم ظل هذا دأبُ الشابين، يمكثان في الغرفة طول النهار، ويغشيان المقبرة ليلاً ويكتبان أسماء الموتى من على شواهد القبور. الناس في البلدة تبلبلوا. وصاحب الحانة يُقسم أنه قرأ شهادة رئيس بلدية غلوكشتادت حرفاً حرفاً، ورأى الخَتم المذهب. مر أسبوعان وبدأ بعض الناس يصدقون. في صبيحة يوم جاء ساعي البريد برسالة عنوانها: الغرفة التي فوق الحانة. جاء في الرسالة: أيها السيدان الجليلان، نحن نؤمن بالعلم وقدرته، وقد توفيت زوجتي العزيزة قبل ثلاثة أشهر وأنا في غاية الحزن. لكنها كانت مريضةً جداً، وكانت تتمنى الموت. وأرجوكما أن لا تحرماها هذه الأمنية، وأن تتركاها في راحتها الأبدية. التوقيع فلان الفلاني واسم زوجته كذا. ومرفق بالرسالة ورقةٌ نقدية من فئة العشَرِة تالرات. ومرت ليلة ومر يوم، وجاءت رسالة

أخرى من شاب يعمل في مجزرة البلدة: عمي العزيز المرحوم أحببته كوالدي، وقد توفي وترك لي بيتاً ومزرعة صغيرة. ويسرني بالطبع أن أعيد إليه البيت والمزرعة، لكنني أخشى أن يفاجأ ببعض ما يحدث في هذا العالم فقد كان حساساً جداً. أرجو أن تتركاه في راحته الأبدية. ومرفق بالرسالة بعضُ المال. ورسالة من سيدة مات زوجها وتزوجت بعده، وطيَّ الرسالة بعضُ المال. ومع دخول الأسبوع الثالث وردت رسالة من رئيس البلدية، يقول فيها إنه حريص على الحياة الوادعة للبلدة، وإنه صاحب مسؤولية ويريد للبلدة السلام الاجتماعي، وقد رصد مئة تالر للشابين العالمين، وقد أصدر لهما شهادة مختومة بخَتم البلدية يشهد فيها أنهما استطاعا إحياء الموتى. بسرعة حزم الشابان الأمتعة، وتوجها إلى مقر بلدية غريزهايم، قبضا المال وأخذا الشهادة، ثم مضيا إلى بلدة أخرى بشهادتين، وبكثير من المال.

رجل المطاط

لم يتعلم تشارلز في جامعة، ولم يكمل المدرسة. كان يساعد أباه في عمله، وتزوج باكراً وأنجب ستة، كان هذا في منتصف القرن التاسع عشر في أميركا. قبل اختراع السيارة، كانت عجلات العربات الخشبية خشبية. ما كان أحوجها إلى مادة طرية تغلف إطارها. راح تشارلز يجرب. وأفلس وسجن، وفي سجنه واصل تجاربه. رأى تشارلز المطاط دبقاً سريع الاهتراء، و«تخيل» مطاطاً صلباً لكنه لين، وليناً ولكنه ليس دبقاً. ولم يكتف بالخيال، فظل يجرب ويبحث. وخرج من السجن، واقترض المال من كل من يعرفه. جاع أولاده وهو يجرب. وأخيراً نجح في أن يحول خيالَه إلى حقيقة، خلط المطاط بالكبريت في عملية معقدة سماها الفولكنايزيشن، وابتدع مطاطاً لا يشققه الصقيع، ويصمد على الاحتكاك. ومات بائساً، فأما الشركة التي تحمل اسمه (واسمه العائلي غوديير) فقد أسست بعد وفاته بعقود، وربحت المليارات. ربح تشارلز أوقاتاً سعيدة وهو يجرب، وربح لحظة فرح عارم عندما نجح.

ألمانزو

ألمانزو وايلدر مزارع أميركي تزوج كاتبة روايات هي لورا إنغولز. وهي التي روت لنا قصة اسمه الغريب (ألمانزو). في الحروب الصليبية كان جده العاشر أو الثاني عشر محارباً، ووقع في كمين، وأنقذه رجل عربي اسمه المنصور، فدخل اسم المنصور في شجرة العائلة. من هنا ألمانزو، هي من ألمنصور.

انتقام الفيل

ڤلهلم بوش شاعر ورسام ألماني ساخر من أبناء القرن التاسع عشر. عاش بوهيمياً يلتقط المعرفة من هنا وهناك ويدرس في جامعة ويغادرها بعد سنوات بدون شهادة. كان رقيقاً يهزه من الأعماق ذبح المواشي. ومع ذلك فقد كتب ورسم قصصاً فيها كوميديا سوداء. أدار بعض قصصه على شخصيتين: (ماكس وموريتس) وهما ولدان ورشان مؤذيان.

هذه قصة: تسلل ماكس وموريتس إلى المخبز لسرقة الفطائر، فغاصا في دست العجين، فخبزهما الخباز في الفرن، فخرجا فطيرتين مخبوزتين، وأخذا يقضمان الخبز ثم خرجا سالمين. وهذه قصة أخرى، لكنها فظيعة: نراهما وقد راحا يشقَّان أكياس القمح في المخزن الملاصق لبيت المُزارِع، عبثاً وأذى. واكتشف المزارع الأمر، فحملهما إلى المطحنة فطُحنا، وتحولا إلى نُتَف صغيرة أكلتها البطات، وفي نهاية القصة يقول بوش: «ولم يشعر أحد بالأسف عليهما».

هذه القصة الثانية لم تصادف نقداً في البداية ثم انتبه الآباء إلى أنهم لا يريدون لأطفالهم أن يقرأوا شيئاً كهذا. ومُنعت القصة ثم أجيزت ثم منعت، ولكنها ظلت مشهورة، وظلت تطبع بين منع ومنع. هي من الأدب والفن الألمانيين اللذين بقيا حيين. (لو يلغون المثنى في العربية فنستريحَ منه، ولو يلغون أيضاً فاءَ السببية التي نصبتُ بها نستريح). اخترت قصة أخرى من قصص ڤلهلم بوش وجعلتها في صورة رباعيات شعرية على طريقة الأصل. اسم القصة (انتقامُ الفيل):

قد شوهد الفيل يسير بسرورْ   شبعانَ بعد أن تناول الفطورْ
جاء إلى بحيرة كي يشربا   من أنفه لِفمه يا عَجبا
وخُلْسَةً رماه أحمقٌ بسهم   لا يعبأُ السخيفُ كيف يرمي
الفيل لاحَقَ السفيهَ هائجا   وهرب السفيهُ يطلب النجا
وشدَّهُ من أُذْنه الملتويةْ   وجره للماء كي يربِّيَهْ
ألقاه في البحيرة العميقةْ   تأديبَه أراد، لا تغريقَهْ
وأوشكَ التمساحُ أن يُودِي بهِ   فانتشل الفيلُ الفتى مِن ثوبهِ
ورشَّهُ بالماء من خرطومِهِ   وكَبَّهُ الفيلُ على خَيْشومِهِ
يقول: دعني والكريمُ مَنْ عفا   أبوسُ خرطومَكَ وجْهاً وقفا
الرميُ في الصبَّارِ ليس إلَّا   عقابُ مَن على الأذى تسلَّى
وانصرَفَ الفيلُ وصارَ الأحمقُ   صبَّارةً.. لكنها تزغِّقُ
كم ذا لقينا الشرَّ من هذا وذا   وبعضُ خلقِ اللهِ يعشقُ الأذى

وهذا النص الأصلي:

Den Elefanten sieht man da
Spazierengehn in Afrika.
Gemütlich geht er zur Oase
Und trinkt vermittelst seiner Nase.
Ein Mohr, aus Bosheit und Pläsier,
Schießt auf das Elefantentier.
Da dreht der Elefant sich um
Und folgt dem Neger mit Gebrumm.
Vergebens rennt der böse Mohr,
Der Elefant faßt ihn beim Ohr.
Er zieht ihn unter Weh und Ach
Zu einem nahen Wasserbach.
Da taucht er ihn ganz munter
Mit seinem Rüssel unter.
Den Mohren hätte unterdessen
Beinah das Krokodil gefressen.
Nun aber spritzt den Negersmann

Der Elefant mit Wasser an.
Er hebt ihn bei den Hosen auf
Und trägt ihn fort in schnellem Lauf.
Und wirft ihn in ein Kaktuskraut;
Der Kaktus sticht, der Mohr schreit laut.
Der Elefant geht still nach Haus,
Der Mohr sieht wie ein Kaktus aus.

أنشر الأصل بعد الترجمة ازدهاء بما بذلت من جهد لتطويعه حتى قعد في وزن الشعر العربي. وبيت القصيد: (كم ذا لقينا الشرَّ من هذا وذا.. وبعضُ خلقِ اللهِ يعشقُ الأذى)، مقحم على القصة، ولكنني وجدته يقول شيئاً عن طباع بعض البشر. مات ڤلهلم بوش عام ألف وتسعمئة وثمانية.

قلب الأم

قصة سمعناها صغاراً في قصيدة للشيخ إبراهيم المنذر: قصة رجل طلب من ولد أن يقتل أمه ويأتيه بقلبها:

أَغـــرى امـــرُؤٌ يـومـاً غـلامـاً جـاهـلاً
بِـنـقـودِه حـتـى يـنـالَ بـهِ الـوَطَـرْ
قـال ائْـتِـنـي بـفـؤادِ أُمِّــكَ يـا فتى
ولَــكَ الـدراهـمُ والـجـواهـرُ والـدُّرَرْ
فـمضَـى وأَغـمَـدَ خِـنـجـراً فـي صـدرِهـا
والـقـلـبَ أخـرجَـهُ وعــادَ عـلى الأَثَــرْ
لـكـنَّـهُ مِــن فَــرْطِ سـرعـتِـه هـوى
فـتـدحْـرَجَ الـقـلـبُ الـمُـضَـرَّجُ إذْ عَـثَـرْ
نــاداهُ قـلـبُ الأمِّ وَهْــوَ مُـعَـفَّـرٌ:
ولـدي حبيبي، هـل أصابَـكَ مِـن ضَـرَرْ؟

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله

أخذت الأم ولدها إلى حكيم القرية، قالت له: قل لولدي أن يمتنع عن أكل الحلوى. قال لها الحكيم: عودي إليَّ بعد شهر. عادت المرأة بعد شهر ومعها ابنُها: فوضع الحكيم يده على رأس الصبي، وقال له: يا بُنيَّ، لا تأكل الحلوى. وتأثر الصبي بكلام الحكيم وامتنع فعلاً عن تناول الحلوى. وبعد أيام رجعت المرأة للحكيم، وسألته: لماذا طلبت مني الانتظارَ شهراً؟ قال لها: أنا نفسي كنت آكل الحلوى، ولم يكن من العدل أن أمنع الصبي منها. وفي شهر الانتظار امتنعتُ تماماً عن الحلوى، فتجرأتُ على توجيه النصيحة.

الصدق

أعلن البلاط الملكي أن الأمير الشاب سيختار زوجة له، وطُلب من الراغبات التقدمَ لمسابقة. أعطى الأمير كل فتاة بَذرة. وقال: «بعد ستةِ أشهر سأرى أيَّ فتاة أنبتتْ من هذه البَذرة أجملَ وردة.» بعد ستة أشهر عادت الفتيات، وكل واحدة تحمل بيدِها أصيصاً فيه وردةٌ جميلة. وعادت إحداهنَّ وبيدِها أَصِيص عقيم ليس فيه شيء. قال الأمير: سأختار الصدق. كانت البذور التي وزعها على الفتيات محمَّصةً في الفرن لا ينبُت منها شيء.

فِراسة الرومي

أسر المسلمون عدداً من رجال الروم كان بينهم شيخٌ ذو لحية بيضاء. وأمر قائد المسلمين بقتل الأسرى، لأن الروم كانوا نكثوا بالعهد وقتلوا أسرى المسلمين. فقُتل من أسرى الروم من قتل. وجيء بالشيخ، فقال للقائد: إن أنت أطلقتني سأحرر أسيراً مسلماً وأعودُ به إليك. قال القائد: ومن يضمنُ لي ذلك؟ تفرّس الرومي في الوجوه، ثم ثبتت عيناه على وجه جندي، وصرخ بدهشة: هذا يكفلني! قال الجندي: نعم. ومضى الأسير الرومي إلى قومه. قال القائد للجندي بعد يومين: والله لو استمر غيابه يوماً آخر لعاقبتك أشد عقاب

لتهوُّرك. ما الذي حملك على كفالته؟ قال الجندي: رجل في موقف الموت استنجد بي، فلم أرُدَّه، فإن صدق استعدنا أحد أسرانا. وفي مساء اليوم الثالث رجع الشيخ الرومي ومعه أسير مسلم.

طلب الرومي العجوز أن يرى الجندي الذي كفله. فدعي الجندي إلى خيمة القائد، فأعطاه الرومي الهدايا، وقال له: ولا تريدُ أن تسألني لماذا اخترتك أنت لتكفلني؟ قال الجندي: لماذا؟ قال الشيخ الرومي: لأنك ابني. فدهش القائد، وابتسم الجندي، وقال: وكيف ذاك، وأنا رجل مسلم وأنت رومي؟ قال الرومي: أليست أمك من سبايا الروم؟ قال الجندي: بلى. قال الرومي: وقد سُبِيتْ قبل ثلاثين سنة؟ فتحير الجندي. فوصف له الرومي خلقها وشكلها، ثم قال: لكن هذا كان وهي فتاة، أما الآن فلو رأيتُها أنا لما عرفتها. لكني أقول لك: أمك سمراءُ مثلَك وشحمةُ أذنها مشرومة. عندئذ هبط الشاب واقتعد الأرض، وكأنما لم تعد رجلاه تحملانه من هول الصدمة. وقال: بلى هي أمي. قال الرومي: سبى المسلمون أمك وهي حامل بك، وقد عرفتُك فِراسةً. رأيتُ سُمرة وجهك وشقرةَ شعرك. وناوله كيساً. قال له: في هذا الكيس حُليٌّ كانت لأمك. وقبل أن ينطلق الرومي إلى بلده قال للشاب: وأريد أن أخبرك بشيء عن أمك لا تعرفه أنت ولا تعرفه هي. أمُّك يا بني عربية، سبيناها طفلة لا تُدْرِك، وربيناها ولم تعرف لنفسها أهلاً سوانا، ثم عندما كبرت تزوجتُ أنا بها، وحملت بك، وسبيتموها مرة أخرى، وأظنها وضعتك في فراش رجل من رجالكم فأنت تظنه أباك. فإن رجعتَ إليها فأخبرها، لعلها أن تقع على أهلها وتعرفَ أنت أخوالَك. وانطلق الرومي إلى بلاده.

الشاهدتان

حضر رجل من زعماء العشائر مأدبة الأمير، وأخذت الأطباق تصف فوق المائدة، ومن بينها طبق فيه حَجَلتانِ مشويتان. فضحك زعيم العشيرة. قال له الأمير: أضحك الله سنك، علام تضحك؟ قال: كنت في شبابي أقطع الطريق.

ومر بي تاجر ومعه تجارة ثمينة وعليه ثياب جميلة. فأنزلته عن ناقته وكتفته. وامتشقت سيفي، فلست آمن إن تركته أن يلاحقني. وعندما أقدمت عليه أريد أن أذبحه تضرع إلي وبكى، فقلت له: لا بد من ذلك. فنظر إلى حجَلتين كانتا تقفان على صخرة بعيدة، وقال لهما: اشهدا أيتها الحجلتان أنه قاتلي. ثم إني أيها الأمير قتلتُه وسلبت ماله، وعفا الله عما سلف. فلما رأيت الحجلتين في الطبق يا سيدي الأمير تذكرت هذا الأحمق الذي يطلب الشهادة من حجلتين. قال الأمير: قد والله شهدتا عليك، وقبلنا شهادتهما. أيها الحرس خذوه. وقال الأمير للقوم لا تمسوا طعاماً قبل أن تروا دم هذا الفاجر، وقتله للتو.

مَن أخوك؟

خرج ابن الأنباري في قافلة يريد السفر من بغداد إلى دمشق ثم إلى مصر. وفي الطريق خان القافلة أدلّاؤها الأعرابُ ونهبوها. وتركوا الناس بلا زاد ولا جِمال ولا مال. وهام الرجال والنساء على وجوههم. مات بعض الرجال والنساء عطشاً. ورأى ابن الأنباري بنتاً صغيرة تحبو على الرمل وقد ماتت أمها، فحملها. ثم وجد الناجون في وسط الصحراء خياماً مضروبةً لقبيلة من القبائل، فناشدوا رجالها أن يحملوهم إلى دمشق لقاء مكافأة جزيلة. فحمل رجال القبيلة التائهين على الجمال وساروا بهم حتى وصلوا إلى دمشق. خرج أهالي دمشق لاستقبال أقاربهم، وراح كل واحد يعانق أهله وأقاربه. وابن الأنباري ممسك بالبنت لا يدري ما يصنع، فهو غريبٌ عن دمشق، وإنما كان يريد إكمال السفر إلى مصر. أخذ ابن الأنباري يمشي في أزقة دمشق حائراً، ووراءه الأعرابي الذي أوصله على ناقته يطالبه بإلحاح بالأجر. فرفع ابن الأنباري كفه إلى السماء وعلى ذراعه الأخرى البنتُ الصغيرة وقال: يا ربِّ! حمداً لك على النجاة، ولا أطلب منك إلا أن تحسن إلى هذا الرجل الذي نجّانا ببركة هذه البنت البريئة. وما إن أتمّ دعاءه حتى سمع رجلاً ينادي بأعلى صوته: من رأى ابنَ الأنباري فليدلّني عليه. فهتف ابن الأنباري بالمنادي وقال: أنا هو. قال له: أنت الحسنُ بنُ يوسُفَ الأنباري. قال له: ذاك أنا. فعانقه

المنادي. ودفع للرجل أجره وافياً. وأخذ ابن الأنباري معه إلى بيته وأحسن إليه وجهزه بما يحتاج إليه من مال وجمال. فأدرك ابن الأنباري أن أخاه في مصر كان قد أرسل مالاً إلى دمشق، كي يستعين به لمواصلة سيره، وأن الرجل الذي استضافه كان يرقب وصول القافلة. وتهيأ ابن الأنباري لمواصلة رحلته إلى مصر، فشكر الرجل وقال له: هل ما بعثه أخي من مال كان كافياً؟ أم تريدني أن أبعث إليك من هناك مالاً أتمم به ما نقص؟ قال الرجل: ومَن أخوك؟ قال له ابن الأنباري: وكيف أنقذتني وناديت عليَّ باسمي؟ قال الرجل: خرج أهالي دمشق يستقبلون أقاربهم لما سمعوا بعودة القافلة. ولم أخرج أنا لأنه ليس في القافلة أحد يخصني. ونمت عند الظهر فهتف بي هاتف وقال: قم من نومك واذهب إلى القافلة، وابحث عن ابن الأنباري. وكررها مراراً، وذكر اسمك كاملاً فحفظته. فقمت من نومي فإذا القوم قد ذهبوا بأهاليهم، فأخذت أطوف في الطرقات أنادي باسمك إلى أن وجدتك. فعرف ابن الأنباري أنها بركة تلك الطفلة.

من خراسان إلى مكة

خرج رجل من الكوفةِ بالعراق إلى مكةَ حاجاً. وأخذ معه كلَّ ما يملك من المال بعد أن باع داره. وقال في نفسه: أحجّ أولاً، ثم أتزوج وأقيم في مكة. وفي مكةَ وضع ماله في مكان. وعاد إليه فلم يجده. فاضطرب وتحيّر، ثم توكل على الله وأكمل حجّه. لم يبق له سوى ملابسه التي عليه، لكنه صبر واحتسب. وبعد يومين عضّه الجوع، ولم تطاوعه نفسه أن يستجديَ الناس. وفي اليوم الثالث أشرف على الهلاك جوعاً. وبينما هو عند مقام إبراهيم يجرّ رجليه جراً إذ ارتطمت قدمُه بشيء ثقيل. فإذا هو كيسٌ من المخمل الأحمر. رفعه إليه فإذا فيه مال. عاد بالكيس إلى النزل الذي ينزل فيه، وفتحه فإذا فيه ألفُ دينار ذهباً. عاد من فوره إلى مقامِ إبراهيم وراح ينادي: من ضاع له شيء فليعرِّفه وليأخذه. ظل ينادي حتى صُلِّيت العشاء. وإذا رجل خراساني يأتيه: عرّف الخراساني الكيس بأوصافه الدقيقة وبعدد ما فيه من الدنانير. فقال له

الرجل (وقد جلس على حجر متهالكاً من الجوع): هل تعطيني مئةَ دينار إن أعطيتك الكيس. قال له الخراساني: لا. قال الرجل: خمسين. قال: لا. قال: عشرة. قال: أبداً. فقال له الرجل: الكيس معي، ولا أريد منه سوى دينارٍ واحد، أريد أن أسدَّ جوعي. فقال له الخراساني: ولا حتى ديناراً واحداً. قال ذلك وهم بالانصراف، عجيب أمرُه. لحق به صاحبنا وقال له: خذ الكيس، ولا أريد منك شيئاً. فأخذ الخراساني الكيس. وقال للرجل: من أين أنت؟ وما نسبك؟ فقال له الرجل: يا أخي تراني جائعاً أكاد أموت، وتحرمني ديناراً، ثم تسألني عن نسبي؟ ولكن رجالاً كانوا بالمكان أجابوا الخراساني، وقالوا له: هذا من أحفاد الحسين بن علي. فهزّ الخراساني رأسه. وقال: لهذا الكيس قصة. لقد أعطاني إياه تاجر عظيم الثراء في خراسان. وقال لي: لا تفرقه عن الفقراء. بل أعطه لرجل فقير من آل البيت. فتحيّرت زمناً وبحثت بين الحجاج عمن هذه صفته فلم أجد، حتى وجدتك. خذ الكيس، بارك الله لك فيه.

الإساءة والإحسان

سافر أحمد وصديقُه مشياً. وفي الطريق تجادلا، فصفعه صديقُه. فكتب أحمدُ على الرمل: صديقي صفعني. ثم تراضيا، وأكملا سيرهما. وعطش أحمد، لكنه فوجئَ بأن قِربتَه مثقوبةٌ وفارغة، فأسرع إليه صديقُه وسقاه. فنقش أحمد على صخرة: صديقي أنقذني. سأله صديقه لماذا كتبت مرة على الرمل، ومرة على الصخر؟ فقال أحمد: كتبت إساءة الصديق على الرمل حتى تمحوَها الريح، وكتبت إحسانه على الصخر حتى لا يمحوَه شيء.

المصعد المعطل

سكن ثلاثةُ شبان شقةً في الدور الخامسَ عشر. رجعوا ذات مساءٍ إلى الشقة، فوجدوا المِصعد معطلاً، واتفقوا أن يرويَ كلٌّ منهم قصةً تستمر خمسةَ أدوار وهم صاعدون على الأدراج. روى الأول قصةً فكاهية، وروى الثاني قصةً جادة، وبقيت خمسةُ أدوار، فروى الثالث قصةً مأساوية. ووصلوا إلى

بابِ الشقة في الدورِ الخامسَ عشر. ويا للمصيبة! اكتشفوا أنهم نسوُا المِفتاح. وهكذا الحياة: ثلثُها الأول لهوٌ ولعب، والثلث الثاني جِدٌّ وعمل، وثلثُها الأخيرُ أمراضُ الشيخوخة. ومن بلغ نهايتَها ولم يتهيَّأْ بمفتاحٍ للجنَّة فلن يدخلَها.

الأجر أحلى

قال التاجر لرجل فقير ممزقِ الثياب مرَّ من أمام متجره: تعال يا هذا! فدخل الفقير المتجر. وضع التاجر على المنضدةِ دينارين ذهباً. وقال للفقير: عندي بضاعةٌ أريد تحميلَها، وهذا الدينار أجْرُ التحميل. وأما الدينارُ الآخر فهو صدقةٌ لوجه الله، فاختر أحدَهما، وليس لك إلا واحدٌ منهما. فأسرع الفقير إلى البضاعة يحملها على عاتقه، وهو يقول: الأجْرُ أحلى.

العب معي ساعة

قال الطفل لأبيه: العبْ معي ساعة. فنهره والده قائلاً: أنا أعمل صباحَ مساء، وأكسب في الساعةِ الواحدةِ مئةَ ريال. هيَّا انصرفْ والعبْ وحدك! بعد مدة طلب الطفل من أبيه أن يأتيَ معه إلى غرفته. فصحب الأب طفله. مد الطفل يده تحت وسادته وأخرج مئة ريال كان يجمعُها من مصروفه. وقال لأبيه: ها هي مئة ريال، خذْها بدل ساعة العمل. وتعال، والعب معي ساعة.

هواية عجيبة

قصد أبو المغيرةِ مدينة الرملة. اقترب من المدينة، وهبط عليه المساء. وجد نفسه عند مقبرتها، فقال: أنام بين القبور وأوفِّرُ أجر الخان هذه الليلة. وبينما هو يوسّد لنفسه مكاناً إذا شبحٌ بين القبور. استل أبو المغيرة سيفَه، واختبأ خلف شاهد قبر. رأى شبح ذئب كبير، رآه واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، ثم رآه يقعي. بدأ الذئب ينبش قبراً. تقدم أبو المغيرة بحذر، ورفع سيفه وأهوى به. فرفع الذئب يده. فقُطعت يده من ضربة السيف، وهرب مسرعاً يمشي على قائمتيه كالبشر. أمسك أبو المغيرة باليد المقطوعة، فإذا هي يد امرأة. أخذ

يركض خلفها، وهو يراها من بعيد. ودخل المدينةَ وهو يعدو خلف تلك الفتاة. رآها تضع على ظهرها فرواً كفرو الذئب وله ذيل. ثم دخلت الفتاة بيتاً وأغلقت بابه. فعلَّم أبو المغيرة البيت حتى يعرفَه، وعاد لينام في المقبرة. في اليوم التالي سأل أبو المغيرة عن صاحب البيت فقيل له: هذا بيت قاضي القضاة. وعند العصر قصد أبو المغيرة البيت واستأذن على القاضي. أخرج اليد المقطوعة ووضعها أمامه، فانتفض القاضي. وقصّ أبو المغيرةِ القصة. دخل القاضي واستوضح الأمر، فإذا اليدُ يدُ ابنته. كانت هذه الابنةُ كلما سمعت أن أحداً دفن خرجت في الليل، ولبست فرو الذئب لتنبش القبر وتأخذَ الكفن. وكانت أمها تتكتم عليها. وقد جمعت البنت في قبو البيت عشراتِ الأكفان. كانت مصابةً بضرب من جنون نبش القبور وجمع الأكفان. رأى القاضي ابنتَه ويدُها مقطوعةٌ، وقد عالجتها أمّها بالزيت المغلي. وخرج إلى أبي المغيرة، قال له: هذه ابنتي، وهذا أنت. ولا خروج لك من هذا البيت إلا أن تتزوجها وتستر عليها، ولك ثوابُ إصلاحها. ثم إنك قد قطعت يدها. رضي أبو المغيرة. وتزوج الفتاة. وأقام معها في بيت أبيها. وفي ليلة من الليالي أحسّ أبو المغيرةِ وهو نائم بثقْلٍ على صدره. فتح عينيه، فرأى زوجتَه جاثمةً على صدره، وجاريتانِ تعقدان الحبال وتربطان ساقيه. ورأى في الحجرة جارية أخرى في يدها سكين. قالت له زوجته: الليلةَ تموت. قال أبو المغيرة: أو نتكلمُ قليلاً؟ قالت: تكلم. قال لها: لا تأمنين أن ينكشفَ أمرُك فتقتلين. ولكنّ عندي لك ما ننجو به جميعاً. قالت: ماذا؟ فقال لها: أنت طالقٌ بالثلاث. وأنا أرحل عن البلد في هذا الليل البهيم. فقامت الفتاة عن صدر طليقها، وفكّت أغلاله. وأعطته كيساً فيه مئةُ دينار. وذهب ولم يعد، وقص علينا القصة.

بائع المصابيح

كان أبو سعيدٍ الأعمى يبيع المصابيح، ويمشي بها في الأسواق. فإذا هبط الظلام أوقد مصباحاً منها، وسارَ إلى بيته يحمل المصباحَ المشتعلَ بيد، وما بقي من مصابيحَ باليد الأخرى. أَوقَفَه ذات مساءٍ شابٌّ من شباب الحي، وقال

له: سبحان الله، أعمى يمشي في الظلام ويحمل مصباحاً. قال له الأعمى: أيها البارد الثقيل، إنما أحمل المصباح لكي يرانيَ الحمقى من أمثالِك، فلا يصطدمون بي فتتكسَّرَ مصابيحي.

الجريدة

كان الأبُ يقرأ جريدته، وابنُه الصغير يقاطعه بالأسئلة، فضجر الأب. وقطع صفحةً من الجريدة عليها خريطةُ العالم، ومزَّقها إلى قطع صغيرة. وقال لابنه: أعِدْ ترتيبَ القطع. بعد ربع ساعة عاد الصبي، وقد أعاد ترتيب خريطةِ العالم، فذهل الأب، وسأل ابنَه: كيف فعلتَ هذا، وبهذه السرعة؟ قال الابن: على الوجه الآخرِ توجدُ صورة إنسان، وعندما أعدت بناءَ الإنسان أعدْتُ بناءَ العالم.

يا للمصادفة!

كان الجرجرائي وكيلاً عند القائد عجيف يتولى له أمرَ حقولٍ ومَرزاع. فشك فيه عجيف، وأمر به فأحضر مقيّداً. قال له القائد: أنت سرقت وأنت اختزنت المال، والجرجرائي يحلف، وغضبُ القائد يزداد. ثم قال للحرس عليّ بالسيف والنطع، فليس للخائن إلا القتل. فمن هول الموقف بال الجرجرائي في ملابسه. ثم إن نائب القائد قال له: ألا يرجئه سيدي أياماً نحقق فيها فيما سرق من أموال ونسترجعها، ثم بعد ذلك ترى رأيك فيه؟ فأومأ عجيفٌ القائدُ بالموافقة. فأخذ الجند الجرجرائيَّ إلى الحبس. ومضت ثلاثة أيام. عاد فيها الخليفةُ من غزوة، واتفق أن غضب على عجيفٍ القائد لتقصيره فاستدعاه ثم أمر به فقتل، وأُطلق الجرجرائي من الحبس. يقول الجرجرائي: اشتغلت بالتجارة أشهراً واعتدلت أحوالي. وذات سنة كان لي عمل في الموصل. وصلت إلى كُرّاثا قرب الموْصل ونزلت عند كبير القوم فأكرمني، وأفرد لي مكاناً من البيت. وفي الليل أردت قضاء حاجتي. فخرجت ألتمس بيت الخلاء خارج البيت، فما وجدته. فابتعدت قليلاً، وعلى كوم تراب قضيت حاجتي. ورجعت، فإذا صاحب البيت في الشرفة لم ينم بعد. فصعدت إليه، وسهرنا

ساعة. قال لي: أترى كومة التراب تلك التي كنت تبول عليها؟ قلت: ما شأنها؟ قال: هناك قتل الخليفة قائده عجيف، وتركت جثته بغير دفن فصارت الكلاب تنهشها فأحضرنا تراباً وحجارةً وسترنا الجثة حتى لا تأكلها الكلاب، فكانت تلك التلةُ الصغيرة. يقول الجرجرائي : قبل عامين بلت في ثيابي خوفاً من عجيف، والآن بلت على قبره.

التنوخي والصولي

كان الفتى التنوخيُّ صبياً في الكتّاب، وكان هناك رجلٌ يأتي إلى الكتاب ويجلس طويلاً ويتحدث مع الصبي. هذا الرجل اسمه الصّوليّ. ذات يوم قال الصولي للصبي التنوخيّ: عندما تكبر ستصير قاضياً جليلاً مثل أبيك، فماذا ستعطيني إذا صرت قاضياً؟ قال الصبي فوراً: سأعطيك خمسَمئة دينار. فضحك شيخ الكتاب. ولكنّ الصوليّ لم يضحك وقال للصبي: اكتب لي تعهداً بذلك. فكتب له الصبي على ورقة: «أعدك بخمسمئة دينار إذا صرت قاضياً». ووضع الصولي الورقة في جيبه. ثم غاب عن البلد غيبةً طويلة. ومرت السنوات وصار التنوخي قاضياً. وجاءه الصولي يوماً ودخل عليه. فلم يعرفه القاضي. فأخرج الصولي الورقة. فعندما قرأ التنوخي الورقة بخطه تذكر. وقال القاضي التنوخي للصولي: نعطيك الآن ما تيّسر، ولك علينا ما تأخر. وأعطاه ما تيسر من مال. ثم أوصى به عند أهل الحكم والإمارة. فترقّت أحوال الصولي. وصار يعمل عند الكبراء. وظل يتردد على مجلس القاضي التنوخي الذي ظل يدفع له المال حتى بلغ الخمسَمئةِ دينارٍ الموعودة. ثم عُزل القاضي التنوخي، فساءت حاله. وقعد في بيته كاسف البال. وصار يسمع من الناس أن الصوليّ يشتمه في المجالس ويطعن عليه. ثم بدأ الصوليّ يسعى بالتنوخي عند الأمير حتى يزيد في نكبته وحتى يصادرَ أمواله، والقاضي صابرٌ على كل ذلك. وبعد حين أعيد القاضي المعزول إلى منصبه، وأُعطيَ مالاً جليلاً، وأعيد إليه ما كان صودر من أمواله. عندئذ رجع إليه الصولي زائراً، وأخذ يطلب منه المغفرة. قال له القاضي: بلغني كلُّ ما صنعتَه وأنا معزول، ولا أرضى عنك

أبداً. فبكى الصولي وانتحب. قال له القاضي: لماذا كنت تشتمني وأنا معزول؟ وبعد تلكؤ أجاب الصولي: عندما كنتَ قاضياً في المرة الأولى هل تذكرُ تلك القلنسُوةَ التي كانت على رأسك وطلبتُها منك؟ ولم تعطني القلنسوة وردتني خائباً، ثم بعد يومين رأيتك قد أعطيتها لرجل آخر. فقال القاضي للصولي: قديماً وفينا بشرطك. وحديثاً أسأت، فلا نرد على إساءتك بمثلها.

الزلة الفرويدية

كان الهبيري من المتصرّفين، أي من كبار موظفي الدولة، ثم صُرف عن العمل وتعطلت حاله. أخذ يقف بباب الوزير يطلب عملاً يعيش منه. كان يأتي كلّ يوم إلى باب الوزير ويمكث ساعة. فعندما يأتي الوزير إلى ديوانه يراه ولا يعبأ به. قال الوزير يوماً لكاتبه: هذا الهبيريّ أزعجنا، اصرفه عنا، وقل له إنه لن ينال رزقاً على يديّ أبداً، والله إني لأتأذى من رؤيته كل صباح. فنقل الكاتب للهبيري ذلك، فقال له الهبيري: كما أبلغتني، أبلغ الوزير، قل له: إن للرزق أبواباً، وبابُ رزقي أنت. فإن قسم الله لي شيئاً فسآخذه رغماً عنك. وإلا فسأوذيك برؤيتي كما تؤذيني بتعطيلك إياي. وصار الهبيري يقف بباب الوزير مرة في الصباح عند قدومه إلى دار الحكم، ومرة عند العصر عندما يغادرها. وأخذ الوزير يفكر في تدبير يخلصه من هذه اللزقة المزعجة. ذات يوم ركب الوزير قاصداً قصر الخليفة، فرأى على بابه وهو منطلق الهبيري، فأشاح عنه بوجهه، ثم مضى. استشاره الخليفة في بعض الأمور ثم سأله: أعندك رجل نولّيه الموصل؟ ففكر الوزير ثم فتح فمه، وقال: الهبيريّ. فقال الخليفة: هذا الرجل الذي صرفناه من الخدمة؟ إنها والله بادرة طيبة، أن نقلده عملاً. فصاح الوزير مستدركاً: يا أمير المؤمنين! يا مولاي! أنا قصدت الزبيري. كان الوزير قد أراد أن يقول الزبيري، ولكن الله أنطق لسانه باسم الهبيري لكثرة ما انشغل فكره به. فقال له الخليفة: بل نولي الهبيريَّ إن شاء الله، فقد صرفناه عن الخدمة لغيرِ ما خيانة أو تقصير، وهذا أوان إعادته إلى الطاعة والخدمة. فسعى الوزير أن يثنيَ الخليفة عن رأيه فلم يفلح. قال له الخليفة:

ويحك، يبدو أنه جرى بينك وبين الهبيري شيء! فقص عليه الوزير مضايقة الهبيري له، وكيف أنه يقف له بالباب، ويصرّ على أن يكون رزقه على يدي الوزير. وتلطف الوزير بالخليفة أن يولي الزبيري لا الهبيري. فضحك الخليفة ثم قال: قد والله صدق الهبيري. رزقه على يديك رغم أنفك: وقد أمرت له بثلاثين ألفَ درهم. خذها وأعطها للهبيري حالاً، وبشره أنت نفسُك بتوليه الموصل.

جورج وميشيل

كان جورج وميشيل يتنزهان، وضلَّا طريقَهما، فجاعا وعطِشا. ثم وصلا قرية، ورأيا مسجداً، فأسرعا إليه. وجَدا الإمامَ خارجاً من باب المسجدِ بعد صلاة الظهر. فقالا له: السلام عليك. فرد التحية. سأل الإمامُ جورجْ: ما اسمُك يا بنيّ؟ قال: اسمي جورج. فقال الإمام: لا بد أنك جائع وعطشان يا ولدي، وطلب من بعضهم إحضارَ شطيرة وعلبةِ عصير، وسأل الثاني: ما اسمُك؟ فأراد ميشيل أن يتقرب من سيدنا الشيخ، فقال: اسمي عبدُ العال. فقال له الإمام: إذن، فأنت تكملُ صومَك معنا اليومَ يا ولدي، رمضان كريم.

الضابط والراهب

كان سعادة الجلاد مديرَ البوليس في القدس في زمن الانتداب البريطاني. كان يجلس مع صحبه في منتدى، فذكر بعضهم قصة راهب جاء من أرمينيا إلى دير الأرمن في القدس شاباً، وانتابته كآبة، فمكث عشرين سنة لم يخرج من الدير قط. دهش مدير البوليس، فهو يعرف الصغيرة والكبيرة في القدس، ولم يكن سمع عن هذا الراهب. قال لصحبه: سأخرجه من الدير. في اليوم التالي بعث سعادة الجلاد ببلاغ رسمي مختوم إلى دير الأرمن: يجب على حضرة الراهب فلانِ الفلاني أن يلتزم بالدير، ويمتنع بتاتاً من الخروج. بعد ساعات شوهد الراهب يمشي في أزقة القدس.

الناووس

كان عبد الله شاعراً، وكان فقيراً، لا يَطرب الأمراء لشعره ولا يكافئونه عليه. قصد يوماً أميراً في حران وأخذ معه قصيدة ودرعاً قديمة كانت لأبيه، وأهداها إلى الأمير بعد أن أنشده القصيدة، فكان سرور الأمير بالدرع أعظمَ من سروره بالقصيدة الضعيفة، فأعطى الشاعر ألف درهم. وفي الخان جهز الشاعر نفسه للرحيل. وكان معه في الخان رجلٌ عريض المنكبين مفتول الذراعين. فحدث الشاعر الرجل بما جرى له مع الأمير. وقال له سأرحل غداً وأعودُ إلى بلدي. وفي الغد خرج الشاعر من حرّان ومضى في الجبال، وإذا برجل يناديه من خلفه فالتفت فرأى الرجل القويّ يركب دابةً ويعدو بها مقترباً منه. فسلّم عليه ووقف الرجلان فوق دابتيهما يتحدثان. خاف الشاعر ورأى في عيني الرجلَ القوي الطمع، ورآه يقبضُ بيدِه على قائم سيفه. فحث دابته ومضى يسرع، والرجل يسرع خلفه. فالتفت الشاعر فإذا الرجل الآخرُ قد شهر سيفه. نزل الشاعر عن دابته وصار يعدو بين الصخور. فترجل الآخر أيضاً وصار يعدو خلفه ويقول له: قف، فأنا أمزح معك. ولكنّ الشاعر أدرك أن هذا شيء يختلف عن المزاح. وبينما هو جاد في الهرب، والآخرُ جاد في ملاحقته، رأى الشاعر ناووساً رومانياً أي مقبرةً ـ والناووس كهفُ منقور في الصخر له باب من الحجر ثقيل يتحرك على مفصلات منقورة في الصخر ـ، دفع الشاعر الباب الحجري ودخل الناووس واختبأ في ركن مظلم فيه، وتعودت عيناه على الظلمة فرأى عظام من دفنوا هناك في العصور الخوالي. وبعد قليل جاء الرجل القوي وبيده السيف ودخل الناووس، يبحث عن الشاعر. فانسل الشاعر خارجاً ودفع الباب الحجري، وأحكم إغلاقه من الخارج بالحلقة الحجرية، فصار الشرير يصرخ من الداخل ويستغيث ويقول قتلتني والله. وانصرف الشاعر إلى بلده ومعه الألفُ درهم. وبعد سنين طويلة كانت للشاعر رحلةٌ إلى حرّان فمّر في موضع الناووس، ففتح الباب فرأى ذلك الرجل القوي المتجبر جثة جافة. ورأى بجانبه سيفَه، فهز رأسه وأراد الخروج. ثم قَبل أن يخرج لكز برجلِه جثةَ

خصمه القتيل فسمع خشخشة. فإذا في حزام الرجل كيسٌ فيه خمسُمئة درهم فأخذها الشاعر وقال إنه تصدّق ببعضها.

السعادة المعجلة

كان هناك رجلان يصطادان السمك. اصطاد أحدُهما سمكة، وأراد الانصرافَ بها إلى بيته. فقال له صاحبُه: انتظرْ حتى تصطاد أسماكاً غيرها. قال له: لماذا؟ قال: حتى تبيعَها وتكسَبَ الكثير. قال له: لماذا؟ قال: حتى تجمعَ مالاً، وتدَّخرَه. قال له: لماذا؟ قال: حتى يكونَ لك في شيخوختِك مالٌ، تَسعَدُ به أنت وعيالُك. فقال له: هذا بالضبط ما سأفعلُه الآن، سأذهبُ بالسمكة إلى عيالي، ونأكلُ، ونكونُ سعداء الآنْ، قبل أن تأتيَ الشيخوخة.

الدلو الخجول

كانت العجوز تنقل الماء من البئر في دلويْن تحملهما بِعَصاً على الكتفين. وأحد الدلوينِ مشقوق، والآخر سليم. يصل الماء إلى البيت كاملاً في الدلو السليم، وناقصاً في الدلو المشقوق. ذات يوم اعتذر الدلو المشقوق للعجوز لأنه يفقد نصف مائه. فقالت له العجوز: ألا تَرى الأزهار الجميلة على الجانب الأيمن من الطريق؟ هذه الأزهار نبتت بفضل مائك الذي يتسرب على طول الطريق.

لعبة الفضائل والرذائل

كانت الفضائل والرذائل تلعب لعبة الاستخْفاء، الغمَّيْضة، وكان الَدور على (الجنون) كي يغمضَ عينيه. وبعد أن عدَّ للعشرين، فتح عينيه وأخذ يبحث: وجد (الحنان) فوق شجرة، ووجد (الحقد) في حاوية القمامة، ووجد (الشجاعة) واقفة أمامه لم تختبئْ، ووجد (الحسد) قد خبأ رأسه في الرمل، ولم يجدِ (الحُب). وبحث (الجنون) طويلاً، ثم حمل رمحاً وأخذ يغرسه في شجيرات الورد. فصاح (الحب) صيحتين، وخرج مفقوء العينين. قال الحب للجنون: قد

جعلتني أعمى برمحك، وعليك منذ اليوم أن تصبح دليلي. وهكذا ظل الحب الأعمى مصحوباً بالجنون.

انتقامٌ فقِصاص

كان جعفرُ بنُ علبةَ الحارثي يحادث نساءً من بني عقيل، فأمسك به رجال العشيرة وأوثقوه بالحبال، فقال لهم: إن أطلقتموني حلفت لكم بأغلظ الأيمان أن أَكُفَّ، وألَّا أذكركم إلا بكل خير. وإن شئتم فاقتلوني، لكن إياكم وإذلالي. لكنهم ضربوه بالسياط ومرغوه في التراب، وعرَّوْه، وأطلقوا صبيانهم عليه، وطافوا به في حيهم على هذه الحال. ثم إنهم بعد ذلك أطلقوه. فانتظر جعفرٌ أياماً، ثم نصب كميناً، وقتل منهم رجلاً. فحبسه الوالي، وصَبَره للقِصاص. ولم يسعَ أبوه عُلْبَةُ في خلاصه بدفع الدية أو مخاطبة كبار القوم. زارته في سجنه زوجته فقال:

أَلَمَّتْ فحيَّت ثم قامتْ فودعتْ ... فلمَّا تولَّتْ كادتِ النفسُ تُزهَقُ
فلا تحسبي أني تَخشَّعتُ بعدَكُمْ ... لشيءٍ، ولا أني مِن الموتِ أَفرَقُ
ولكنْ عَرَتْني مِن هواكِ صَبابةٌ ... كما كنتُ ألقى منكِ إذ أنا مُطْلَقُ

فلما أُخرج جعفر ليقتل قال له غلام من قومه: أسقيك شربةً من ماء بارد؟ فقال: لست بمهياف لا يصبر على العطش. وانقطع شسع نعله فوقف وأصلحه، فقال له رجل: أوَما يشغلك ما أنت فيه عن نعلك؟ فقال:

أَشُدُّ قَبالَ نَعلي لا يراني ... عدوِّي للحوادثِ مُسْتكينا

وقتل جعفرٌ قوداً. فقال أبوه علبة مخاطباً أمه:

لعَمرُكِ إنَّ الليلَ يا أمَّ جعفرٍ ... عليَّ، وإن علَّلْتِني، لَطويلُ

فأجابته زوجته أم جعفر:

أبا جعفرٍ أَسْلَمْتَ للقومِ جعفراً ... فَمُتْ كَمَداً أو عِشْ وأنتَ ذليلُ

الجوهرة والأمور الجوهرية

جلس القوم يتذاكرون في أي الأشياء يتركها المرء لأولاده من بعده، فقال أحدهم: الأرض. فقالوا: الأرض ليست بمأمن، يأتي أمير الناحية فيقتطعها لنفسه. وقال آخرُ العقار. فقيل له العَقار قد يتلف إذا تُرك، فإن أُجِّر تملكه المستأجر وأبى أن يبارحه. وقال آخر: يترك المرء لأولاده إخواناً أحسن إليهم. فقيل له: يموت المرء وينساه من أحسن إليهم، فكيف يذكرون أبناءه؟ وقال بعضهم الجواهر، فهي مما خف وزنه وسهل إخفاؤه وحفظ ثمنه. وكان بين الجالسين ابنُ الجصاص أكبر تاجرِ جواهرَ في بغداد. فتنحنح وقال: طرقتْ بابي امرأة في ثياب رثة، فأدخلوها عليَّ وهي باكية فزعة. فهدَّأت من رَوْعها. قالت: كان لأبي جوهرةٌ نفيسة وعقار. فمات وتصرفنا بالعقار، وعشنا زمناً ثم افتقرنا. فأخذتُ الجوهرة إلى السوق، وكنت أعلم أنها تساوي خمسةَ آلاف دينار. فقلَّبها الجوهري وقال لي: أعطيك بها ألفين، فقبلت. وعندما قبلت بهذه السرعة حَدَجَني بنظرة، وقال: أنت لِصَّةٌ قد سَرَقَت الجوهرة من مولاتها. وجمع عليَّ أهل السوق، وما تخلصت منهم إلا بشق النفس، وحبس التاجر الجوهرة عنده. وأتيتك لأن أبي كان يذكرك. قال لها ابن الجصاص: ومن أبوك؟ قالت فلان. فعرفه. وسألها عن الجوهري فقالت له فلان، في سوق الذهب فعرفه. ودعا ابن الجصاص خادماً وقال له: ايتني بفلان. وإن هي إلا سويعة حتى حضر الجوهري. قال له ابن الجصاص: هذه امرأة من بيتنا وقد بعثتها لتبيع الجوهر كراهة أن يقال إن ابن الجصاص يبيع جوهراً في السوق لضيق ذات يده. فهيا أحضر الجوهرة في الحال. فامتثل الرجل، فابن الجصاص سيد الجوهريين في بغداد وهو نديم الوزراء والخلفاء. قال ابن الجصاص للمرأة: حقاً الجوهرة بخمسة آلاف، وقد اشتراها أبوك مني. ثم إنه اشترى الجوهرة وأوصل إليها المال تاماً، واطمئن على حالها وحال أسرتها.

قال ابن الجصاص لأهل المجلس: الجوهر يبقى على الزمن كما قصصت عليكم، وكما سمعتم فلا غنى للمرء عن إخوان يورِّث أبناءه معرفتهم، فينتفعون بهم بعد موته.

رؤيا صادقة

كان عبد الله الكرخيّ عطاراً ببغداد. كان مقتصداً يضع الدرهم موضعه. وكان ذا عيشٍ متوسط. وظل يحفظ أمر أهله ويعيلُهم من تجارته، ثم مات أخوه، فكفلَ أولادَه وضمهم إليه. وصار يوَسع عليهم حتى لا يشعروا بأن حالَهم اضطربت لموت والدهم. ولكن، صار أمر عبد الله يختلّ وينقص، وهو يكابر، حتى مرّ به يوم لم يكسب فيه درهماً. وعاد إلى بيته فتعشى مع أولاده وأولاد أخيه ولاعبهم. ثم قالت له زوجته: يا عبد الله، قد نفدت مؤونتنا. فورد على عبد الله العطار هم ثقيل. وليس معه من المال شيء. عرف أن حاله وقفت. في الصباح ذهب إلى دكانه وفتحه مستبشراً أن يسوق الله إليه الزبائن. وظل في دكانه إلى الظهر لم يرزق درهماً. فاغتم غماً شديداً، ودعا ربه قال: يا عالماً بحالي عليك اتكالي. وقعد على كرسيّه قدام دكانه فأخذته عينُه وأغفى، فسمع هاتفاً يقول له: يا عبد الله. فصحا من نومه فزعاً، ونظر في الدكان لعل الله أن يكون ساق إليه زبوناً فلم يجد أحداً. فأغفى مرة أخرى. فتمثل له النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا عبد الله. دعوت ربّك وأجابك، قد أمرت لك بأربعمئة دينار. أقبضها من الأمير أبي المعلّى. وفتح العطار عينيه، ووجم. ومضى إلى باب الأمير. فوقف طويلاً لا يؤذن له. فلما بدأ مجلس الأمير ينفضُّ بعد صلاة العصر. أخذ العطار طريقه يريد الانصراف. فإذا حاجب الأمير ينادي: أيكم عطّار؟ فجاءه عبد الله وقال له: أنا عطار. قال له الحاجب: ادخل على الأمير. دخل العطار، فقال له الأمير: ما الذي جاء بك إلى بابي. قال العطار: رأيت رسول الله في نومي وأمرني أن آتيَك. فبكى الأمير وقال: وأمرك أن تقبضَ أربعمئة دينار، فقال العطار: نعم أمرني. قال الأمير: جاءني ذلك في منامي. وعرفا من اتفاق المنام أنها رحمةٌ من الله.

وأمر الأمير بألف دينار. وقال للعطار: خذها وأَصلح حالك. فقال العطار: لا أتجاوز ما أمر لي به رسول الله. وأخذ أربعمئة دينار فقط. وخرج وأصلح تجارته، فكانت بركة هذه الدنانير كبيرة واعتدلت حاله وصار ينفق عن سعة طول عمره، ببركة أولئك اليتامى.

الذئب ذئب

قال الأصمعي: رأيت عجوزاً وقد أقعى بجانبها جرو. وإلى جانبه شاة ميتة وقد بُقر بطنها وسال دمها. قلت للعجوز: ما هذا؟ قالت: هذا جروُ ذئب، أخذناه رضيعاً وربيناه، ورضع من لبن هذه الشاة. فلما كبر قليلاً قتل شاتنا كما ترى. وقد قلت في ذلك شعراً:

بَقَرْتَ شُوَيْهَتي وفَجَعْتَ قلبي　　وأنتَ لِشاتِنا وَلَدٌ رَبيبُ
غَذيتَ بِدَرِّها ورَبيتَ فينا　　فمن أنْباكَ أنَّ أباك ذِيبُ
إذا كان الطباعُ طِباعَ سَوْءٍ　　فلا أَدَبٌ يُفيدُ ولا أديبُ

سرير النافذة

أدخل المريضُ إلى المستشفى وهو يعاني من كسور في ساقيه وأضلاعه، تمنعه من الحركة. وكان في العنبر نفسه عند النافذة سريرٌ آخرُ، فيه مريضٌ آخر. أخذ مريض النافذة، يصف لزميله ذي الكسور المشهد، يصفُ ما يجري في حديقة المستشفى من أحداث، ومن احتفالاتٍ بهيجة بين الأزهار والرياحين. وذات صباح تُوفي مريض النافذة. فطلب الآخر الانتقال إلى سرير النافذة ليرى بنفسه. وفوجئ بأن النافذة لا تطل على الحديقة، بل إن أمامها جدار. قال للممرضة: كان زميلي المرحوم يقصُّ عليَّ ما يجري في الحديقة، فقالت له الممرضة: مستحيل! المرحوم كان أعمى.

الرضا بالمقسوم

زوَّج الفقير ابنتيْه في يوم واحد لتوفيرِ نفقات العُرس. زوَّجَ بنتاً لفلاحٍ، وأخرى لصانعٍ فَخَّار. وبعد شهر ذهب يزورُهما. قالت له البنتُ الأولى: نبذُر الحَبَّ وننتظرَ المطر، فإن لم تمطرِ السماء حلَّتْ بنا مصيبة. ثم زار الثانية: فقالت له: زوجي يضَع الفَخَّار الطريَّ ويضعه في الشمس، فإن أمطرت السماء حلَّتْ بنا مصيبة. وعندما رجع الفقير إلى بيته، سألته زوجتُه عن أحوال البنتين. فقال لها: إن مَطَرَت السماء فالحمد لله، وإن لم تَمْطُرْ فالحمد لله.


شيء في صدري

شيء عن الملوخية

في بلاد الشام تتغلغل المِقوَرةُ داخل كوزِ الكوسا، وبكثير من وجع المفاصل يصبح في جوف الكوساية نفقٌ غير نافذ. في تونس يقصون الكوساية والباذنجانة من الوسط ويحفرون بالسكين، ويحشون باللحم المفروم والخبز المفتوت والبيض والبصل والتوابل، وبعصيدة الطماطم يطبخون الكوسا والباذنجان والطماطم والبطاطا في قدر أو يشوونها في الفرن. وأطرف ما في هذا الطبق التونسي اسمُه. اسمه ليس المحاشي، بل (فندقُ الغلة). يستسهلون في الطبخ، ويتأنقون في الاسم.

الملوخيةُ في الشام تُطبخ ورقاً كما خلقها الله، في ثماني دقائق تنتهي الطبخة. وفي مصر تفرم فرماً مثلما رأينا في الأفلام، ثم تُسقِطها سيدة البيت في المرق، وبمقدار الشهقة أي في نحوِ ثماني ثوانٍ فقط، ومع أول غلوة يرفع القدر عن النار، لا نريد للملوخية أن تسود. في تونس نطحن أوراق الملوخية المجففة طحناً، ونتأنق فنُزيلُ العِرق الذي في وسَطِ الورقة لنتجنب طعم المرارة. نطحنها طحناً ذريعاً حتى لتستحيل إلى غبار. إذا كانت مطحونةً بهذا الشكل فلا بد أن طبخها سيستغرقُ أقلَّ من الثماني ثوان. وهنا المفاجأة. في تونس تُطبخ الملوخية في ثماني ساعات. ولأنني لا أصدق الخرافات دخلت إلى موقع تونسي، والعنوان (طريقة سريعة لتطييب الملوخية). وبعد أن تجرعت

الدعايات البغيضة إذا سيدة تقول بلهجة مقنعة: لا داعي للوقت الطويل والتعقيدات، هذه طريقة طبخ الملوخية في خمس سوايع.

تنظيف الصهريج

كنت أعمل في مصنع في ألمانيا. وفي لحظة فراغ التقطتني العين الثاقبة للمشرف على العمال، فقال تعال. وقال لعامل تركي كان يقف على مَبْعدة تعال. فتعالينا، وسرنا خلفه. فأعطى كل واحد منا فِرْجَوْناً وقال عليكما بهذا الصهريج، اجلُواه. لا، ليس من الخارج بل من الداخل. دخلت وصاحبي في الصهريج الفولاذي الضخم، وأُضيء لنا مصباح وأخذنا نجلُوه. والفرجونُ بأسلاكه الفولاذية يأكل ما علق بباطن الصهريج من قاذورات تيبَّست. أنا أحك بفرجوني، والتركي يحك بفرجونه. وأراه ينظر في وجهي فأقول: نعم؟ فيمضي ويحك. ثم نتواجه فأراه ينظر في محيَّاي، فأقول: ما الأمر؟ فينصرف عني ويحك. ثم سئم التركي مني، فترك فرجونه وأشار بذراعيه إشارة متعاكسة كعلامة الضرب. وقال لي: أنا أنظر هكذا. كان أحول.

ليلة الشكّ

هذه قصة جدي وكان خياطاً. حل رمضان وزاد العمل. وتآكل الشهر الفضيل والعمل كثير. وكان له في المدينة منافس لم يُرزَق عملاً كثيراً في هذا الموسم، فأنهى أعماله مع أواخر رمضان. ذهب هذا المنافس إلى القاضي في ليلة الشك، الليلة التي يراقبون فيها الهلال، وشَهد أنه رأى هلال العيد. يقول جدي إنها كانت ليلة ليلاء فقد عملوا حتى الصباح لإنجاز ما تراكم.

وهذا خياط آخر قبل مئات السنين ذهب إلى القاضي وشهد أنه رأى هلالَ الفِطر، وكان القاضي حصيفاً فعرف أن الشهادة زور، فردَّ الشهادة وقال صوموا، فهجاه الخياط:

أتُرى القاضيَ أعمى أم تُراه يتعامى
سرق العيدَ كأن العيدَ أموالُ اليتامى

الانتقام بالبصل

يتمشى الرجل المسنُّ بين أرفُف الأغذية في السوبرماركت، ثم ينتقي من قسم الخَضراوات بصلة. ويمضي بتؤدة إلى عاملة الصندوق، يقف في الطابور ويقدم بصلته. قرب صندوق النقود ميزان، تزن العاملة البصلة. ويُخرج المسن ديناراً، فتضطر الموظفة إلى إفراغ ما عندها من العملة الورقية والمعدنية لترد له الباقي. وبعد يوم أو يومين يأتي المسن مرة أخرى ويشتري بصلة وتعطيه عاملة الصندوق الباقي وتحدِجُه بنظرة غاضبة. والواقفون وراءه في الطابور يغضبون، لكن المسن هادئ وتعلو محياه ابتسامة. بعد عشر بصلات أو نحو ذلك تصدى له صاحب المتجر وهو يهم بالخروج. ودعاه إلى كوب شاي في مكتبه. قانونياً، لا يستطيع منعه من شراء بصلة في كل مرة. تودد إليه صاحب المتجر، ثم سأله: هل هناك سبب لما تصنع؟ قال المسن: هل لاحظتم أنني أقف في طابور عاملة بعينها؟ هذه السيدة عنَّفتْني يوماً لأنني تلكأت وأنا أخرج المال من جيبي، أردت ألا أعطيها ورقة نقدية كبيرة، فقالت كلاماً رديئاً عن ارتعاش يديَّ، وسمعتُ من خلفي في الطابور ضحِكاتِ الناس. وأنا رجل متقاعد وعندي وقت كثير، وأحببت أن أراها تفكُّ لي نقودي. والآن سأعود إلى شراء حاجياتي كلِّها من عندكم.

الاختصار في مرتين، ومرة

عندما تقول لي جملة طويلة فأنا أسمعك للآخر، لكنني في الوقت نفسه أعيد تركيب الجملة في عقلي. هذه الهواية مارستها على حسني مبارك مرتين، وعلى صائب عريقات مرة. حسني مبارك **أولاً**: أجريت معه لقاء في السفارة

المصرية في لندن. (أظنني ذكرت قصة ذلك اللقاء في بعض ما كتبت أو أذعت، فإن كنت سمعتَه مني أو قرأته، فهذه فرصتك كي تقارن، وكي تكتشف أنني لا أزيد في القصة ولا أَنقُص منها). أجلسوه في كرسي ظننته أكبرَ كرسي في لندن بعد عرش الملكة الذي تقعد عليه وهي تقرأ خطاب العرش. وجلس حوله من الحاشية مجلسُ وزراءَ كاملٌ، أو هكذا حسِبت: جلسوا صفين متقابلين. اقتعدت كرسياً بجانبه، وبحسب ما علمونا في البي بي سي فإنني وضعت مرفقي على ذراع كرسيه، إذ ليس سهلاً أن أحمل الميكروفون طول مدة المقابلة وذراعي معلقةٌ في الهواء. وبدأت أسأل، وبدأ يجيب. ودسست له سؤالاً في وسط المقابلة عن فضيحة لوسي أرتين التي أطاحت بالمشير أبو غزالة، فوثب وزير الإعلام صفوت الشريف عن مَقعده، وطلب مني التوقف، قلت: لسيادة الرئيس أن يجيب كيفما أراد، فأشار إليه مبارك إليه أن اقعد فقعد، وأجابني مبارك. إجابةً دبلوماسية قطعاً، وكان سعيداً بالفضيحة التي أطاحت برجل كان يراه بعضهم منافساً للرئيس. كانت المقابلة طيبةً. وأسرعت إلى مبنى الإذاعة ونسخت اللقاء على شريط الربع إنش، وركَّبته على آلة الريڤوكس كي أحرره. وبدأت أقص قطعة من هنا وقطعة من هناك بالمِشرط - هكذا كنا نحرر الأشرطة في ذلك الزمن اللاحاسوبي ـ. وجاءني من بعيد زميلي نجا فرج رحمه الله وقد امتدت منه اليدان وهي يصرخ: ماذا تفعل؟ قلت: أفعل ما يجب أن يفعل، أحرر اللقاء. ربعُ ساعة يجب أن تؤول إلى خمس دقائق لكي تبث في برنامج عالم الظهيرةِ الإخباري. وحررت اللقاء. وللأمانة فقد كان الرئيس مبارك مباشراً في كلامه، ولم يكن ثرثاراً. **المرة الثانية:** مع مبارك أيضاً، وكنتُ في هذه المرة مسؤولاً لا مذيعاً. جاءنا من مراسلنا بمصر لقاءٌ مع مبارك، وكان طويلاً فقلت للزميلة: انتقي منه أفضل خمسِ دقائق، قالت لي: هذا مبارك! رئيسُ دولة. قلت لها: الكلام رابش. قلت هذه الكلمة بالضبط. وللتو وصل تعليقي إلى أعلى المستويات في القاهرة: المسؤول الفلاني في البي بي سي قال عن كلام مبارك رابش. وجاءنا احتجاج السفارة المصرية، وضحكْنا على الأمر كثيراً. (بالمناسبة ذلك الحدث كان

واحداً من الأسافين الكثيرة التي يبرع الناس في تنجيرها لزملائهم. عملت في البي بي سي إحدى عشرة سنة، وكَنَست أسافين كثيرة).

وصلتُ إلى **المرة الثالثة**، وهذه مع صائب عريقات. كان عريقات عضواً في الوفد الفلسطيني المفاوض في واشنطن، ولم يكن مسموحاً لمنظمة التحرير بأن تكون ضمن «عملية السلام». لذا انتدبت المنظمة شخصياتٍ فلسطينيةً من الضفة وغزة ليكونوا وفداً ملحقاً بالوفد الأردني. في ساعة صباحية باكرة كنا نعد جملة تقارير لتغطية الحدث. قال لي جورج مصري رحمه الله - عندما يتحدث المسن عن الماضي فهو كثير الترحم ، هذا شيء مرت عليه ثلاثون سنة ـ، قال لي جورج وكان مذيعَ البرنامج الصباحي: أين نضع مقابلة صائب عريقات فهي طويلة؟ قلت له: نضعها في البداية. قال لي: المقابلة طويلة وستقتل التغطية. قلت له: بل قصيرة جداً، وذهبت إلى الحجرة المجاورة وأتيته بشريط المقابلة، وفككت له الشريط وأريته طوله، تقريباً شبراً أو شبرين، وبالتحديد طوله ستُّ ثوان فقط. فصعق جورج. قلت له: في هذه الثواني الست عبارة واحدة. والعبارة هي بالحرف: (هذا الوفد هو وفد منظمة التحرير الفلسطينية). من مقابلة مطولة استخرجت هذه العبارة. وهي كل شيء. هي إقرار يخالف ما اتُّفق عليه من استبعاد المنظمة. هذه الجملة كانت مطمورة في سيل من الكلام تعود الدكتور صائب على أن يقذف الإعلام به. طال حديثي عن الاختصار، وما أحوجني إلى من يختصرني.

صاحب المفاتيح

تعلمت كلمة صعبة باللغة التركية مؤخراً هي (أناهْتارجي) ومعناها صاحب المفاتيح. وهذا شخص متخصص في فتح الأبواب، ومعالجة السكاكر المستغلِقة. والسكاكر جمع سكرة، هي ليست سكَّرة حلوة بل هي القفل. ولماذا نسمي القفل سكرة؟ العربية قديماً سمت السد سِكراً، وقولنا اليوم «سكَّر الباب» من الفصيح. أحدثك بقصتي: خرجت من البيت وأغلقته،

ووضعت المفتاح في جيبي. وعندما عدت حاولت فتحه، حاولت بكل ما أوتيت من قوةٍ وحيلة فما انفتح. وعرض على بعض الأصحاب أن يجربوا فأبيت، وأخذت أبحث عن أناهتارجي، عن فتَّاح أبواب. ولكن صديقاً لي نزع المفتاح من يدي نزعاً، وساقني سوقاً إلى بيتي. أدخل المفتاح في السكرة، وفتح الباب بكل يسر. انتهت القصة، والآن، العبرة: المستبدُّ برأيه لا يقتنع أن أحداً أبرع منه.

قصة فأرين

الفأر الأول وضعوه في صندوق زجاجي فارغ، وكانوا يدخلون إليه الطعام والماء من فتحة. الفأر الثاني وضعوه في صندوق مشابه لكن فيه سلالمَ وأراجيحَ وأنفاقاً وعوائقَ مربكة. ويوضع الطعام والماء في أماكنَ مختلفةٍ لا يصل الفأر إليها إلا بكثير من الحيلة. بعد شهر وضعوا الفأرين معاً في صندوق ثالث شديد التعقيد. فكان الفأر المتعود على الراحة عاجزاً، فكاد يموت من الجوع والعطش، وكان الفأر الذي تعود على العوائق قادراً على التكيف، والحصول على قوته. اليهود في أوروبا وأميركا اليوم ناس عاشوا قروناً من السعي المضني للبقاء، عبروا المجازر الكثيرة، واضطروا إلى التحبب إلى الطغاة، وإلى التعامل مع أصناف الحكومات، وإلى التنقل بين البلاد وتعلم شتى اللغات. انتقلت هذه التجارب الصعبة من جيل إلى جيل. قد ترى جماعة كبيرة من اليهود تعيش حياة مرفهة في نيويورك مثلاً، فلا معاناة ولا اضطرارَ للحيلة. ومع ذلك فقد استفادوا حنكةً من جيل آبائهم. رباهم الجيل السابق على السعي، وبذْل الجهد. نسبة المبدعين اليهود عالية، حقيقة لها سبب موضوعي.

أبو شنب

كان رجلاً عريض المنكبين ذا شاربين كثين، وكان وسيماً. كان يلقي دروساً في مدرسة البنات، لنقصٍ في معلمات تلك المادة. ولم يكن يجلس في غرفة

المدرِّسات، بل يدخل ويتناول خريطة أو كتاباً ثم يخرج. ذات يوم لاحظ وهو يبحث عن الخريطة المناسبة أن ثمةَ همَساتٍ وضَحِكات. وسارعت الكبيرة بين المعلمات وهتفت به: يا أستاذ محمود، هيا أقول لك علام نبتسم. فاقترب. قالت له وهي تضحك: «تصور! الطالبة نسرين، تعرفها؟ هي لا تسمع جيداً ولكنها مجتهدة. وقد قالت لي شيئاً مضحكاً». وضحكت المدرسات. مضت المعلمة تقول: «الطالبة تزعم أنها لا تفهم الدرس منك. ليس لقصور منك لا سمح الله. ولكن..»، وضحكت المدرسات. أشارت المعلمة إلى شفتها العليا. فضحك الأستاذ محمود مع الضاحكات. وفي اليوم التالي جاء إلى المدرسة، وقد حلق شاربيه.

قصة سعاد

سعاد ـ والاسم من عندي لأنني نسيت الاسم الحقيقي ـ فتاة تدرس في الكلية. وتعود كل يوم إلى البيت. ذات يوم أخبرت أمها أنها ستبيت عند صديقتها في منزل الطالبات. وكان ذلك. وعادت في اليوم التالي إلى البيت. دخل عليها أبوها بسكين، وبعلبة خضراء. قال لها: اختاري بين السكين وسم الفئران؟ واختارت سم الفئران. يرحمها الله. قال إيليا أبو ماضي: إن بعض الأنام كالأنعام.

بلا مصاري

جاء شيخ عشيرة إلى المدينة، ودخل مع سائقه إلى محل أقمشة، واختار ما طلبته منه نساء العشيرة من الأصواف والحرائر، أشكالاً ألواناً. وعند الحساب سأل التاجر عن الثمن، فقال: ألفُ دينار، قال له شيخ العشيرة: أهذا آخرُ سعر؟ لعل الشيخ استنكر أن يكون السعر مضبوطاً إلى هذا الحد على ألفٍ لا تزيد ولا تنقص. فأجابه التاجر بلهجة لا مبالية: بلا مصاري! فما كان من الشيخ إلا أن قال لسائقه: احمل. وأخذ السائق يحمل كومة كومة ويودعها السيارة. ثم إن الشيخ مد يده يصافح التاجر. كأنه يريد أن يلقنه درساً: قلت

بلا مصاري، حسناً فأنا آخذها بلا مصاري. التاجر مد يده وعلى محياه ابتسامةٌ عريضة وصافح الشيخ. انصرف الشيخ مع سائقه مرتبكاً. ولف لفة بالسيارة في المدينة وعاد إلى المتجر. فوجد التاجر مشغولاً مع الزبائن، فتفرغ التاجر له وحياه مبتسماً. قال الشيخ: نسينا قطعة، واختار قطعة قماش. وقال بكم هذه؟ قال التاجر: عشرون ديناراً. لقد توقع الشيخ أن يقول له التاجر هي بألف وعشرين، فيكونُ التصافي. فنقده الشيخ العشرين، فأخذها التاجر راضياً مبتسماً. وبدأ الشيخ يخرج المال الكثير ليسدد الألف. فأقسم عليه التاجر لا يأخذُ منها شيئاً. أمسكه الشيخ من ذراعه وقال له: ما قصتُك يا رجل؟ ألست كالتجار؟ قال له التاجر: بلى. لكنني كسبتُك أنت. حياه الشيخ وانصرف. وأصبح كل أفراد العشيرة ومن جاورهم ومن ناسبهم لا يشترون قماشاً إلا من ذلك التاجر، وانفتح له باب من الرزق واسع. ولم يكن يمر على التاجر عيد إلا تلقى ذبيحة من شيخ العشيرة.

البطن بستان

ذكرت لصديقي أبو عامر مرة المثل القائل (البطن بستان)، هذا المثل يطلقونه، مثلاً، عندما يرون ولداً أبيض وأخوه أسمر، أو بنتاً طويلة وأختها قصيرة. فضحك وحدثني عن والدته رحمها الله (ويا للمصادفة الحزينة، فإنني أحرر هذا الكلام في الثامن عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٢٢، في اليوم الذي توفيت فيه والدة صديقي): رأت المرحومة مرة أخوين مختلفين كل الاختلاف لكنهما دميمان. قال لها أبو عامر: البطن بستان. فقالت له: البطن مَزبلة.

إبراهيم أبو لغد يعود إلى يافا

رأيته يمشي في ممر بجامعة بيرزيت شيخاً قد انحنى قليلاً، كان يرتدي ملابس عامة الناس، ظننته مشرفاً على العمال، أو شيئاً كهذا. وقيل لي هذا إبراهيم أبو لُغُد، نائب رئيس الجامعة، والبروفسور المشهور في علم الاقتصاد والسياسة. هذا الذي قال عنه إدوارد سعيد إنه من أهم مفكري وأكاديميي

فلسطين. جاء من أميركا ليعمل في جامعة بيرزيت. وعندما اشتد عليه المرض قرر أن يبقى، ويموتَ في فلسطين. مات إبراهيم أبو لغد في رام الله عام ألفين وواحد. وكانت وصيته متعبة. قال ادفنوني في مسقط رأسي: في يافا. ويافا على البحر داخل إسرائيل. ودفْنه في يافا ممنوع. فلسطينيو الشتات ممنوعون من مسقط رأسهم أحياءً وأمواتاً، حتى لو كانوا يحملون الجنسية الأميركية. ابنته ليلى (وهي صاحبة دكتوراه في علم الإنسان من هارفرد) أجرت اتصالات محمومة، دخل فيها عضو كنيست عربي، ولا فائدة. ألبست ليلى جثمان والدِها بدلته، وحملته إلى سيارتها، وأمالت المقعد قليلاً. وعلى الحاجز قالت للجندي: الرجل مريض مخطر، وها هو جواز سفره، وأريد نقله إلى مستشفى المقاصد في القدس العربية. واجتازت به الحاجز. وإلى مستشفى المقاصد، حيث استخرجت لأبيها شهادة وفاة. ثم إلى يافا حيث صُلِّيَ عليه وشيعه الآلاف. تقول ابنته ليلى في مقال بعنوان (عودةُ أبي إلى فلسطين) ونشر في مجلة جيروزالم كوورترلي فايل، (احتشد الناس من كل مكان لتشييعه، حملوه ملفوفاً بالعلم الفلسطيني إلى منحَدَرٍ يشرف على البحر الذي طالما سبح فيه، ودفنوه في مدينته المحبوبة يافا، قرب قبريْ أبيه وأخيه).

خدود الستّ

من بعض ما أصنعه تدريب المذيعين. سألتني زميلة مرة عن مخارج حروفها. قلت لها تفضلي وتحدثي بالفصحى. فتحيرتْ.. ماذا تقول. فقلت في نفسي: أحسنُ شيء أن أسألها سؤالاً عن شيء في الحياة اليومية، حتى تنطلق بالكلام، فأشخِّصَ لها مخارج حروفها. قلت لها: ما شيء لا تلبَسينه أبداً؟ تخيلت أن تقول لي: المعطفُ الجلدي، أو البلوزةُ الصفراء. فرشقتني بنظرة خبيثة، واشتعلت عيناها بجنون الشقاوة، وابتسمت ابتسامة من الأذن إلى الأذن، ورمتني بكلمة واحدة. قالت: عيب! وتسكعتُ في بضع لعثمات، ثم عندما وجدت لساني غيرتُ الموضوع. قلت لها: طيب، فما شيء لا تأكلينه؟ أهذا عيب أيضاً؟ فانبسطت أساريرها، وبدأت تتكلم وتحرك يديها، وقد تحولت

ابتسامتُها من الخبث إلى العذوبة. قالت: أذهب إلى المحل وأشتري قطعتي حلوى محشوتين بالفستق، مغموستين بالسمن، ومثقلتين بحمولة من القطر: قطعةً لي وقطعةً لزوجي. قالت (زوجي)، فتنفست أنا الصعداء. الحمد لله، فهذا سد منيع. ثم مضت في قصتها: أذهب إلى البيت. آكل قطعتي، ثم يأتي زوجي من عمله، فيتعشى وينام. فأتسلل إلى المطبخ. وأراه لم يأكل قطعته، ولعله لم يشعر بوجودها. فألتَهِمُها. القصة حقيقية بنسبة خمسة وتسعين بالمئة، والزميلة تعرف نفسها.

صاحبة المنزل والقُنَّار

سكنت مرة بيتاً بالأجرة في مدينة البيرة بفلسطين. كنت في الطابق السفلي، طابقِ التسوية كما نسميه. وكانت أمام بيتي قطعةُ أرض صغيرة. وكانت تسكن في الطابق العلوي صاحبة البيت. كانت - سهل الله عليها - تفاوضني كل شهر في أجرة البيت، هي تريد تخفيض الأجرة وأنا أريد الثبات عليها. هؤلاء الناس انقرضوا في زمننا. المهم أنني اشتريت ذات يوم قُنَّاراً. والقنار عندنا بصل صغير يستنبتون منه البصل الأخضر. بدأت أدس بصلاتي الصغيرات في التراب، فإذا جارتي تطل من شباك بيتها وعليها ثوبُ الصلاة، وتهتف بي أن توقفْ ولا تكمل. توقفْت. ونزلَتْ من بيتها وقالت لي إنها قطعت صلاتها وهي تراني أصنع ما أصنع. وأخذت مني البصلات وراحت تدسها في التراب في أثلام مرتبة.

طفلة في لندن وفيلسوف في اليونان

عمر البنت أربعُ سنين، وتتجول مع أمها بين أرفُف متجر الكتب، رأيتهما قبل الجائحة في لندن. البنت: أمي، هل يمكن أن آخذ بسكوتة أخرى؟ الأم: بسكوتةٌ واحدة تكفي، وبعد قليل سنتغدى، وبعد الغداء تأخذين بسكوتة. البنت: لكن البسكوتة بعد الغداء ليست لذيذة، الآن ستكون لذيذة. الأم: البسكوتة الأولى كانت لذيذة، الثانية لن تكون مثلها. البنت: نجرِّب. اضطُررت

إلى الانسحاب من المشهد لأن الأم انتبهت إلى استراقي السمْع. كانتا تمشيان في المكتبة والأم تحني رأسها وتهمس لطفلتها، فأما الطفلة فتعلن مواقفها بصوت عالٍ. غير أنني رأيت وأنا أنسحب يد الأم تمتد إلى حقيبتها. لعل البنت قالت لأمها ما قاله ديسيموس قبل ألفي سنة. وديسيموس هذا من حكماء اليونان، وقد ذكره الجاحظ في ثلاثة من كتبه. قال الجاحظ: فأما ديسيموس فهو من موسوِسي اليونانيين. قال له قائل: ما بال ديسيموس يعلم الناس الشعر ولا يقوله؟ فقال: أنا كالمِسَنِّ الذي يشحذ ولا يقطع. (هذا أحسن وصف للناقد). ورآه رجل وهو يأكل في السوق - وههنا موطن الشاهد - فقال: ما بال ديسيموس يأكل في السوق؟ فقال: إذا جاع في السوق أكل في السوق.

أزاميل الطفولة

عندما كنت في نحو السادسة من العمر رماني أبواي في القسم الداخلي بمدرسةِ راهبات مار يوسف بنابلس أسبوعين ليقضيا شهرَ عسلٍ متأخراً في مصر. قالت لنا المعلمة جانيت: انسخوا الدرس. ولم يكن عندي ورقة. فنسخت الكلمات على نصف الصفحة في ذيل الدرس. ولم يكن نصف الصفحة فارغاً، بل كانت عليه كلمات مكتوبة بخط دقيق، هي أسئلة وتوجيهات للمعلم، إلخ. نسخت بقلم الرصاص فوق الكلمات الصغيرة المطبوعة. ووبختني المعلمة وتراقصت شامة كبيرة مخيفة في خدها أمام وجهي. والآن وبعد أكثرَ من نصف قرن تراني أبخلَ خلق الله في الورق. اطلُبْ مني رقم هاتف، وستراني أقص لك من طرف الورقة قطعة صغيرة لا تكاد تكفي للرقْم. لا أحد يهرب من طفولته.

المشغوف بمهنته

كان أبي خياطاً، أمسك بالمقص صغيراً وتجرأ على قطعة جوخ، ثم ظل يقصّ. قصَّ عليَّ أنه رأى في شبابه على رجل بدلةً مفصلةً تفصيلةً مبتكرة،

وعرف منه أنه خاطها عند خياط معروف في يافا. ولم يستطع أبي أن يفك سر تلك التفصيلة. ثم اتفق له أن كان في يافا لبعض شأنه، فذهب إلى مشغل ذلك الخياط، وأخذ يتسكع على الرصيف ويسترق النظر، والخياط يفصِّل. ثم إن الخياط انتبه، وخرج من مشغله، وقال لأبي: تعال! أنت خياط! فاعترف أبي بأنه خياط. وقال له المعلم: عرفتُ مرادك، تفضل. وفي ثوان معدودات كشف له سرَّ تلك القَصَّة المبتكرة. كان أبي مشغوفاً بمهنته شغفاً عجيباً.

جاري الغامض

كان لي جارٌ له في الحياة طريقة يعرفها ولا يعرف غيرها، كان يعرف للقرش موضعه، أو بالأحرى «لكلٍّ» قرش موضعه. يخرج في السابعة إلا الربع، وتضبط ساعتك على لحظة خروجه. أُطل من نافذتي فأراه قد بدأ يتدحرج في الشارع. فهو رجل كبيرُ الرأس مكوَّرُه، وجسمه نحيف، وقدماه صغيرتان. كان يشبه علامة الاستفهام. وهو إذ يمشي يدفعُ برأسِه إلى الأمام فيَهوي رأسُهُ، فيلحقُ به سائرُ جسمه، فيتحرك. ويظل رأسه يسقط، ويظل جسمه يسرع كي يُسند الرأس، حتى يصل إلى دكانه. ولا يفارق دكانه حتى مغربِ الشمس: فيه يتغدَّى، وفيه يصلي، وقد تراه قاعداً يأكُلُ غداءً أُرسِل إليه من البيت في سَفَرْطَاسِ ألومنيوم مبعَّج. في دكانه يعيش. وهو يعرف الحق: يزنُ لك أوقيَّة السِّمسم وزناً عجباً: حبَّةً حبةً حتى يرجحَ رجْحَةً خفيفة، ثم لا يزيدُ سِمسمةً واحدة. وعندما يرتفع سعر التنباك يظلُّ يبيع القديم بالسعر القديم حتى ينفَد. لم يبارحْ بيته المتواضع، ولم يركب سيارةً ولا أخذ عطلة. كنت أغتاظ منه لأنني لم أكن أرى وراء هذا الإنسان شيئاً من الإنسانية بالمفهوم الواسع. فهو لا يضاحك جاراً، ولا يقرأُ جريدة. وإذا فتح الراديو فلكي يسمع الأخبار ويضبطَ ساعتَه قبلَها. أليس الراديو يسحب كهرباء؟ ذات مساء مات جاري ميتة فجائية، فقلت في نفسي: ربما خلَّف لأولاده الملايين. وفي ظهر اليوم التالي شيَّعتْه البلدُ كلُّها في جِنازةٍ مَهيبة. خرج من بيوتهم ناس لم تكن تعرفهم شوارع المدينة، خرجت نساء، وخرج رجال. والتقى في هذه الجِنازة

الغريبة الوجيه والفقير، وكان لها ذيل نسائي نَدَر مثلُه في جنازات البلد. ثم عرفت أنه كان محسِناً، له في الإحسان طريقةٌ لا يطيقها أحد. كان يحسن إلى الفقراء لأن هذا هو الحق، وليس طلباً للذِّكْر، ولا للوجاهة. قعدتُ ألوم نفسي لأنني لم أر في ذلك الرجل إلا رأساً يتدحرج.

الفتاة النفاثة

كنت أجلس في مقهى بإستانبول وعلى مقربة جلست فتاتان. إحداهما تكيل الاتهامات لصاحبتها، وصاحبتها تحاول تهدئة النقاش، ولكن الصاخبة تتحمس وتزيد من وتيرة النَّفْث. كانت مثل الطائرة النفاثة التي تسير على مدرج المطار وتزيد من سرعتها ثم تنطلق بسرعة هائلة، ثم تطير. وهذا بالضبط ما حدث مع النفاثة في المقهى، فبعد أن وصلت إلى الذروة ضربت المنضدة بقبضتها وقامت، وانصرفت غضبى مزمجرة. تعاطفتُ مع الفتاة الهادئة التي بقيت جالسة في مَقعدها. وجاء النادل، وسمعتها تسأله: هل دفعت الفتاة الحساب قبل أن تخرج؟ قال لها النادل: قد فعلت. ابتسمت الفتاة الهادئة، وحملت حقيبتها وانصرفت. فتعاطفتُ مع الفتاة النفاثة، يبدو أن الهادئة فتاة لئيمة يهمها المال أكثرَ من فِقدان صديقة.

استهزاء مبرر

كنت موظفاً جديداً في مؤسسة كبيرة، وتعرفت بالزملاء، نلتقي في مَقصِف المؤسسة، نتبادل التحايا ويجلس كل إلى أصحابه. وعرفت زميلة رأيت منها أمراً استوقفني. كانت تلقي التحية بحرارة على الناس من رجال ونساء. لكنها كانت تخص زميلاً ذا شأن وإبداع بتحية ساخرة. كانت تستهزئ به. بعد مدة تجرأت وسألتها: ما بالك تلقين التحية على فلان باستخفاف، وهو من هو في المقدرة وحسنِ الخلق؟ وجاءني الجواب: قبل نحو سنتين كان لنا اجتماع مع المدير الكبير في القاعة، وانتقدت قراراً للمدير ببعض الحدة، فبان الغضب في وجه المدير وفي جوابه. وبعد هذه الحادثة كنت أدخل المقصِف فأطرح

السلام على هذا الرجل المبدع ذي الشأن فلا يرد السلام، وأجلس إلى منضدة عليها الزملاء وهو منهم فيقوم لفوره ويتحاماني. كلّ هذا كيلا يُنقلَ للمدير الكبير خبر بأنه من أصدقائي.

سكون ووحشة

كنت أقيم وحيداً في منزل بالطابق الثاني في ضاحية إيلينغ بلندن، وكان يمر من أمام منزلي الباص اللندني ذو الطابقين ٢٢٦. كنت وحيداً، وكنت مستوحشاً. أسمع صوت الباص مقبلاً في الليل، فأسرع إلى مفتاح النور، فتسبح غرفتي في الظلام. وأقف بالنافذة. مستوى الطابق الثاني من الباص بمستوى غرفتي، يمر الباص بطيئاً في الشارع الضيق. وأختلس نظرة سريعةً إلى الناس الجالسين وقد غمرتهم أضواء الباص. أعيش معهم ثوانيَ قليلة، أتلصص عليهم. ويذهبون إلى بيوتهم. وأنتظر ثلث ساعة لكي أعيش مرة أخرى في مجتمع باص آخر.

ويسكي وتحليلان

لقيتُ زميليَ الصحفي في القاهرة، دعاني إلى المسرح فحضرنا الملك لير بطولة يحيى الفخراني. كان هذا في عام ألفين وثمانية تقريباً. وانصرفنا من المسرح إلى مطعم شعبي في زقاق لنأكل الزغاليل، صغارَ الحمام. المائدة على الرصيف. جاء النادل وقال: ويسكي! فطلب صاحبي الويسكي، فاستفظعت الأمر، ويسكي وعلى الرصيف! قال انتظر. جيء بكوبين ليس عليهما من صفرة الويسكي الصافية شيء، ولا من جليده ولا من بريقه. الويسكي عندهم هو ما ينز من الخضار في قاع الوعاء، هو باختصار ماء السلطة وفيه ليمون وزيت وطعمُ النعناع وكلُّ شيء، إضافة إلى كميات من البكتيريا غاب عنا شكلها، وشربنا. قلت لصاحبي: هيه! مبارك سيأتي بولده جمال لكي يكون الرئيسَ بعده. قال لي: ذلك لن يكون، الجيش لن يرضى. فلم أعقِّب. ومضت سنتان، وعدت إلى مصر. واستأنفنا الحديث القديم. قلت

لصاحبي: يبدو أن جمال مبارك سيكون رئيسَكم المقبل. فهز رأسه: يبدو كذلك. تراجع عن رأيه الأول. ولم تمض سنة أو سنتان حتى قامت ثورة الخامسِ والعشرينَ من يناير عام ألفين وأحد عشر، وخلع مبارك. كان التحليل الأول لصاحبي أصدق، فالجيش وقف يتفرج على الثائرين ولم يحرك ساكناً لحماية مبارك، فسقط.

الندَمات الثلاث

ندمت مرتين ومرة، في حادثة من أصغر ما يمر بك. وها أنا ذا بعد ثلاثين سنة ما زلت أشعر بغصة. كنت أتجول في كوفنت غاردن بلندن ورأيت في بسطة على الرصيف دمىً يلبَسن ثياباً مزركشة، الفساتينُ بعضُها أقصر من بعض كأنها قوس قزح. والتشبيه لابن الرومي. اقتربت من البسطة وانتقيت أجمل دميتين، لباساً. والدمية منهما بقدر الزند طولاً، وجسمها من خزف وثيابها من حرائر ومخامل. كانتا دميتين مما تحب العجائز أن ينصبنه فوق صِوان الأواني الخزف، قلت للبائع بكم؟ فنظر في وجهي وقال: من أين الرجل؟ قلت من فلسطين؟ قال: «وأين فلسطين؟ أنا أعرف إسرائيلَ فقط». وكان حقاً عليَّ أن أترك له الدميتين، وأن أمضيَ في طريقي. ولكنني تذكرت ابنتيَّ، وهما في نحو الخامسة والسادسة من العمر. كظمت، وقطعته عن كلام السياسة، ونقدته الثمن. ثم ندمت أن قدمت ابنتيَّ على توبيخٍ كان يستحقه ذلك الرجل. فرحت ابنتاي بمرأى الدميتين، ولكن، ما إن احتضنت الصغرى دميتها حتى انقلب مزاجُها. وأما الكبرى فرضيت بغير سرور. كانتا تتوقعان دميتين طريتين للاحتضان لا دميتين خزفيتين. ندمت على أنني قدمت الشكل على الفحوى. كأنني فكرت في جمال اللعبتين ونسيت أنهما ليستا للعرض فوق الصوان. بكت ابنتي الصغرى. ووالله إن دمعتها تلك، التي جفت قبل ثلاثين سنة، لتؤلمني حتى اليوم. ها قد أتينا إلى الندمة الثالثة. هل سبق لك عزيزي المشاهد أن قرأت كلمة ندْمة؟ ربما. أنا لم أقرأها ولم أسمعها، ولكنني عندما أتكلم أخترع وأنا ماش في طريقي. الندمة الثالثة كانت على أنني لم

أنطلق من فوري لكي أشتريَ دميتين أخريين تفيان بالمطلوب. والآن أبرر لنفسي وأقول: جيد أن أصيبت البنتان بخيبة الأمل، هذا تدريب مبكر لهما على الحياة. مجرد تبرير.

صاحب الصفقات والتدبيرات

هذه قصة سأزعم أنها واقعية. قصة تاجر هو همزة وصل بين الريف والمدينة، تأتيه الألبان والأصواف من خراف الريف، ويأتيه الزيتُ والزيتون من أشجاره، وله في المدينة تجارة رائجة. له ابنة في نحو العشرين أقامت علاقة، أو هكذا زعم أخوها. قال الأب للأخ: وأين سكينك؟ فانتفخ الأخ، ومضى إلى أخته فذبحها. وحبسوه ثلاثة أشهر وخرج من السجن بطلاً. وعمت الأفراح الديار. هذا عن البنت الكبرى. البنت الوسطى في الخامسة عشرة. قال أبوها لأمها جهزيها، فقد سمعت أن شيخ التجار قد ماتت زوجته. قال صاحبنا لشيخ التجار بعد العزاء بأيام: قد عوضك الله يا شيخ. وزف إليه ابنته الوسطى. بات صاحبنا وهو في منتهى السعادة فهو سيد الصفقات وصاحب التدبيرات المحكمات. لقد عزز تجارته وناسب شيخ التجار، والمهر جيد أيضاً. لم يفكر في أنه ساق ابنته الصغيرة إلى أحضان رجل مسن. حتى الجزار فإنه قد يفكر في مشاعر الخروف الربيعي الصغير وهو يذبحه.

الدردبيس ومتعة الترقب

رأيت في لندن حيزبوناً لِطلطاً قَلْعماً ـ أي عجوزاً لا تتماسك، وقد انحنت، ولم يبق في فمها أسنان - رأيتها واقفة أمام الكشك تشير بإصبع لها مقوَّسة وتنتقي من أصناف أوراق اليانصيب الأخضر والأحمر، وتدفع الثمن بيد مرتجفة. يا دَرْدَبيس! ماذا ستفعلين بالمليون الذي أكاد أصدق أنك ستربحينه؟ وكأني أسمعها ترد عليّ: وأنت يا صاحبَ الكلمات المهجورة، أراك سعيداً بشبابك، وبتقعرك، وبشعرك الأسود. العمر مؤقت، وفي المؤقت تستوي الثماني والثمانون. أنا سعيدة بأوراق اليانصيب.. سعيدة بالترقب. فهمت!

أسد المجالس

أحدثكم عن أسد المجالس، وهذا رجل يأتي مجلسَ القوم، والمجلس فيه حديث دائر يتجاذب الجالسون أطرافه، فيقفُ وبأعلى صوته يلقي التحية. ويشفع تحيته بتوجيه السلام الخاص إلى فلان وفلان وفلان، المهم أن يُسكِت المجلس. ويقعد وهو يتلقى الردود. يقعد بعد أن يكون قطع أحاديث الناس بفظاظة. يقعد وهو يتكلم، وبصوته العالي. لا يبالي أنه جاء في منتصف الفلم. إنه هو الفلم. ويلقي حديثاً من عنده، فما يشغل بالَه يجب أن يشغل بال كل الحاضرين. ويلتقط أحدُهم طرف الخيط فيَسمحُ له بالكلام قليلاً ثم سرعان ما يقفز عليه فيناقضه أو يوافقه. أسد المجالس يهمه أن يكونَ كلُّ كلام في المجلس موجهاً إليه، فإن جرى كلام بين اثنين سواه، فلا بد من التدخل لوضع الأمور في نصابها. قد يكون أسدُ المجالس من كبار الأغنياء، فهو يستمد صوته من جيبه. يحتمله الناس لأنهم درجوا على احترام الغني. وقد يكون متوسط الحال، ولكنه يملك من القحة أن يفرض على الناس أن يفسحوا له صدر الكلام.

وعرفت رجلاً خافتَ الصوت لكنه لا يحسنُ يَسْمع. إذا جلس في مجلس فسرعان ما يجر أحد الجالسين كي ينفرد به بعيداً. هذا أسد على شخص واحد. خِلقته هكذا، يمسك بشخص ويفتح صنبور الكلام، ويظل يتكلم بلا نهاية. صحبته مرة اثنتي عشرة ساعة. كنا نمشي، ونجلس في مقهى، ونمشي ونرتاد متجراً لبيع الكتب، أقف أقلب بعض الكتب وهو بقربي غيرَ مهتم بالكتب، بل بإخراج أكبر عدد من الكلمات في الدقيقة. ومن مقهى إلى مقهى حتى هبط الليل. كنت إذا فتحت فمي قطعني قطعاً، لا يجوز لفكرتي أن تكتمل. وقد أقول حادثة صغيرة وأصر على إتمامها فأراه يغلي، أراه ينظرُ إليَّ وحدقتاه تدوران، إنه على نار، ينتظرني أن أسكت كي يكمل كلامه. وأنتهي من قصتي الصغيرة، فأفاجأُ به يقول كلاماً لا علاقة له البتة بما كنت أقول. لقد منحني نصف دقيقة لأتكلم، والآن يجب أن أواصل الاستماع إليه. تعبت من

أسود المجالس. لكنهم موجودون في هذه الدنيا، وباقون، مثلَ الشجر ومثل بلاط الرصيف ومثل السكري والجلطة.

غرفة البكاء

كنت أنتظر المِصعد في بناية سكنت فيها قبل أسابيع. الإضاءة برتقالية خافتة، والجدران هرمة. على يميني باب خشبي عريض بمصراعين. طلاؤه أبيضُ مصفرٌّ كأبواب المستشفيات القديمة. مرت من أمامي فتاة تهرول نحو الباب ذي المصراعين. فتحته من وسطه كأنها شقته شقاً. لم أر ما الذي وراء هذا الباب. لكن، سمعت صوتها تبكي بأنين يوجع القلب. وجاء مصعدي وصعِدت إلى شقتي. بعد أيام تكررت الحادثة مع فتاة أخرى. بناية كئيبة، فلا عجب أن يكون فيها مكان مخصص للحزانى. عندما اكتشفت لاحقاً أن الأنين هو أنين الباب وهو ينطبق ببطء، لم يتغير شعوري تجاه البناية الكئيبة.

حديقة الأمثال

ربَّ كلمة تقول لصاحبها دعني

كان أحدُ جلساءِ الملك ثقيلَ الظل، كثيرَ الكلام. وحدث أن خرج الملك مع حاشيته في رحلة جبلية. وقفوا قربَ صخرة عاليةٍ هائلة يتعجَّبون من ضخامتها، فانبرى الثقيل وقال: لستُ أدري والله، لو ذُبح إنسان فوق هذه الصخرة، هل يصلُ دمُه إلى الأرض؟ فقال الملك على الفور: «أنت لن تدري، ولكننا نحن سندري. خذوه.» وأمر برجاله فصعِدوا بالثقيل إلى أعلى الصخرة وضربوا عنقَه. وعرف الملك وكلُّ أفراد الحاشية الجوابَ عن سؤاله، لكننا نحن لن نعرف، لأننا لم نكن هناك. لكننا عرفنا المثل الذي ينطبق على هذه الحال، وهو (ربَّ كلمةٍ تقول لصاحبها دعني).

إن يبغِ عليك قومُك، لا يبغِ عليك القمر

تراهن رجلٌ مع بعض قومه في شأن القمر. قال إن القمر لن يظهر الليلة في السماء. قالوا له: الشهر في منتصفه وسيظهر. ثم أردفوا: هيا، فلنخرج لنرى. فأخذ الرجل يشكو من أنَّ قومَه يشككون دائماً فيما يقول، ويَبْغُون عليه ويظلمونَه. فقالوا له: إن يبغِ عليك قومُك لا يبغِ عليك القمر.

أطمعُ من أشعب

كان أشعبُ صاحب النوادر الكثيرة ماراً برجل يصنع طبقاً من القشّ، فرجاه أن يزيد فيه طوْقاً. قال الرجل: لماذا؟ فقال أشعب: لعله يُهدى إليَّ فيه شيء.

الله في كل مكان

كان لمتصوف تلامذةٌ، وكان يخص أحدهم بعنايته، فكلمه تلامذته في الأمر واشتكوْا. ومرت أيام، وفي يوم عيد أعطى الأستاذ كل تلميذ من تلامذته طيراً، وقال لهم امضوا واذبحوا طيوركم بحيث لا يراكم أحد حتى نحتفل بالعيد. فمضى كل تلميذ وذبح طيره، وعادوا. إلا أن التلميذَ النجيب عاد بطيره حياً. وقال للأستاذ: لم أجد مكاناً لا يراني فيه أحد، (الله في كل مكان).

أن ترِدَ الماءَ بماءٍ أكيس

كان العربي يسير في صحرائه بين ماء وماء. يملأ قربته من بئر ويسير في اتجاه بئر أخرى. وقد يجد ماء هذه البئر مالحاً بعض الشيء، فلا يملأ قربته ويعوِّلُ على بئر مقبلة. فيقول له مَنْ علَّمته التجارِب: بل املأ قربتَك من الماء المالح، فما يدريك لعل البئر المقبلة بعيدة جداً، وأن تَرِدَ البئر المقبلة ومعك ماء أكيسُ ـ أي أدنى إلى الكياسةِ ـ من أن تمضيَ بلا ماء. يقول المثل (أن تردَ الماءَ بماءٍ أكيَس). حتى القرد فهو لا يترك الغصن إلا وقد أمسك بغيره، قال المثل: لا يترك الساق إلا مُمسكاً ساقاً.

بطني عطِّري، وسائري ذَري

تاه رجل في الصحراء وأنهكه الجوع، فلما وجد خباء لجأ إليه، فقال صاحب الخباء للجارية: هاتي عطراً وعطِّري ضيفَنا، فقال الجائع: «بطني عطري، وسائري ذري».

سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تَقشَّعُ

قدم بلالُ بن أبي بُردةَ البصرة أميراً. فقال خالد بن صفوان لجلسائه: سحابةُ صيف عن قليل تقشَّعُ. فبلغت الكلمة بلالاً، فاستقدم ابنَ صفوان، وقال له: والله لا تتقشَّعُ حتى يُصيبَك منها رذاذ. وأمر به فضُرب مئةَ سوط.

لا في العير ولا في النفير

تعرض المسلمون للعِير التي رجع بها أبو سفيان وهي تحمل تجارةَ قريش، ونجتِ القافلة. ولكن قريشاً بعثت نفيراً من رجالها مع عُتْبَةَ بنِ ربيعة للتصدي للمسلمين، وكانت وقعةُ بدر، ورجعت قريشٌ إلى مكة تلعق جراحها. وكان في قريشٍ رجالٌ لم يشاركوا في العير (التي تحمل التجارة)، ولا في النفير (الفرقة المحاربة). فأخذ يقال لكل من لا شأن له في القضية المطروحة إنه (لا في العير ولا في النفير).

نعرف أنفسَنا

كان الأمير هارباً من بطش السلطان، وكان معه ولدُه الشاب. ونزلا بخيمة عجوز على طرف الصحراء. وأكرمتْهما وذبحت لهما شاةً. وعند الانصراف أخرج الأمير كيساً مملوءاً بالدنانير الذهبية، وأعطاه للعجوز، وانصرف مع ابنِه. قال له ابنُه: يا أبي، هذه عجوز لا نعرفها، ولا تعرفُنا، فكيف أعطيتَها كلَّ هذا المال؟ قال له والده: هي لا تعرفُنا، لكننا.. نعرف أنفسَنا.

يداكَ أَوْكَتا وفوك نفخ

أرادا رجلان قطع نهرٍ عريض، فأفرغا قِربتيهِما من الماء، ونفخ كلٌّ منهما قربته بالهواء وأَوكاها أي ربطها بسير من الجلد. فصارت كلُّ قربة كأنها طوقُ نجاة. وتأبط كل منهما قربته ونزل في النهر. ووسْط التيار انحلَّ السير عن فم قربة أحدهما، وأخذ يصرخ، النجدةَ النجدة! فقال له صاحبه: يداك أوكتا، أي ربطتا فم القربة، وفوك نفخ.

العشب في حديقة الجيران أنضر

يقسم الطفل الكعكة ثلثين وثلثاً. يعطي ابن الجيران الثلث، ويأخذ الثلثين. المثل الشعبي في بلدنا يقول: المقسِّم لا يدخل الجنة. ولا يعود لهذا المثل

مكان، عندما تكون القسمة تحت مبدأ (أنا أقسم وأنت تختار). فالذي يقسم يحرص على التساوي كل الحرص لأن الذي يختار هو الشخص الآخر. تجلسان في المطعم أنت وصاحبُك. تطلب طبق منسف، ويطلب صاحبك طبق منسف. فترى طبق صاحبك أكبر وقطعةَ اللحم في طبقه أكبر. الواقع أن الأكبر هو جشعُك. الطبقان متساويان. كُلْ وأنت ساكت. قال المثل الإنجليزي «العشب في حديقة الجيران أَنْضَر».

أوسعتَهم سبَّاً وأَوْدَوْا بالإبل

يضرب هذا المثل لمن يثور ويغضبُ ويشتمُ مَن ظَلَمه دون أن يتمكن من الانتصاف منه. وقصتُه أن قوماً سرقوا إبلاً لزهيرِ بنِ أبي سُلمى الشاعر، فسبَّهم وراح يشكو ظلمَهم. فقال له ابنُه كعب: أوسعتَهم سبَّاً وأَوْدَوْا بالإبل.

أردتَ عمْراً وأراد الله خارجة

توجه خارجيٌّ إلى المسجد في صلاة الصبح يبتغي قتلَ عمروِ بنِ العاص. وكان عمروٌ قد مرض فأناب عنه للصلاة في الناس خارجةَ بنَ حُذافة. استل الخارجي خنجره وطعن خارجة وهو يظنه في العَتَمة عمْراً. وجيء بالقاتل إلى عمروِ بنِ العاص ففوجئ القاتل. فقال له عمرو: أردتَ عمراً وأراد الله خارجة. فذهبت مثلاً. وفي المؤامرة نفسها قصد الخوارج أن يقتلوا معاويةَ بنَ أبي سفيان، وعليَّ بنَ أبي طالب. فنجا معاوية مثلما نجا عمروُ بنُ العاص، وقُتل الإمامُ علي. فقال الشاعر عن الطعنة التي لم تصب عمروَ بنَ العاص:

فليتَها إذ فَدَتْ عمراً بِخارِجَةٍ   فَدَتْ علياً بما شاءت مِن البشرِ

أبطأ من فِنْد

كان «فِنْدٌ» خادماً لابنة سعد بن أبي وقاص في المدينة المنورة، أرسلته إلى بيت الجيران ليقتبس ناراً. فرأى في طريقه قافلة فالتحق بها فإذا هي تقصد

مصر. ذهب إلى مصر، ثم عاد بعد سنة، فأتى منزل الجيران وأخذ قبساً من نار وركض به نحو بيت مولاته، فعثر في الطريق فوقع الجمر، فقال: لعن الله العجلة. فقيل: (أبطأ من فند).

أعيا من باقل

اشترى باقلٌ ظبياً بأحدَ عشر درهماً، وقاده من حبل في عنقه، وجلس على مَصطبةٍ أمام بيته. فمر به أحدهم وسأله: بكم اشتريت الظبي؟ وأراد باقل أن يقول له «بأحدَ عشَرَ درهماً»، لكنه كان عييًّاً ألكَنَ وكسولاً. ففتح أصابع يدِه فهذه خمسة، ووضع طرف الحبل بين أسنانه، وفتح أصابع يده الأخرى، فهذه عشرة. ثم أخرج لسانه ليَتِمَّ العددُ على أحدَ عَشَر. ففر الظبي إلى غير رجعة. فقيل: أعيا من باقل.

لا يُقرع له بالعصا

شاخ عامرَ بنَ الظِّرْبِ العَدوانيِّ، وأخذ يعتادُه ما يعتادُ الكبارَ من إعادة الحديث سهواً، فأدرك ذلك من نفسه، وقال لابنتِه: كلما سمعتِ مني ما يَشين اقرعي بالعصا على الترس فأنتبهَ. فكانت تفعلُ ذلك. فإذا ما أردنا امتداحَ رجلٍ حكيم قلنا: (فلانٌ لا يُقرعُ له بالعصا).

ثلاثة أمثال

قال أحمد بن محمد المروزي من قصيدة ضمت عدداً من الأمثال:

مـن رام طـمـسَ الـشـمـس جـهـلاً أخطا
الـشـمـسُ بـالـغِـربـالِ لا تُـغـطَّـى
مِـنْ مُـثُـل الـفُـرسِ ذوي الأبـصـارِ
الـثـوبُ رَهْـنٌ فـي يـدِ الـقَـصَّـارِ

والقصار هو غاسل الثياب. وكذا فمن ترك حاسوبه عند الرجل ليصلحه له، ولم يدفع الأجر مقدماً، فلا بأس، فالحاسوب نفسُه مرهون عند الرجل. «الثوب رهن في يد القصار». وهذا بيت آخر من حكمة الفرس:

نالَ الحمارُ مِن سُقوطٍ في الوَحَلْ
ما كان يهوى، ونجا من العملْ

وفي المثل إشارة إلى قصة حمارين، حمل الرجل على الحمار الأول قطناً، وعلى الثاني ملحاً. وفي الطريق أخذ الحمار الحامل قطناً يشمَتُ بصاحبه ويقول: حِملي خفيف، وأنت يا مسكين تحمل الملح الثقيل. ثم عبر بهما الحمار ترعة عميقة فغاصا فيها. وعندما خرجا كان الحمار حاملُ القطن مثقلاً بالقطن المشبعِ ماء. وكان الحمار صاحب الملح سعيداً لأن الملح ذاب. فتغير اتجاه الشماتة.

لو تُرك القطا ليلاً لنام

قال الشاعر:

ولولا المزعجاتُ من الليالي لما عافَ القطا طيِبَ المنامِ

تقول القصة إن امرأة سمعت في الليل طيور القطا ترفرف بأجنحتها، فأوجست خيفة، فنبهت زوجها. قال: لا عليك، هذه القطا. فقالت له: لو تُرك القطا ليلاً لنام. وبالفعل كان هناك قوم يقتربون من مضارب القبيلة للغارة. ولو سمع الرجل كلام زوجته لتهيأ للدفاع عن قومه.

أبصر من زرقاء اليمامة

إذا قالت حذامِ فصدِّقوها فإن القولَ ما قالتْ حَذامِ

كانت حذامِ، ولقبها زرقاءُ اليمامة، من قومِ جَديسَ من العرب البائدة، وكانت تُبصر مِنَ على مسيرِ ثلاثة أيام. كانت ترى العدوَّ وهو قادم فتحذِّرُ أهلَها فيأخذون أُهْبَتَهُمْ، ويَصُدُّون المعتدي. وجاء الأعداء مرة وقد حملوا أغصان الشجر يموِّهون بها، فقالت لقومها رأيت شجراً يمشي، فكذبوها، فدهمهم الأعداء وهزموهم، وسملوا عيني الزرقاء.

بين حانا ومانا ضاعت لِحانا

كان لرجل زوجةٌ صالحة اسمها حانا، فعندما كبر وكبرت تزوج فتاة صغيرة اسمُها مانا. فكانت «حانا» تلتقط من لحيته الشَّعَرات السود حتى يبدوَ مسناً مثلَها. وكانت «مانا» تلتقط من لحيته الشعرات البيض حتى يبدوَ شاباً مثلها. وهكذا ضاعت لحيتُه.

على أهلها جنت براقش

براقش كلبة كانت لقوم. وقد فروا من أعدائهم واختبأوا في مكمن، فنبحت الكلبة فدلَّ نباحها الأعداء عليهم. ويطلق المثل على شاب متهور يجني جناية فيعقدها المجتمع في عنق عائلته.

قطعت جَهِيزةُ قولَ كلِّ خطيب

اجتمع القوم يعقدون صلحاً بين قبيلتين في قتيل، فكان الخطباء يتوالى أحدهم بعد الآخر في شأن الدية. وبينما المجلس في حَيْصَ بَيْص، إذا امرأةٌ اسمُها «جَهِيزة» تأتيهم بالخبر: لقد ثأَرَ أهل القتيل وقتلوا رجلاً بأخيهم. فانفض المجلس، وقال القوم: (قطعت جَهِيزةُ قول كل خطيب).

كالباحث عن حتفه بظلفه

أراد الرجل ذبح عنزِهِ، فالتمس مُديَته فلم يجدها. والعنزُ على مقربةٍ تحفِرُ بِظِلْفِها، فكشفت عن المُدْيَة فذُبحت بها. قال الفرزدق:

وكـان يُـجيـرُ الـنـاسَ مـن سيـفِ مـالـكٍ
فـأصـبـح يـبـغـي نـفـسَـه مَـن يـجيـرُهـا؟
فـكـان كـعـنـزِ الـسُّـوء قـامـت بظِـلـفِـهـا
إلـى مُـديـةٍ تـحـت الـثـرى تـسـتـثـيرُهـا

جليس الليل غلب جليس النهار

تولى الفرزدق تزويج ابنةَ عمه النوار. فاجتمع الناس في المسجد وجاء الخاطب، فقام الفرزدق وقال: هل تَشهدون أن النوار وَلَّتني أمرها؟ قالوا: نشهد. ففاجأهم بقوله: ألا وإنني قد زوجتها نفسي. فبهت القوم. ونفرت النوار، وسعت كل مسعى كي تطلِّق نفسَها، ولم يجرؤ أحد على الوقوف معها خَشية لسان الفرزدق. فرحلت إلى ابن الزبير بمكة. ورحل الفرزدق يتبعها. واشتكت إلى عبد الله بن الزبير. واستجارت بزوجته، واستشفع الفرزدق بحمزة بنِ عبد الله بن الزبير. فكان ابن الزبير الأب يميل إلى جانب النوار مفضلاً رأي زوجته على رأي ابنه، فقال الفرزدق:

ليس الشفيعُ الذي يأتيكَ مُؤْتَزِراً　　　مثلَ الشفيعِ الـذي يأتيكَ عُريانا

فغضب ابن الزبير وقال للنَّوار: إن شئتِ طلقتُك من هذا الفاجر وضربتُ عنقه، فقالت: هو ابن عمي. وسلمت أمرها لله، وتزوجت بالفرزدق. وولدت له من الذكور: لبطة وسبطة وحبطة وولدت له من الإناث: ركضة وزمعة، فأية حاملٍ تقرأ هذا وهي متحيرة في اسم مولودها، فهذه خيارات متاحة.

وعند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقين

كان الحصينُ قاتلاً فاتكاً، وقد هام على وجهه يقطع الطريق، فيقتلُ من يقدر على قتلِه ويسلُب متاعه. ولقيه الأخنَسُ الجُهَنِيّ، وكان فاتكاً مثلَه، فتعاهدا ألا يغدِرَ أي منهما بالآخر، وأن يصطحبا في قطْع الطريق وسلب الناس. علم الصديقان الفاتكان يوماً بأن رجلاً انصرف من عند الأمير بهدايا

وجوائز، فترصداه، حتى وجداه مستظلاً بظل شجرة، فأتياه، فدعاهما إلى الطعام، فأكلا معه وشربا. ثم إن الجهَني ذهب لبعض حاجته، وعندما رجع وجد صاحبه الحصين وسيفُه بيده يقطر دماً، ووجد الرجل الذي ضيَّفهما قتيلاً يتشحَّطُ في دمه. فلام الجُهَنيُّ صاحبَه الحصينَ على فعلته. فقال الحصين: اقعد نُتِمَّ طعامَنا، فوالله ما خَرَجْنا إلا لمثلِ هذا! فأظهر الجُهَني الرضا، وقعد وأكل مع الحصين. ولكنه أدرك أن صاحبه الحصين غادر لا عهد له، واقتنص منه غفْلَةً فعلاه بالسيف وقتله. وسلب الجُهَني المتاع كله ومضى في سبيله، وتاب عن قطع الطريق. افتقد أهلُ الحصين ابنَهم، ولعلهم فرحوا بغيابه وغياب أخباره. ولكن أخته ظلت ترتادُ الأسواق وتسألُ الناس إن كانوا رأَوْا أخاها. وصادف أن سمعها الجهَني في بعض الأسواق، فمضى عنها وهو يقول:

تُسائلُ عن أخيها كلَّ ركبٍ ... وعند جُهَينةَ الخبرُ اليقينُ

الغريب لا بَواكِيَ له

يقال ذلك الغريب. كان حمزةُ عمُّ النبي قليلَ الأقارب بالمدينة، وقُتل في أُحُد. رأى النبي نساء الأنصار يبكين من قُتل من رجالِهنّ، فقال: أَمَّا حمزةُ فلا بواكِيَ له! فراح رجال الأنصار يجمعون النساء ليبكين حمزة. ثم أمرهنَّ صلى الله عليه وسلم أن يكففن. ورأى النبي كيف مثَّلتْ قريش بعمه وجدعت أنفَه وبقَرَتْ بطنَه، فأقسم ليُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم. فما برحت أن نزلت الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾. فكفَّرَ الرسول عن يمينه.

بيننا وبينكمُ الجنائز

أصل القول أن أتباعَ الإمام أحمدَ بنِ حنبل كانوا كثيرين في بغداد، رغم مناوَأَتِه للسلطة الحاكمة. وكان أتباعُه يقولون لمخالفيهم، ولا سيما المعتزلة

(بيننا وبينكم الجنائز)، ومات ابنُ حنبل وخرجت له جِنازةٌ لم تشهد لها بغدادُ مثيلاً.

رُبَّ ساعٍ لقاعد

كان النابغة الذُّبْيَانيُّ عند النعمانِ بنِ المنذر، وكان من زوَّار النعمان رجلٌ عبْسِيٌّ اسمه شُقَيْق. وحدث أن مات شقيق وهو في الحيرةِ بلدِ النعمان. وعندما وزَّع النعمان الهدايا والجوائز على الناس بعث بجائزة شُقيقٍ إلى أهله. فقال النابغة (رُبَّ ساعٍ لِقاعد)، فالرجل سعى ومات، فنال الجائزةَ أهلُه القاعدون.

أخسرُ صفْقَةً من شيخ مَهْو

كان عبدُ الله بنُ بيدرةَ شيخاً مسناً من عشيرة مَهْو. حَضر سوق عكاظ ورأى الناس يُعَيِّرون قبيلة إيادٍ بالنجاسة، والإياديُّون في السوق منزعجون، والناس تتضاحك. قام رجل إيادي على مرتفع من الأرض، وحمل بين يديه بُرْدَيْنِ ونادى: ألا إنِّي من إياد، فمن يشتري مني عارَ النَّجاسةِ ببرديَّ هذين؟ فقام إليه شيخُ مهو وقال: هاتِ البردين، وأنا أُشهد القوم على أن عشيرتي أخذت هذا العارَ عنكم. ومضى شيخ مَهْو إلى عشيرته يلبَس البردين، فقيل له: من أين لك البُرْدان؟ فقال: اشتريت لكم بهما عارَ الدهر. قال الشاعر:

يا مَن رأى كصَفْقَةِ ابنِ بَيْدَرَةْ
مِن صَفْقَةٍ خاسِرةٍ مُخَسِّرةْ
المشتري العارَ بِبُرْدَيْ حِبَرَةْ
شَلَّتْ يمينُ صافِقٍ ما أَخْسَرَهْ

كل الصيد في جوف الفَرا

كانت العرب تأكل الفَرا، أي حمار الوحش، وتستطيب لحمه. وقصة المثل أن ثلاثة رجال خرجوا للصيد. فصاد أحدهم أرنباً، وصاد الثاني ظبياً، وتطاولا

على الثالث افتخاراً. وبعد حين صاد الثالث الفرا، أي حمارَ الوحش، فقال متباهياً: كلُّ الصيد في جوف الفرا.

ما هكذا تورَد يا سعدُ الإبل

كان مالكٌ آبَلَ الناس، أي أعلمَ الناس بالعناية بالإبل. وتزوج مالك. فطلب من أخيه سعد أن يورد الإبل الماءَ ويسقيَها. وكان سعدٌ كسولاً، فاشتمل بعباءته ونام، وترك الإبل ترد وحدها، فمنها ما شرب ومنها ما لم يشرب. فقال أخوه:

أورَدَهــا سَعْـدٌ وسَعْـدٌ مُشتَمِلْ ما هكذا تُـورَدُ يا سَعْدُ الإبِـلْ

فمن قال (ما هكذا يا سعد تورد الإبل) لم يكسر وزناً. ومن صاغ العبارة على هواه كسر.

الآن يمد أبو حنيفة رجليه

كان أبو حنيفةَ يجلس إلى تلاميذه ويستأذنهم في أن يَمُدَّ رجليه لألمٍ يعانيه في ركبتيه. وحدث أن جاء إلى مجلسه بالمسجد رجل بدا عليه الوقار، فثنى أبو حنيفةَ رجليه وتحامَلَ على نفسه. ومضى في درسه. ثم إن الرجل سأل سؤالاً سخيفاً يدل على حمق، فقال الإمام: (الآن يَمُدُّ أبو حنيفةَ رِجْلَيْه).

ما يومُ حليمةَ بسرٍّ

كان المناذرةُ في العراق يتْبَعون دولة الفرس، وكان الغساسنة في الشام يتبعون دولة الروم. فكلما هدأت الحرب المباشرة بين الإمبراطوريتين، قامت حروب بالوكالة بين المناذرة والغساسنة. وقد اقتتل جندُ المنذرِ بنِ ماء السماء ملكِ المناذرة، وجندُ الحارثِ بنِ جبلةَ ملكِ الغساسنة طويلاً. وفي معركة دامت أياماً قال الحارث لقواده: من قتَلَ المنذرَ زَوَّجتُه ابنتي «حليمة»، وكانت حليمة من أجمل النساء. وسمع الفتى لبيد بقول الحارث، فاستعار حصاناً موصوفاً بالسرعة والقوة. وظل يتقدم ويقاتل حتى بلغ المنذر وقتله. فقال له الحارث:

اذهب إلى ابنة عمك حليمة، هي زوجتك. فلم يَرضَ لبيدٌ أن يتركَ أصحابَه فظل في الميدان، ومضى يقاتل حتى قُتل، ولم يتزوج حليمة. لكن تلك المعركة كانت فاصلة، وانتصر جيش الحارث الغساني. كانت تلك المعركة من أشهر أيام العرب. لذلك ضرب بها المثل في الشهرة فقيل: (ما يومُ حليمةَ بِسِرّ).

يا عاقدُ اذكر حلاً

إذا بالغ الرجل في تشديد العُقَدِ وهو يربط متاعه فوق البعير متهيئاً للرحيل قيل له: «يا عاقدُ اذكر حَلَّاً». وقد يضرب المثل لمقاول يكتب على نفسه شرطاً جزائياً باهظاً، ناسياً أنه قد يتأخر في إنجاز المشروع. وكأيِّن من امرأة قطعت علائقها بأهلها في سبيل حبٍّ فطير، ثم ندمت، فيقال لها قبل أن تقاطع أهلها (يا عاقدُ اذكر حلاً).

اليومَ خمرٌ وغداً أمر

كان امرؤ القيس الشاعر الجاهلي جالساً يلهو ويشرب بعد مقتل أبيه، فقيل له: أوَلا تَجِدُّ في طلب الثأر لأبيك، فتنهد وقال: ضيَّعني صغيراً، وحمَّلني دمه كبيراً، لا صحوَ اليوم ولا سُكْرَ غداً. اليومَ خمرٌ وغداً أمر. وذهبت مثلاً. ثم جدَّ في طلب الثأر.

مجير أم عامر

الضَّبُعُ عند العرب تُكْنّى أمَّ عامر، وكان أحدهم واقفاً بباء خبائه، والقوم يلاحقون ضبُعاً فدخلت الخباء. فقال لهم: استجارت بي وقد أجرتها، فلا سبيل لكم عليها. وأخذ صاحبنا يعتني بالضبُعِ ويطعمها ويسقيها. وذات يوم كان نائماً، فبقرت الضبُع بطنه ولعِقت دمه. قال الشاعر: (ومن يجعلِ المعروفَ في غير أهله.. يلاقِ الذي لاقى مُجير أمِّ عامرِ). و«مجير أم عامر» مثل يضرب فيمن يحسن إلى من لا يستحق الإحسان.

إن الشقي وافدُ البَراجِم

البراجم قوم من تميم. وقصة المثل أن قبيلةَ تميم قتلت أخا الملكِ عمروِ بنِ هند، فأقسم أن يقتل منهم مئة. فقتل تسعة وتسعين رجلاً، وأضرم في آخر القتلى النار. وبينما النار مشتعلة أطل رجل من بعيد واقترب. قيل له: ما حاجتك؟ قال: شمِمت رائحة شواء وأنا جائع، فهل أجدُ عندكم طعاماً. سألوه: ممن الرجل؟ قال من البراجم من تميم. فأمر به الملك فقتل وألقي في النار، فتم العدد على مئة. وقال المثل «إن الشقيَّ وافِدُ البراجم».

جاءوا على بَكْرَة أبيهِم

أحياناً يقول بعضهم (جاءوا عن بكرة أبيهم)، والأصح (على بكرة أبيهم)، والبكرة هي الناقة الفتية. وها هي قصة المثل: كان لرجل من الجبارين القتلة عشَرَةُ أبناء. خرجوا يوماً للصيد فأحاط بهم قوم كان الأب قد أوقع فيهم مقتلة عظيمة. فقتلوهم جميعاً واحتزُّوا رؤوسهم، ووجدوا في المرعى ناقة بَكْرة من نياق الرجل الجبار، فوضعوا الرؤوس في مخلاتين على الناقة، وتركوا الناقة تمضي في سبيلها. فعادت الناقة وحدها إلى الرجل، فظن أن في المخلاتين بيضَ نعام قد جمعه أولاده، فإذا فيهما رؤوسُ أولاده، فقال: جاءوا على بكرة أبيهم. واليوم نطلق المثل على ناس يجيئون جميعاً لا يتخلف منهم أحد.

وافَقَ شَنّ طَبَقة

كان شنٌّ رجلاً من العرب، اتخذ له رفيقاً في سفر. وبينا هما ماشيان قال شنٌّ لرفيقه: أتحملُني أم أحملُك؟ فعجب رفيقه لهذا السؤال وتجاهله. ثم مرا بزرع فسأل شنٌّ بعض الناس: أأُكل هذا الزرع أم لم يؤكل؟ فتعجب منه رفيقه أكثر. وبعد حين مرا بجنازة، فسأل شنٌّ أحد المشيِّعين: أحيٌّ صاحبُ النعش أم ميت؟ وتعجب رفيقه للسؤال كل العجب، وكتمها في نفسه. ووصلا إلى بلدة رفيقِه، فقال له: تبيتُ عندي الليلة. فمضى شنٌّ معه. دخل الرجل إلى

مكان النساء في البيت، ووجد ابنته «طبقة» تُعِد الطعام، فقال لها: ضيفنا يسأل أسئلة لا معنى لها، وقص عليها القصة. فقالت له ابنته طبقة: «أتحملني أم أحملك» معناها أتحدثني أم أحدثك كي ننسى تعب السير، و«الزرع الذي أُكل» يكون صاحبُه قد استوفى ثمنه مقدماً فلن يَأكل منه عند الحصاد، و«الميت يكون حياً» إذا خلَّف عَقِباً. فخرج الرجل إلى ضيفه شن، وقال له: سأخبرك بتفسير أسئلتك، وأخبره. فقال له شنّ: ومن أخبرك بهذا؟ فقال: ابنتي طبقة. فخطبها شن، وتزوجها. فقيل: وافق شَنٌّ طبقة.

تغافلْ كأنك واسِطِي

قال المبرد: كان الحجاج يُسَخِّر أهل واسِط بُعَيد إنشائها في البناء. فيذهب الواسطي إلى المسجد ويجلس وسط الغرباء. فيأتي الشرطي ويقول: يا واسطي! فمن رفع رأسه أخذه. فتعوَّد الواسطي أن يتغافل ولا يرفعَ رأسه، فقيل لكل من يطنِّش إنه (يتغافل كأنه واسطي). وبنى الحجاج واسط كي يكون بمَنجاةٍ من أهل الكوفة والبصرة. وماذا عن بغداد؟ لم تكن قد بنيت بعد، انتظرت خمسين سنة هجرية بعد موت الحجاج ليأتي المنصور ويبنيَها.

خذ من الرَّضْفة ما عليها

كانوا يضعون الرَّضْف، وهو الحصى الأملس، في النار، ثم يضعونه في اللبن الحليب لتسخينه. ويأتي الرجل إلى خِباء البخيل ضيفاً فلا يسقيه الحليب، ويجد الضيف الرضْف في قعر الإناء وقد لصق به شيء من الحليب، فيقال له «خذ من الرَّضْفة ما عليها». أي اكتف بما أتيح لك ولا تطلب المزيد.

أحمق من رِجْلَة

الرِّجْلَة بقلة تنبت على جانب السيل فيقتلعها، لذا وصفوها بالحمق. تغدى الشاعر الوراق عند بخيل فما وضع على المائدة لحماً ولا خبزاً بل وضع

إضمامة من هذا العشب، من الرِّجْلَة. فسألوا الشاعر: كيف كان أكلك عند فلان البخيل؟ فقال: (وأحمقٍ أضافَنا ببَقلَةْ.. قد مدَّ في وجه الضيوف رِجْلَهْ).

أسخى من حاتم

جاعت الناس في سنة قحط. فسهر حاتم الطائي لا يقدر على النوم من جوعه، وسهرت امرأته. ثم إنها تناومت حتى ينام. فناداها مرة ومرة فلم تجب. فخرج من الخيمة وقعد على صخرة. رأى امرأة معها صِبيتُها جائعين هائمين يطلبون شيئاً يَقوتُهم. فناداها أن تعالي. فهبَّت زوجته المتناومة من مرقدها، وقالت له: وماذا ستطعمهم ونحن جائعون؟ فما رد بشيء بل قام إلى فرس ليس عنده سواه، فنحره وأوقد ناراً، وقعد يشوي، فاجتمع على رائحة الشواء نساء وصبيةٌ من كل صوب، فراح يطعمهم حتى لم يبق من الفرس شيء، ثم قعد على صخرته ولم يأكل شيئاً.

أسرقُ من بُرجان

برجان لصٌّ صلبوه في جذع نخلة. مرَّ به رجل على حمار، فقال له بُرجان: قد دفنتُ ذهباً في الموضع الفلاني، ثم صلبوني، فاذهب وخذ نصفَه وأعط النصفَ لامرأتي فلانة. فربط الرجل حماره بالنخلة وانطلق. ومر رجل آخر فقال له بُرجان: فُكَّ حماري وخذه فلم تعد بي إليه حاجة، وأعطِ زوجتي فلانة عشرين درهماً. فتحمس الرجل للصفقة المغرية. ورجع صاحب الحمار الذي لم يجد ذهباً ولا خزفاً، فما وجد حماره. وهكذا سرق بُرجان الحمار وهو مصلوب.

أسمع جعجعة ولا أرى طِحناً

الطِّحْن بكسر الطاء هو الطحين. ترى الحكومة - مثلاً ـ تصدر القرار تلو القرار، وتقول إنها ستعاقب الفاسدين وسوف وسوف، ثم لا تفعل شيئاً. فأنت تقول لها (أسمع جعجعة ولا أرى طِحناً).

إنَّ من البيان لسحراً

كان الزِّبْرِقانُ بن بدر في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخذ يفتخر ويذكر مآثره، وطلب من عمرو بن الأهتم أن يشهد له. فقال عمرو: «أجلْ يا رسول الله، إنه مانعٌ حوزَتَه، مُطاعٌ في أندِيَتِه، شديدُ العارضة». فلم يعجب الزبرقان أن الرجل اقتصر على هذه الصفات، فقال: أما والله لقد علمَ أكثر مما قال. فقال ابن الأهتم: «والله يا رسول الله ما علمتُه إلا ضيِّقَ العَطَن، زَمِرَ المروءة، لئيم الخال، حديث الغنى». فرأى عمرٌو الكراهة في وجه رسول الله لهذا الذم، فاستدرك وقال: «لقد رضيتُ فقلت أحسنَ ما علمت، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت؛ وما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية». فقال الرسول: «إنَّ من البيان لسحراً».

جولة سريعة على الأمثال

أساء سمْعاً فأساء جابَةً. سأل الرجل ابنه: أينَ أَمُّكَ؟ أي أين مقصِدُك. فقال: ذهبتْ تشتري دقيقاً. فقال الرجل: أساء سمعاً فأساء جابَة. والجابة هي الإجابة. وذهبت العبارة مثلاً.

الغنم تَذِلُّ لذئب واحد. قيل للإسكندر إن عسكر دارا الفارسي كثير، فقال: إن الغنم وإن كثرت تذِلُّ لذئب واحد.

أبلغُ من سَحبانِ وائل. كان سحبان خطيباً مُفْلِقاً يتكلم ساعات ولا يحرك يداً. يكتفي بلسانه.

آخِ الأكفاءَ، وداهِنِ الأعداء.

آفةُ الرأي الهوى وآفةُ العلم النسيان.

آخرُ الدواء الكي.

صديق السوء يتابعك كظلك، فإن حل الظلام اختفى. إذا وقعت في ورطة فهو يختفي اختفاء الظل في الظلمة.

أترَفُ من ربيب نعمة.

أثقل من مغن وسط. كانوا يُسَرُّون بالمغني الجيد، ويرتضونَ المغني الرديء، فهم يعبثون به ويكونُ مَسْلاة للمجلس. فأما المغني الوسط فلا هو للطرب ولا هو للتسلية.

إن كنت سنداناً فاصبر، أو مِطرقة فأَوْجِع.

إذا ضربت فأوجع، فإن الملامة واحدة.

بنتُ الجبل تقول عن سماع. وبنت الجبل هي (الصدى) الذي يردِّدُ الصرخة بين شعاب الجبال، والصدى صادق، فهو يعيد الصرخة كما هي. فإن فضح طفل قولاً سمعه من أبيه، ثم أنكر الأب، قيل له «بنت الجبل تقول عن سماع».

أجلستُ عبديَ فاتَّكأ.

سمحت له بالدخول فدخل هو وحماره.

احمل العبد على فرس، فإن هَلَكَ هَلَكْ، وإن عاش فَلَكْ. أي فإنه يبقى مِلكاً لك.

أخزى الله الحمار مالاً، لا يُزَكَّى ولا يُذَكَّى. فهو ليس مما تجب فيه الزكاة، وهو لا يذكى أي لا يذبح.

أَتْبِعِ الدلوَ رِشاءها. والرِشاء الحبل. أنت تلقي الدلو في البئر وتمسك بالحبل، فإن ألقيته وراء الدلو فأنت تريد أن تتخلص من كل شيء.

أذلُّ الناس معتذِرٌ إلى لئيم.

أسخى من البحر.

أحَشَفاً وسوءَ كيلَة! الحشف أردأ التمر. تشتري حشفاً ثم إذا البائعُ يغشُّك في الكيل. يبخس أحدهم أجرك لقاء عمل عملته، ثم تراه يؤخر الدفع ويمطُلُك، فتقولُ له: أَحَشَفاً وسوء كيلَة.

آكَلُ من رحى. والرحى حجر الطاحون.

آكَلُ من ضِرس.

آكَلُ من النار.

آكَلُ من الفيل. وبحسب ناشيونال جيوغرافيك فالفيل يأكل ١٥٠ كيلوغراماً في اليوم.

آكَلُ من حوت. وقدَّروا أن الحوتَ الأزرق قد يلتهم في اليوم ٤,٠٠٠ كيلوغرام من الأسماك.

آلَفُ من حمام مكة.

آمَنُ مِن دار أبي سفيان.

آنَسُ مِن الحمام. فالحمام يأنس الإنسان ويعشش عنده، ثم يأخذ الإنسان فراخه ويذبحها، ويظل الحمام معششاً. ولذلك قال المثل الآخر:

أحمق من حمامة.

أبخل من صبي.

أبصَرُ من الهدهد، فالهدهد رأى مَلِكَةَ سبأ وعاد بخبرها إلى النبي سليمان.

أبطأُ من غراب نوح. فالغراب غاب ولم يعد ببشرى نهاية الطوفان إلى النبي نوح. وما عاد بالغصن إلا الحمامة.

أبْرَدُ من مُسْتعْمِل النحوِ في الحساب. فالأعداد بالعربية تحتاج إلى إعمال ذهن إن أردت أن تقيمها على ميزان النحو. فمن أصر على إعرابها في مقام الحساب فهو بارد ثقيل الدم.

أبْلَدُ من سُلَحْفاة.

أحلى من لبن الأم، وليت شعري من يذكرُ طعم حليب أمه!

أبهى من قُرْطَيْنِ بينهما وجهٌ حسن. وهذا مثل يحسن بنا أن نقف كي نتأملَ جمال صياغته.

أبغَضُ من القدح الأول. يجد الشارب رداءة طعم الخمر خصوصاً في القدح الأول، وكل خمر رديئةُ الطعم مُزَّة. ولكن المرء يمضي في الشرب كي يفقد بعض عقله.

أنا تَئِقٌ وأنت مَئِقْ، فكيف نتفقْ؟ التئق الغضوب، والمئق الجزوع، تسيل الدموع من مآقيه فهو مئق.

آفَةُ المروءة خُلْفُ الوعد.

أمثال عامية

قصة عامرة بالأمثال: قال الفلاح الكهل لولده الشاب: (**المثل ما خلّى شي إلا قاله**). فاسمع مني: لا تكن جاحداً مثل الذي (**أكَل الهدية وكَسَر الزبدية**)، وابحث عن الأصل الطيب (**خوذ الأصيلة ولو كانت ع الحصيرة**)، واقنع بما جاءك (**إيش ما طبخت العمشا جوزها بتعشى**)، وكن سمْحاً ليناً (**إذا بدك تستريح شو ما شفت قول مليح**)، وشغل عقلك تعرفِ الصواب حتى لو لم تره (**الله ما شافوه، بالعقل عرفوه**)، واقبل الآخرين من كل ملة (**كلّ مِن على دينُه الله بعينُه**)، ولا تلم غيرك مع أن الذنب ذنبُك، قال المثل الفصيح «**رمتْني بدائها وانسلت**»، ومثلنا العامي أظرف: (**ضربني وبكى وسبقني اشتكى**)، ولا تنفق من غير كسبِ يدك (**لحاف العيرة ما بدفّي، وإن دفّا ما بِكفّي**)، وحاسن الناس وتواضع، تنل حقَّك وزيادة (**الأرض الواطية بتشرب مَيّتها ومَيّة غيرها**)، وإياك والسهر فالأرض تحب الفلاح النشط (**مكتوب على ورق الخيار اللي بسهر بالليل بنام بالنهار**)، ولا تنفرد عن الجماعة (**اللي ما بيجي معك تعا معو**)، وقال المثل يا ولدي: (**إذا كبر ابنك خاويه**) أي عامله كأخ لك. وها قد أعطيتك الحكمة التي تعلمتها في سني عمري الطويلة. وها إني أخاويك، فخذ هذا الكيس وفيه ما يكفيك من مال، وارحل إلى المدينة وابحث عن عمل». ذهب الشاب إلى المدينة وصحب شباناً من عمره، قالوا له: تعال معنا إلى أماكن اللهو والعبث، فرفض وأصر على رفضه، وقال لهم بل نذهب إلى

مقهى محترم، فضحكوا منه، وما زالوا يغرونه حتى ذهب معهم. ويوماً بعد يوم أنفق كلَّ ما في كيسه في أماكن اللهو، ورجع إلى قريته خائباً. قال له أبوه: ونسيتَ كلَّ ما علمتك من حكم وأمثال؟ قال الشاب، بل تذكرت المثل: (**اللي ما بيجي معك تعا معو**). قال له أبوه: لعن الله الشيطان هناك مثل أُنسِيتُه: (**الواحد ما بتعلم إلا من كيسه**).

جولة في أمثال الدول العربية

البحرين

أضبَط من ساعة الملا.

إذا بغيت صاحبك دوم، حاسبه كل يوم.

اللي ما يعرف الصقر يشويه.

السعودية

الشيب لاح والسن طاح واللي راح راح.

اربط الحصين عند الحمير، يتعلم النهيق.

قرصُه في ناره، وعينه على جاره.

المغرب

لا تشتري حتى تقلب، ولا تصاحب حتى تجرب.

اللي عضّو الحنش، كيخاف من الحبل.

امدح صاحبك مع الناس، ولومه الراس في الراس.

جوج ما كيقنعوش: الأرض ما كتقنعش من المطر، والعين ما كتقنعش من النظر.

أتاي العشية خير من بقرة مشوية. الأتاي المغربي شاي له طقوس.

تعلموا يا الحجَّامة في روس اليتامى.

ما تقطع الواد حتى تبان حجاره، وما تمشي في الليل حتى يطلع نهاره، وما تصحب صديق حتى تعرف خباره.

الدنيا دراعة، كل واحد كيلبسها ساعة.

اللي ما تيخيط كساتو، وما يطيب غداتو، وما يحلب شاتو، موته أحسن من حياته.

تونس

اللي يعمل الخير ما يشاورش.

بوسعدية خايف من الكلب، والكلب خايف من بوسعدية.

صاحب صنعتك عدوك، ولو يكون خوك.

رخص الحرير حتى مسحوا بيه الطناجر. ومثال ذلك أن الجامعات الرديئة منحت شهادة الدكتوراه يميناً وشمالاً فأرخصتها. شاب معه دكتوراه يشتغل في غسل السيارات ويشكو، ونقول له المثل.

العظْمة ما تقول طق ما كان فيها شق.

ذيل الكلب حطوه في قصبة سنة طلع أعوج.

كل من سمن يهزل وكل من طار ينزل وهذا يشبه قول القديم: **ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.**

لبنان

ألف دعوة ما مزقت قميص، وألف زلغوطة ما جوزت عريس.

حظه من السما، اللي بتحبه الحما.

مات المير ما حدا اهتم فيه، مات كلب المير كل الناس عزَّت فيه.

حكرة بكرة: سيد رواة الأدب الشعبي اللبناني سلام الراسي، روى لنا قصة حكرة بكرة. كان لرجل ابنةٌ اسمها حكرة، وأخطَبَها ابنَ عمِّها، لكنَّ ابنَ عمِها سافر إلى البرازيل، ومرت سنة ثم سنة، فأرادت زوجته أن تعطيَ البنتَ لابن أخيها لأن **رزقَ الغايب سايب**. وكانت خِطبةٌ جديدة على ابن الخال. وفجأة رجع ابنُ العم من السفر. وقامت القيامة. أبو البنت (حَكَرة) نزل إلى حقله وأخذ يتجول حائراً. رأى حمارته واسمها (بَكَرة) ترعى، فدعا ربه أن يحول الحمارة (بكرة) إلى بنتٍ توأمٍ لابنته حكرة. واستجاب الرب. فصار عند الرجل ابنتان توأمان. فحُلَّت المشكِلة، سيتزوج ابنُ العم بنتاً، وسيتزوج ابنُ الخال توأمها. ولكن زوجته أرادت أن تزوج ابنتها الحقيقية لابنِ أخيها فماذا تصنع؟ أجلستهما قُبالتها وأخذت بالعِدِّية: (حكرة بكرة قال لي ربي عدي للعشرة واحد اثنين..) ووقعت يدُها على إحداهما. بالمناسبة حكرة وبكرة ظلتا من البشر ورزقتا أبناءً من جنس البشر.

اليمن

من كثروا خطابها بارت.

لي ما يعرف الدخون حرق ثوبه. والدخون هو البخور.

مصر

خنفسة شافت ولدها ع الحيط قالت لولي وملضوم ف خيط.

ضربْت الودع ما لقِتش صاحب جدع.

ربنا مش حيديك حمل تقيل، غير لما يكون عندك كتف يشيل.

إيش ياخد الريح من البلاط. الفقير المعدِم ليس لديه ما يخسره مهما اضطربت أحوال الدنيا حوله.

العيلة اللي ما فيهاش صايع حقها ضايع. وهذا يوازي المثل العربي القديم: **ذلَّ من لا سفيهَ له.**

الأردن

من سلمك مذبَحه لا تذبحه.

دق الطبلة تيجي ميت هبلة.

قالوا للبغل مين أبوك؟ قال الحصان خالي.

وقد نظم شاعر الأردن عرار أمثالاً شعبية في قصيدة. نقرأ القصيدة ثم نورد الأمثال:

عِلْمي بِعَمَّانَ مِن بعضِ القرى فإذا
عمَّانُ عاصمةُ الأردنِّ تَحميهِ
لا أنتَ للسَّدِّ إن عُدَّ الكرامُ ولا
للهَدِّ في الحربِ إن نادى مُناديهِ
يُعْمي دخانُكَ إنْ أَوقَدْتَ نارَ قِرىً
والخيرُ لا فيكَ يا هذا ولا فيهِ
مَوْتُ الحميرِ على عِلَّاتِهِ فَرَجٌ
يَشفي كلابَكَ مِن جوعٍ تُعانيهِ
إن البراطيل قِدْماً خرَّبَتْ جَرَشاً
والحاكِمُ الفَذُّ لَكَّامٌ لِشانيهِ

علمك بعمان قرية. هذا يضرب لتغير الحال. تسأل الرجل عن جاره الفقير. فيقول لك: علمك بعمان قرية، لقد أصبح صاحب شركة. ذلك أن العاصمة الأردنية كبرت ونهضت في غضون سنوات قليلة.

لا أنت للسدّ ولا للهدّ. مثل يقال في شخص لا منفعة من ورائه.

خير! ما فيك خير، دخانك بعمي الطير.

موت الحمير فرج للكلاب. هذا يضرب للتاجر الجشع تلحق به خسارة كبيرة فيغلق محلاته فيستفيدُ منافسوه.

البراطيل خربت جرش. آثار مدينة جرش كانت تبهج العين وتدل على حضارة رومانية زاهية. وبدأ الناس يأخذون حجارتها لبناء منازلهم، فصدر قرار من الوالي بمنع ذلك. ولكن الناس رشوا الوالي فسمح لهم، فخربت جرش فوق خرابها.

فلسطين

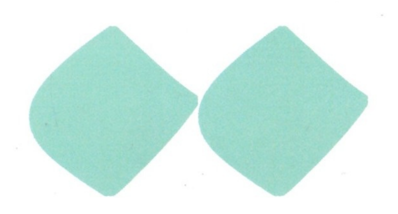
بوس الكلب من تمه لتاخذ حاجتك منه.

حط راسك بين الروس وقول يا قطاع الروس.

القرد في عين أمه غزال.

يا داخل بين البصلة وقشرتها، ما ينوبك إلا ريحتها.





هذا الكتاب

يكون في المجلس طفلة في العاشرة، وعجوز في الثمانين، ويقص رب البيت قصة رجل وجد في الطريق ولداً تائهاً يبكي.

الطفلة تنصت، وجدتها تنصت. سمعتا البداية ويُريدان معرفة النهاية: هل وجد الولد أهله، أم تبنَّاه الرجل.. أم ماذا؟

وتقص ربة البيت قصة عن شجرة عظيمة يسكن في أعلاها غول، وقد صعد "الشاطر حسن" إلى أعلى الشجرة، إلى بيت الغول.

الكبير والصغير في المجلس ينصتون. وهم يعرفون أن هذه القصة كذبة كبيرة. لكنهم ينصتون.

القصة عماد الأدب النثري.

في هذا الكتاب شيء من خرافات العرب، ومن أنصاف الخرافات. وفيه طرائف اللغويين والنحاة، وفيه كثير مما كان يجري في مجالس الأمراء: بعضه قريب من الحقيقة، وبعضه بعيد عنها.

وفي الكتاب خرافات ألمانية وإنجليزية، وفيه حكايات مما وقع للمؤلف، وفيه جملة من قصص الأمثال. هذا إلى عدد من قصص الأنبياء كما روتها كتب التراث.

فإن خطر ببال القارئ - ونرجو أن يخطر - أن الحكاية مادة الأدب، فقد يعرف لهذا الكتاب قدره.

الثمن: ١٠ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN 978-614-431-741-9





